المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه

شمس العرب تسطع على الغرب

« أثر الحضارة العربيّة في أوروبة »

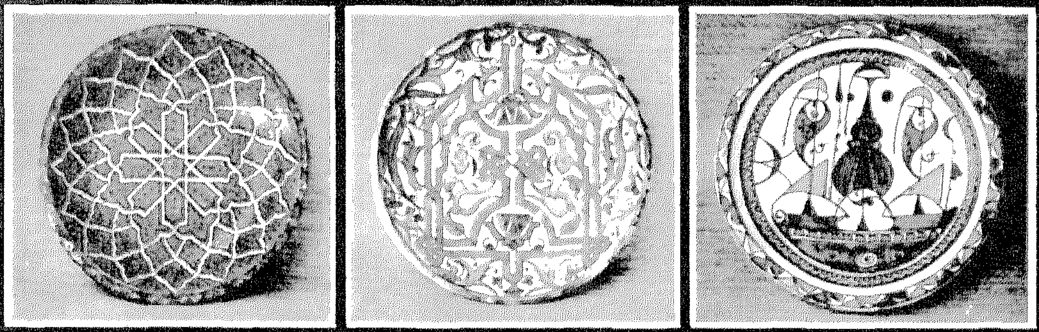

Bibliotheca Alexandrina
0121573

الطبعة ٩

الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الاعلان
دار الآفاق الجديدة

شمس العرب
تسطع على الغرب

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1991/516

المستشرقة الالمانية

زيغريد هونكه

شمس العرب تسطع على الغرب

« أثر الحضارة العربيّة في أوروبة »

نقله عن الألمانيّة

فاروق بيضون   كمال دسوقي

راجعه ووضع حواشيه

مارون عيسى الخوري

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان   دار الآفاق الجديدة

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الآفاق الجديدة

الطبعة التاسعة
1411 هـ — 1991 م

رائع هو الشرق،
القائم خلف الحوض المتوسط .
فالذي يحب «حافظاً» ويعرفه .
يعلم وحده ما أنشده «كالدرون»

جوته
من «ديوان الشرق والغرب»

مقدمة الطبعة الثامنة

منذ العام ١٩٦٤ تاريخ صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب الى يومنا هذا ، لم يهتم النقاد العالميون بأي كتاب اهتمامهم به ، بدليل مئات التعليقات عليه في الصحف والمجلات ، بين مهاجم للمؤلفة تعصبها للعرب ومدافع ومفند لآراء المتعصبين ضدهم ، وفي هذه الفترة من الانتقادات والانتقادات المضادة ، لاقى الكتاب رواجاً منقطع النظير فاعيد طبعه مرات عديدة وفي كل مرة كان الاقبال عليه شديداً وكان ولا يزال يتصدر لائحة الكتب الخالدة .

وكم نحتاج في عالمنا العربي الى مثل هذه المؤلفة التي وقفت تدافع عن ماضينا التليد لتعيد الينا رونق الثقافة والتاريخ العربيين اللذين طمستهما التعصبات الدينية ونالت منها أقلام وألسنة المفترين ، فكان موقفها مشرفاً وخالداً خاود تراثنا العريق .

ومع صدور الطبعة الثامنة نتمنى ان يمن الله علينا بامثال هذه المؤلفة التي اعطت الكثير وجلت الكثير ليبقى تاريخنا كما كان عظيماً يحتل المكانة الاسمى .

ونتقدم أخيراً من الاستاذ لطف الله قاري بالشكر الجزيل على ما بذله في تصحيح الاخطاء الواردة في الكتاب والتي سهونا عنها في طبعات سابقة ، فله منا عظيم الامتنان ، وللقراء العرب أجمعين نقدم هذه الطبعة الجديدة .

الناشر

كلمتنا

الدكتورة زِيغرِيدْ هونكِه ، مستشرقة المانية طائرة الشهرة ، أحبّت العرب ، ومازالت ، وصرفت وقتها كلّه باذلة الجهد للدفاع عن قضاياهم والوقوف الى جانبهم . وهي زوجة الدكتور شولتزا ، المستشرق الالماني الكبير ، الذي اشتهر بصداقته للعرب وتعمقه في دراسة آدابهم والإطلاع على آثارهم ومآثرهم . وقد عاشت المؤلفة ، مع زوجها ، عامين اثنين في مراكش ، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية دارسة فاحصة .

تناولت المؤلفة ، في اطروحتها التي تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه في جامعة برلين ، أثر الأدب العربي في الآداب الاوروبية . وفي عام ١٩٥٥ صدر مؤلفها الاول : « الرجل والمرأة » ، وهو كتاب تاريخي ، اكّدت فيه الكاتبة ، كما فعلت في كتبها كلها التي تتالت ، فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة ، والحضارة الانسانية عامة ؛ كما انها كتبت ، في الموضوع نفسه ، وبالروح النابضة بالصداقة الخالصة والمحبة العميقة ، عدداً كبيراً من المقالات في الصحف الاوروبية ، وأعدّت أحاديث وتمثيليات للاذاعات العربية والالمانية على السواء .

وكتابها « شمس العرب تشرق على الغرب » هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة ! والمكتبة الالمانية ، لا تحوي في هذا الحقل الواسع ، سوى عددٍ من المقالات المتناثرة في المجلات العلمية لا تشفي غليل الباحث المدقق.

ولذا ، كان ظهور كتابها هذا ، الذي نفخر الآن بتقديمه الى القارىء العربي ،

حدثا كبيراً في المانية وأوروبة ، علـّقت عليه مئات الصحف والمجلات، بدليل أن نقاد أوروبة لم يهتموا بشيء في ذاك العام ، اهتمامهم بهذا الكتاب ؛ فهاجم عشرات منهم المؤلفه والكتاب معاً ، واتهموها بالتعصب للعرب والتحيز لهم . بيد أن أصدقاء العرب في كل مكان انبروا يفندون مزاعم هؤلاء ويردون على افترائهم ، فشهد الكتاب ، في عامه الاول ، معركة حامية الوطيس ، لم يعرفها كتاب غيره في المانية في السنوات الاخيره . وبهذا ، لاقى الكتاب، وسط هذه الضجة ، نجاحاً منقطع النظير ، فأعيد طبعه وُترجم الى عدد من اللغات الاجنبية ، كما رحـّبت به الصحافة العربية ترحيباً بالغاً .

وفي صيف ١٩٦١ ، دعت الحكومة العراقية ، المؤلفة وزوجها لزيارة بغداد تقديراً لهما . وفي صيف عام ١٩٦٢ ، زارت الدكتورة هونكه وزوجها الجمهورية العربية المتحدة بناءً على دعوة حكومتها لهما ، معربة عن تقديرها وعرفانها بالجميل ، لجهودهما المتواصلة في خدمة العرب .

وتعيش المؤلفة اليوم مع زوجها وأولادها ببون ، في منزل أثثته على طراز عربي ، لتشعر بسعادة غامرة ، ولتحسّ انها تعيش في جوّ قومٍ أحبتهم حباً شديداً ، فربطتها بهم ثقافة انسانية خـيّرة وفكر شمولي معطاء .

وانه ليسعدنا ، نحن المترجمين ، أن نتقدم اليك ، أيها الأخ في الوطن العربي، بهذه الدرّة الثمينة ، ننقلها إليك بأمانة علمية ، يحدونا أمل باسم في أن نكون قد وُفـّقنا في تأدية رسالتنا ، برغم كل ما واجهنا من صعاب حاولنا التغلب عليها ببذل المزيد من الجهد، لننعم معاً « بشمس الله » تمنحنا الدفء والحياة وتنير أمامنا الطريق .

برلين في ١٩٦٣/٤/١٠

فاروق سعيد بيضون ـ كمال دسوقي

مقدّمة خاصّة بالطبعة العربيّة

للمؤلفة : « زيفريد هونكه »

لم يكن ، من قبيل المصادفة بتةّ ان أكتب انا السيدة الالمانية هذا الكتاب . فالعرب والالمان لا تربطهم فقط أيام دولتهم القوية ، التي انقسمت الآن ، والتي بدأت صعودها من جديد بقوة وحيوية وعزم ؛ انما هي رابطة قوية من الفكر والثقافة قد وثّقت العرى بينهما ، امتدّت جذورها في أعماق التاريخ ، واستمرت على مرّ القرون ولا زالت آثارها حتى اليوم .

وقد ظهرت معالم تلك الروابط واتخذت طابع الصداقة والمودّة منذ اوقف قيصر ألماني عظيم ، أحب العرب وأعجب بهم ، سفك الدماء في وقت سادت فيه العداوة والبغضاء بينهما أيام الحروب الصليبية . فأحلّ بذلك الصداقة المتبادلة محلّ الكراهية والتعصب والعداء .

ومنذ ذلك الحين نمت أواصر المودّة بين ألمانية والعالم العربي . وعلى الرغم من هذا — أقولها بمرارة — فإن الناس عندنا لا يعرفون إلا القليل عن جهودكم الحضارية الخالدة ودورها في نموّ حضارة الغرب .

لهذا صمّمت على كتابة هذا المؤلّف ، وأردت ان أكرم العبقرية العربية وأن أتيح لمواطنيّ فرصة العود الى تكريمها . كما أردت ان أقدم للعرب الشكر على فضلهم ، الذي حرمهم من سماعه طويلاً تعصّب ديني أعمى او جهل أحمق .

وكم سررت ان يترجم كتابي هذا الى اللغة العربية حتى أستطيع ان أحدّث مباشرة قلوب العرب بما يعتمل في نفوسنا من المشاعر . وآمل مخلصة ان يحتل هذا الكتاب مكانه في العالم العربي ايضاً كسجل لماضي العرب العظيم وأثرهم المثمر على اوروبة والعالم قاطبة .

وأنتهز هذه الفرصة لأقدّم شكري الخاص على كل ما لقيته من مودّة أثناء رحلاتي وإقامتي في بلادكم ، وان أكرر الشكر لأصدقائي العديدين من العرب الذين أحاطوني بكرمهم ورعايتهم وعلموني ان أحب العرب والفكر العربي وأعجب بها .

في ٦ ايلول ١٩٦٢
بون — المانية

dr. SIGRID HUNKE
زيغريد هونكه

Dr. Sigrid Hunke

مدخل

لم يَعُد العالم اليوم مقتصراً على اوروبة وحدها ، كما وأن التاريخ الاوروبي لم يعد ، في الوقت الحاضر ، التاريخ العالمي وحده ؛ ذلك ان شعوب قارات أخرى قد اعتلت المسرح العالمي . ففي الوقت الذي كانت تسعى فيه اطراف الارض جميعاً الى رسم خطوط مسرحية التاريخ العالمي ، دون أية وشيجة سابقة تربط بينها ، تعود بنا الذكرى على الدوام الى « خارطتنا للعالم » في القرون الوسطى التي تصوّر اوروبة دائرة يلفّها البحر العالمي، وتتوسطها بلاد الاغريق من جهة ، ورومة من جهة ثانية ، فردوساً لها ومركز إشعاع .

أما أن تكون ثمة شعوب أخرى ، وأطراف من الارض لها شأن عظيم في التاريخ ، بل وفي تاريخنا الغربي خاصة ، فذلك أمرٌ لم يعد بالإمكان تجاهله في حاضر قد طاول النجوم عظمة . لأجل ذلك ، يخيّل إليّ أن الوقت قد حان للتحدث عن شعب قد أثّر بقوةٍ على مجرى الاحداث العالمية ، ويدين له الغرب، كما تدين له الانسانيه كافة بالشيء الكثير . وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مئة كتاب تاريخي ، لا يجد اسماً لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها .

وحتى هذا اليوم ، فإن تاريخ العالم ، بل وتاريخ الآداب والفنون والعلوم لا يبدأ ـ بالنسبة الى الانسان الغربي وتلميذ المدرسة ـ إلا بمصر القديمة وبابل بدءاً خاطفاً سريعاً ، ثم يتوسع ويتشعب ببلاد الاغريق ورومة ، ماراً مروراً عابراً ببزنطية ، ومنتقلاً الى القرون الوسطى المسيحية ، لينتهي منها آخر الأمر ، بالعصور الحديثة .

ولم يكن هناك أحد ليمنح اوروبة ما قبل القرون الوسطى أي اهتمام ، أو ليمنح الأحداث التي جرت في العالم خلال تلك العصور أية أهمية ايضاً. وأما ان يكون العرب في جوار قريب لها ، وان يكون هذا الشعب رائداً لغيره من الشعوب في انحاء الدنيا في غضون سبعمائة وخمسين عاماً حاملاً مشعل الثقافة ردحاً جاوز عصر الاغريق الذهبي بضعفيه أكثر من أي شعب آخر .. فهذا أمرٌ من يعلم به ؟ ومن يتحدث عنه ؟

في سياق الحديث عن الاغريق ، اعترف الاوروبيون بدور العرب في التاريخ حين قالوا : إن العرب قد « نقلوا » كنوز القدامى الى بلاد الغرب .

إن هذه العبارة الوحيدة التي يحاول فيها الكثيرون كذباً وادعاءً تقريظ ما قد اسدوه لأوروبة ، تحدد للعرب ، في الواقع ، دور ساعي البريد فقط ، فتقلل من قدرهم حين تطمس الكثير من الحقائق وراء حجب النسيان .

ليس المهم ان نوسّع آفاقنا التاريخية فحسب ، بل إن الأمر الهام ايضاً في زمننا هذا ان نبحث عن صديق الغد في عدو الأمس ، وان ننطلق من قيود المعتقدات الدينية السابقة لنطل من وراء العقائد ، ومن خلال التسامح والانسانية السامية على البشر اجمعين ؛ وأن تأخذ العدالة مجراها وتردّ حقوق شعب سبق ان حرمه التعصب الديني كل تقدير موضوعي حق ، وحطّ من قدر اعماله الفائقة ، وحجب النور عمّا قدمه لحضارتنا ، بل وغبّله بصمت الموت. اما زال يعتبر هذا العمل عملاً مبكراً ، ولم يحن وقت القيام به بعد ؟؟

إن علاقة الغرب بالعرب منذ ظهور الاسلام حتى هذا اليوم لهي مثال تقليدي عن مدى تأثير المشاعر والعواطف في كتابات التاريخ ، وكان هذا وضعاً له مبرراته في عصر اعتُبر فيه تأثير معتنقي دين آخر أمراً غير مرغوب فيه لخطره الوهمي . إن نظرة القرون الوسطى هذه لم تمتْ بعد ، اذ أنه مازالت ، حتى يومنا هذا ، جماعة محدودة الآفاق بعيدة عن التسامح الديني تبني الحواجز في وجه النور ، ولو بطريقة لا شعورية نابعة من تصرف غائص متشعب الجذور

في أنفسهم إزاء أناس جعلت الدعاوة منهم أبالس مجرمين بشعين ، وعبدة أوثان وفنانين مزوّرين .

وقد نشب في الآونة الأخيرة خلاف محتدم الوطيس حول سؤال واحد يتعلق بمصدر « اغاني الحب » Minnesang ظهر من خلاله شدة النفور من الاعتراف بتراث عربي ، ومدى الانفعال الذاتي الذي يثيره ذاك النفور في قرننا العشريني .

ولم يكن لهذا الخلاف ان يحصل لولا أن الآفاق قد بدأت في الانقشاع شيئاً فشيئاً أو لو أن حكماً عادلا قد اخذ مجراه . ولعلّ مصيرنا سيتعلق بمصير العالم العربي الذي سبق له أن غيّر يوماً ما صورة عالمنا بشكل جذري .

أما آن لنا أخيراً ان نسعى باحثين وراء ما قد يجمعنا ، متخطين ما سبق ان فرّقنا ؟!...

◆

إن هذا الكتاب يتناول « العرب » و « الحضارة العربية» ولا اقول «الحضارة الاسلامية» ؛ ذلك ان كثيراً من المسيحيين واليهود والمزديين والصابئة قد حملوا هم مشاعلها ايضاً . وليس هذا فحسب ، بل إن كثيراً من تحقيقاتها العظيمة الشأن كان مبعثها احتجاجاً على قواعد الاسلام القويمة Orthodoxe . بل أضف الى ذلك ان كثيراً من صفات هذا العالم الروحي الخاصة كان موجوداً في صفات العرب قبل الاسلام .

هذا الكتاب يتحدث عن « العرب » و « الحضارة العربية » بالرغم من أن الكثيرين من بناتها كانوا لا ينتمون الى الشعب الذي عرفه المؤرخ القديم (هيرودوت) باسم (عربيو Arabioi) بل كان منهم ايضاً فرس وهنود وسريان ومصريون وبربر وقوط غربيون ساهموا جميعاً في رسم معالم تلك الحضارة ، بدليل ان كل الشعوب التي حكمها العرب اتحدت بفضل اللغة العربية

والدين الاسلامي ، وذابت بتأثير قوة الشخصية العربية من ناحية ، وتأثير الروح العربي الفذ من ناحية أخرى ، في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم .

إن هذا الكتاب يتحدث عن الثقافة العربية ، كما يتحدث المرء عادة عن الثقافة الامريكية. وكما يحاول بعضهم ان يجعل من الرازي او ابن سينا الفارسي الأصل ، فارسي الروح ، وهما من افراد العائلات التي عاشت منذ احقاب بين العرب، يحاول بعضهم ان يجعل – بالقدرنفسه – من رئيس الجمهورية الامريكية السابق دوايت ايزنهاور ، المانياً .

إن هذا الكتاب يرغب في ان يفي العرب ديناً استحق منذ زمن بعيد . ولئن تناول الحديث ههنا عدداً كبيراً – وإن يكن غير كامل – من عوامل التأثير المباشرة وغير المباشرة في حضارة العرب ، فهذا لا يعني البتة ان مصدر كل خير قد أتى من هناك فحسب ، وهذا لا يعني كذلك أننا قد تجاهلنا أو قللنا من شأن وجوه التأثير الهامة المختلفة التي كانت للإغريق والرومان واليهود على حياتنا . كذلك، فإننا لن ننسى مطلقاً تطور الشعوب الجرمانية والرومانية وفعاليتها الحضارية؛ هذه الشعوب التي أخذت عن الآخرين ما أخذت لتحقق ذاتها.

بساط الحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدٍ كثيرة ، وكلها تهبه طاقتها ، وكلها تستحق الثناء والتقدير .

زيغريد

الكتاب الأول

رفاهية حياتنا اليوميّة

(على بساط من نبات المسك والعنبر
يتثنّى ، وتصفر الريح خلاله ،
كانت أقدامنا تسير ...)

وولفرام فون ايشنباخ

الفصل الاول

أسماء عربيّة لحاجات عربيّة

هل لي يا سيّدتي الفاضلة ، أن أدعوك الى دخول هذا **المقهى** (Café) (١)؟ فإنك تبدين متعبة . وهل لك ان تنزعي عنك شقتك « جاكتتك » Jacke (٢) ، وان تأخذي لك مكاناً على **الصفّة** (Sofa) (٣) ذات **المرتبة** الحمراء **القرمزيّة** ! (Karmin .... Matraze) (٤) . إن **القندي** (صانع الحلوى) (Konditor) (٥) ذا القلنسوة (Mütze)(٦) الفارعة والقباء (Kittel)(٧) الابيض الناصع، سيُحضِر لك حالاً **طاسة** (Tasse) (٨) من قهوة البن (Bohnen Kaffee) (٩) مع قطعتين من **السكر** (Zucker) (١٠)! أم أنك تفضّلين **غرّافة** (Karaffe)(١١) من عصير الليمون « ليموناضة » (Limonade) (١٢) إذ كنت لا ترغبين في تناول **الكحول** (Alkohol) ؟ (١٣) **كلا** ؟ لا ريب انك ترغبين بقطعة من الحلوى مع شيء من **البرقوق** المشمش (Aprikosen) (١٤) ومن **بنان** الموز (Bananen) (١٥) .

... طبعاً ، يا صديقي ، انك ضيفتي اليوم ! فهل لي ، بادىء ذي بدء ، ان اقدم لك شربة (Sorbett) (١٦) من عصير **النارنج** (Orange) ! (١٧) واما هذه «الارضيّ شوكة» (Artischoken)(١٨) المحشوّة فلسوف تفتح شهيتك. وما رأيك الآن بهذه الوجبة من الكمأة المقلية مع **الرز** (Reis) (١٩) **والسبانخ** Spinat ؟ (٢٠) وبعد ذلك، سأقدم لك محشوّات من القرفة (Zimt) (٢١) في حساء من عرق

التمر (Arrak) (٢٢) . ولا بدّ في النهاية من فنجان قهوة «مخا» (Mokka) (٢٣).

ورجائي ان تخلدي ، يا صديقتي ، إلى الراحة على هذا **الديوان** (Diwan) ٢٤ ، وان تتصرّفي وكأنكِ في بيتك ، واعلمي أن كل ما يحيط بك هنا من أشياء وتحف ، وكل ما قدّمته لك من مأكل ومشرب ، قد أضحى أمراً طبيعياً في حياتنا اليومية منذ زمن بعيد ، وهو يعود ، في الواقع ، الى عالم قديم غريب ، ألا وهو عالم العرب .

فالقهوة ، التي تنعشون بها حياتكم اليوميّة وحب **البن** ، كذلك **الطاسة** التي تتناولون بها القهوة المغليّة ، **والسكر** الذي تكاد لا تخلو منه اية لائحة طعام في المطعم ، وعصير **الليمون** (ليموناضة) **والغرّافة والقباء والسترة والقلنسوة والمرتبة** ، كل هذه الاشياء انما اخذناها عن العرب ، واخذنا معها حاجات اخرى لا تزال تحتفظ باسمائها العربيّة الاصليّة في كل انحاء العالم المتحضر . ولنا في ذلك اكثر من مثل ، فمن **القند** (Kandis) او قنديد (عقيد السكر) (Zucker Kand) الى **القندي** (صانع الحلوى) (Konditor) ، ومن **البرقوق** الكبير الحجم المجفف ، الى **الكمثرى** وأصابع التفاح المعقود .

حسناً ، قد تقولون : لا بدّ من ان تكون هذه الفاكهة قد أتت من الجنوب أو من الشرق . ومن الطبيعي ان تحتفظ بطابعها الشرقي باقية على اسمائها العربية ! وقد تقولون أيضاً ، وقد أخذ الغيظ منكم كل مأخذ ، إنه بوسع أي طفل ان يستعمل كلمات غريبة في نوعها ، مشيراً الى مصدرها الأساسي .

وقد تقولون ، حين يدب التعب في اوصالكم حتى درجة **الموت** ، فترغبون التمدّد على الصفّات (صوفا) وعلى الديوان (Diwan) أو على الصفة **العثمانية** (Ottommane) ، او في الهرب من ضجيج الحياة الى قُبّةٍ ما

(Alkoven)(٢٥)..قد تقولون، انهذه الكلمات غريبة ومصطنعة نادر استعمالها، ومصدرها واضح في رنتها .. فهل علمتم انكم الآن ، وبصورة لا شعورية ، قد استعملتم كلمة عربيّة الأصل مأخوذة من لعبة الشطرنج (التي اخذناها نحن الاوروبيين عن العرب في عصر شارل الكبير والخليفة هارون الرشيد) ونعني بها كلمة **مات** (Matt) التي تعني انه قضي عليه (وما كلمة شاه إلا مرادفاً للملك) اذا **مات الملك** ! (Schachmatt) (٢٦) .

قد تضحكون الآن او تغتاظون ، وفي كلتا الحالتين ستغلب على وجوهكم ألوان من الاستغراب تشبه في تقطيعها طاولة الشطرنج ؟!!

هلاّ علمتم أيضاً ان **القفـّة** (حقيبة) (Koffer) (٢٧) المعروضة هناك بالقرب من محفظة الجلد المراكشي (Maroquin) (٢٨) وزوج الطماق (Gamaschen) (٢٩) ما تزال تحمل طابع المسافر العربي الذي عشق الترحال والتنقل في بلاد الله الواسعة !. هل ترون تحف الرفاهية (Galanterie)(٣٠)والزينة المعروضة في هذه الواجهة ! متعّوا أنظاركم بروعة زخرفتها وجمال حياكتها ! فهذا هو **البرقان** (Barchent) (٣١) وذاك قماش **القطن** (Katun)(٣٢) . وهذا هو قماش **الموصل** البديع (Musselin)(٣٣) وهناك **المهير** (قماش من شعر الماعز) (Mohair) (٣٤) الناعم. وانظروا الى ذاك القماش **الشفاف**(Chiffon)(٣٥)**والساتان**(٣٦)الارستقراطي **والتفتة** (Tafta) (٣٧) الرفيع والقماش **الموّار** (Moiré) (٣٨) المموّج ، والى حرير **الاطلس** (Atlas) (٣٩) الفخم **والدمقس** الفاخر (Damast) (٤٠) المستورد من دمشق؟ انها في غاية الروعة، تضاهي بعضها بعضاً جمالاً ونعومة؛ وخاصة أن الألوان تضفي عليها سحراً خاصاً ، تلك الألوان من **الزعفران** (Safran) (٤١) الذهبي والبرتقالي والقرمزي (Karmesin)(٤٢) **والليلكي**(Lila)(٤٣) الغامق وغيرها التي ندين بها للعرب .

هل تشعرون حين تدخلون عِطارة ما (Drogerie) (٤٤) بأنكم تقفون أمام « اكتشافات عربية » ؟! فتجارة العقاقير ، في حدّ ذاتها ، تجارة عربيّة .

ويكفي ان تلقوا نظرة واحدة على كل هذا الذي لا يزال يعرف باسمه العربي الأصيل .

أجل، إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين – والتاريخ شاهد على ذلك – في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب . وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زيّنت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس ، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب ، الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً ، وزركشته بالتوابل الطيّبة النكهة، وطيّبته بالعبير العابق ، وأحياناً باللون الساحر ، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة ...

الفصل الثاني

اوروبة الجائعة في ظل التجارة العالمية

يُؤثَر انه عام ٩٧٣ أبحرت سفينة تمخر عباب الأطلس ، مارّةً بالشواطيء الغربية لفرنسة ، ودارت حول رأس « غري نه »(٤٥) متجهة الى الشمال الشرقي. وكانت هذه السفينة محملة ببضائع مختلفة منها: الزيت الأندلسي، والتين والخمور من « ملقة » (Malaga) (٤٦) ، وحجر الشبّه القشتالي للدباغة ، وتوابل شتى، كانت تفرغ منها في كل من بوردو (٤٧) ، وروان (٤٨)، وإترخت (٤٩) وشلازفيك (٥٠) . وقد رافقها في رحلتها هذه وفد يرئسه سيدي ابراهيم بن احمد الطرطوشي، الموفد من قبل الخليفة الحكم الثاني (٥١) في قرطبة (٥٢). وكان هدف هذه الرحلة ان تقصد قصر الملك الروماني الطائر الشهرة « هوتو » أو « أوتو » الاول في بلاد الساكس ، وقد حط عصا الترحال آنئذٍ من رومة بعد أن احتفل بعقد قران والده على ابنة الانبراطور اليوناني وتتويجه، بغية الاستقرار في مدينة كدلينبورغ (Quedlinburg) من أعمال الهرتز (Harz) (٥٤) . وكان هذا الفاتح ، ومجدد الانبراطورية (٥٥) في اوروبة ، في ذروة مجده وبأسه . فتوافد الأمراء من الدنيمارك وبولونية والسلاف وبوهيميا واليونان وبلغارية والمجر وايطاليا لإعلان طاعتهم له ، واجمعوا كلهم في رحاب البلاط الانبراطوري الذي ماج بهم أن يدينوا بالإخلاص والولاء لأعظم سلطان في أوروبة .

وما إن حلّ شهر نيسان حتى نقل الانبراطور بلاطه الى مدينة « مِرْزِبورج »

(Merseburg) ، حيث أُتيح لوفد امير المؤمنين برئاسة ابراهيم بن احمد الطرطوشي ان يتشرّف بمقابلة امير المسيحية الاول ، وكان لقاءٌ حارٌّ قبيلَ فيه القيصر « اوتو » الاول كل الهدايا الثمينة ، التي عدّت أثمن هدايا وقع عليها بصره ؛ فقابلها بالمثل . ولم يمر طويل وقت حتى أغمض انبراطور بلاد الساكس الكبير ، جفنيه للمرة الأخيرة .

وفي طريق العودة ، مرّ الطرطوشيّ بكل من هذه الحواضر « سوست » (Soest) و « بادِرْبورن » (Paderborn) و « فـولدا » (Fulda) حتى اذا ما وصل الى ماينز (Mainz) وهي مدينة في بلاد الفرنجة تقع على نهر يدعى نهر «الراين» وقعله حادث أثّر في نفسه أشدّ التأثير. ففي هذه المدينة دسّ تاجر في يده قطعاً من النقود العربية أثارت دهشته لأنها تحمل خطاً كوفياً (٥٦) واسماً عربياً والتاريخَ التالي ٣٠١ ـ ٣٩٢ هجرية .

ولقد استولى عليه عجب كبير حين اتّضح له أن في يده قطعاً ذهبية من سمرقند (٥٧) يعود تاريخ سكها الى نيّف وستين عاماً . وقال محدثاً نفسه بعد إنعام فكر : « إنها ، لا ريب ، تعود في تاريخها الى أيام السلطان نصر بن احمد السمرقندي » .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، وانما زاد في تعجّبه ودهشته وقوعه في مدينة الفرنجة هذه القابعة في اقصى بلاد الغرب على توابل لا توجد إلاّ في اقصى بلاد الشرق كالبهار والقرنفل والزنجبيل (Ingwer) والخلنجان (Galagant) . ولو تسنّى له ان يطلّع على لائحة الحاجيات التي كان يعمل على شرائها الراهب المسؤول عن اقبية دير كوربي (Curbi) في مقاطعة « سومّه » (Sommé) الهاجعة في طرف العالم تقريباً ــ ذلك الدير الواقع على بعد سبعين كيلو متراً من مدينة كامبري (Cambrai) (٨٥) ، نقول لو تسنى له ذلك « لكانت دهشته أعظم ، وتعجبه أبلغ ، ويكفينا مثال على ذلك ان نلقي نظرة على ما ورد في

هذه اللائحة

٦٠٠	ليبرة	شمع
١٢٠	«	بهار
١٢٠	«	كمون
٧٠	«	زنجبيل
١٠	«	قرنفل
١٥	«	القرفة
١٠	«	بخور
١٠	«	اللادن او (المستكاء) ؟
٣	«	المرّ (الصبر)
١٠	«	الخلنجان
١٠	«	مرهم ورق القويسة
١٠	«	اسفنج
١٠	«	من النكعة المهدئة
٣	«	دم التنين
٣	«	العندم
٢	«	صعتر

لقد دخلت البضائع ، الواردة من « أقاصي الشرق » الى « أقاصي الغرب» ، الحياة اليومية الاوروبية . ولم تعد تقتصر على استعمال التوابل والبخور فقط ، وانما تعدتها الى الانتفاع بالحشائش الطبيّة ، فأصبحت هذه كلها من ضرورات حياة رجال الكنيسة ، ورهبان الأديرة الذين لم يعد في مكنتهم الاستغناء عنها على موائدهم ؛ فلولا الهبات التي تدفقت من الشرق العربي القصي لكانت وقعت في حيرة من أمرهـــا ؛ ومع ذلك فقط اضطر هؤلاء برمتهم الى الانتظار مدة طويلة قبل ان يتمكنوا من التمتع بمثل هذه الرفاهية ؛ اذ ان لائحة « الكوربي »

الآنفة الذكر يعود تاريخها الى ايّام المار وفنجيين(٥٩)، أي الى ثلاثمئة سنة قبل رحلة الطرطوشي . وفي هذه السنوات الثلاثمئة ، جرت عَبر « الراين» «والسوم» مياه كثيرة ، وتغيّرت أمور عديدة على وجه هذه الارض ، فغيّرت فيها . وقد تكون هذه التغييرات اكثر اهمية من مئات السنين الخوالي ، وأهمّ شأناً من نزوح الجرمان(٦٠) الذين قدموا من الشمال الى الانبراطورية الرومانية ، واشدّ أثراً من أفول نجم الانبراطورية العالمية الهائلة نفسها من سماء العالم القديم ، هذا العالم الذي كان لوحدة البحر المتوسط وقدسيته أثرٌ مصيريٌّ فيه .

تُرى هل كان ، بالفعل ، لغزوات الجرمان اثر بعيد في تقرير مصير العالم آنذاك ؟ أم هل استطاعت الشعوب القادمة من الشمال ان تقلب النظام القديم وتحطم وحدة حضارة القدامى ؟ كلاّ ، انما ذابت هذه الشعوب في بوتقة المجموع واصبحت جزءاً منها ، متممة لها ! وهل كان لنهاية الانبراطورية القديمة وظهور قوّة جديدة شرقي رومة من تأثير على زعزعة وحدة الدين آنذاك ؟ وهل احاقت الوحدة الاقتصادية في حوض البحر الابيض المتوسط خسائرُ وأزمات ؟

كلا ، وانما خلاف هذا هو الصواب . ذلك ان تجارة الشرق التي ابتدأت ، اول ما ابتدأت ، عن طريق (Ostia) – مرفأ رومة القديم وعلى مصب نهر التيبر – لتصل الى عاصمة العالم رومة ، ومرفأ مرسيلية ، نقول إن هذه التجارة قد ازدهرت أيّما ازدهار ، وشملت آفاقاً لا حصر لها ، اكثر مما كانت عليه حين كانت تسلك طرق الألب والبلاد الغالية لتصل الى كامبري (Cambrai) وقلب بلاد الجرمان . ولئن ضعف صوت رومة ليحل مكانه صوت بيزنطة(٦١) ؛ فإن العالم القديم قد احتفظ ، على الرغم من ضعفه الداخلي وفقدانه لدماء الحياة في شرايينه ، بلمعانه الظاهري الأخّاذ .

إلا ان هذا العالم القديم تحطم ، ووحدته تمزقت شلواً إثر شلو

حين انطلقت من جنوبي الجزيرة العربية جحافل العرب الرحّل ، تحدوها قوّة عارمة ، ويدعمها تنظيم مدهش بثها الرسول محمد في صفوفها . فتصل الى اطراف البحر الابيض المتوسط حتى شواطىء الاطلسي ، وتسيطر على الشرق والجنوب والغرب ، وتخرج ذاك العالم القديم من بوتقته الثقافية السابقة .

واما النتائج ، فكانت عظيمة الشأن بعيدة المدى . ذلك ان الإسلام مزّق بانتصاره وحدة العالم ، الذي عمّر أكثر من الف سنة ، فشطره شطرين : شرقاً وغرباً . واما الغرب ، فقد احاط نفسه احاطة محكمة بستار حديدي لمئات من السنين خوفاً من هجوم الشرق عليه . واما في الشرق ، فقد قامت الانبراطورية العربية الجديدة لتفرض نفسها ، لأول مرّة على الاطلاق ، بصفتها «شرقاً» في وجه « الغرب » مجبرة إياه على ان يعزل نفسه .

« لا يجرؤ احدٌ على السفر الى سورية ومصر » . تلك هي الشائعة التي كانت تتناقلها الألسن من رومة حتى القسطنطينية . وكانت دعاوة القادة الاوروبية ذاتها أنْ تلفّ نفسها لفّاً وتغلق منافذ النور والهواء من امام عينيها ، وعن رئتيها . واما ان يتمكن الحجاج المسيحيون من متابعة سفرهم الى كنيسة القيامة دون اي ازعاج او خطر ... وان يقدّم ، في ذلك الوقت او قبله بقليل ، الخليفة هارون الرشيد(٦٢) مفاتيح المدينة المقدسة وشرف الهيمنة عليها الى القيصر شارل الكبير(٦٣) عن يد بطريرك القدس الذي كان بعد في منصبه دون ان يناله حيف او مكروه ، نقول ، أنْ يحصلَ كل هذا فأمرٌ لم يحجم الاوروبيون فيه ـ آنذاك ـ عن إلصاق تهم انتهاك حرمة المدينة المقدسة نفسها من جانب «الكفّار» ، قصد إلقاء الذعر في قلوب المؤمنين والمسافرين لمنعهم عن السفر .

ولما كان التاجر العربي قد أوغل في الشرق الأقصى المترامي الاطراف إيغالاً شارف فيه الصين والهند ، فإنه لم يكن معتمداً البتة في كسب رزقه على التجارة مع الغرب ، لذلك فإنه ، بالتالي ، لم يكن من روّاد سواحل أوروبة

الجنوبية ، بل كان القرصان وحده هو الذي يرودها ويُنكّل بها سرقةً وتخريباً .

وكانت المرافىء تبدو حينئذٍ مقفرة ، والمستودعات فارغة عارية ، والأقبية خالية ، وهي التي استقبلت في السابق دفقاً من بضاعة الشرق في مدينة كوربي (Corbie) حيث اضطرّ الأخ الراهب ، رئيس الطبّاخين الى تقديم وجبة لا طعم لها ولا نكهة من حساء الملفوف ؛ بسبب إقلاع التجـــار عن عرضهم للتوابل او الزنجبيل (Ingwer) او الخمرة المعتقة الشرقية او الحرير نفسه ، أو أي شيء من تلك الاشياء التي كانت تضفي على الحيـــاة رونقاً وتزيدها متعة . اجل ، لقد اختفى كل هذا ، واختفت اكشاك البائعين ايضاً ، ولم يعد ثمة شيء تقصد المتاجرة به ؛ واصبح الفلاّح يدفع لأخيه الفلاّح حساباً قوامه البقر والحبوب ، والفضة نادراً . وأما الذهب فقد انتفى نهائياً من بين الأيدي وأضحت الحياة فقيرة بالملاة ، وعلى جانب كبير من السذاجة والبساطة. حق ان الكنائس نفسها اضطرت اضطراراً الى الاستغناء عن الأهم ، والاكتفاء بالقليل النادر . ونَدَرَ البخور والخمر ، اما زيت الإضاءة فقد استعيض عنه بشمع النحل البرّي ، وغدا المولج بالكنيسة يعتمد في تصريف امور كنيسته على ما يصله من هبات صغيرة متواضعة يبعث بها اصدقاؤه في رومة ؛ هبات من بينها حفنة من البخور مرّةً ، وحفنة من القرفـــة مرّةً اخرى ، او قطعة من جذور نبات « الكوستوس » (Costus) ، او قليلٌ من الـ (Opobalsam) المصنوع من البلسم العربي ... هبات قد يكون تاجر يهودي جلبها الى العاصمة المسيحيّة ؛ ذلك أن اليهود وحدهم احتفظوا بنوع من الاتصالات بين الشرق المسلم والغرب المسيحي ، فعملوا كتجار كبار ، او كمبعوثين من قبل الكارولنجيين(٦٤) كيف لا ، وقد صادفوا في كل بقعة من الارض اخواناً لهم في الدين يمدّون لهم يد العون والمساعدة ! بالإضافة الى انهم ــ كما لاحظ ذلك ابن خرداذبه ــ مؤلف كتاب مسالك الممالك الذي وظفه المعتمد صاحباً للبريد في (الجبال) أي بلاد مادي

القديمة. توفي حوالي ٩١٢ ـ رئيس قسمي الشرطة والبريد المنظمتين احسن تنظيم عام ٩٠٠، حين قال ـ : «كانوا يتقنون الفارسية والرومانية والعربية والفرنجية والاسبانية والسلافيـــة، وكانوا يرحلون من بلاد الغرب الى بلاد الشرق، ومن بلاد الشرق الى بلاد الغرب على متن السفن بحراً، أو براً عَبْرَ اسبانية ـ سبتة (Ceuta)، باتجاه مصر، ويجلبون من بلاد الغرب الخصيـــان والجواري والغلمان والحرير من بيزنطة، والفراء والسيوف. فيركبون البحر الغربي من بلاد الفرنجة ويمخرونه متجهين الى فاراما ـ وهي منطقـــة بالقرب من مرفأ بور سعيد الحـــالي ثم يحملون في عودتهم جوز الطيب وعود الند (Aloe) والكافور والقرفة وغيرها من منتوجات بلاد الشرق».

ومع ذلك، فإن كل هذا لم يكن في اوروبة إلا بمثابة نقاط من الماء قليلة على حجر ملتهب. وقد جعلت هذه القلة وتلك الندرة البضائعَ فاحشة الثمن ولا سيّما في السوق السوداء، حتى اصبح الحصول عليها أمنية يعجز عن تحقيقها الاوروبي العادي. لذلك، فإنه كان من حق الطرطوشي ان يأخذ منه العجب كل مأخذ حين رأى بأي ثمن باهظ تباع سلع الشرق في مدينة ماينز الغربية.

والواقع، انه كان للشرق حينئذٍ تجارة واسعة المدى مترامية الأطراف تكاد تختفي البلاد المسيحية في ظلها. تجارة تمتد عبر بحر الخزر والفولجا الى الشمال، شاملة كل الشواطىء وجزر بحر البلطيق. وقد لفظت ارض تلك البلدان آلافاً بل ملايين من العملة العربية من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر. وإن في هذا لدليلاً على مدى إشعاع الحضارة العربية، ومدى انتشار تجارة لم تقف احكام دينيّة متحيّزة في وجهها. وكان من حملة ألويتها سكان الشمال المعروفين بالفايكنغ (Vikinger)(٦٥) والنورمنديين (٦٦) الذين قدموا الى النروج وإيسلندا والسويد والدانمارك وعبروا البحار موغلين فيها حتى شواطىء الشرق. وقد أسّس هؤلاء الكثير من الحواضر، ومن اهمها ما قد بنوه في

مروج روسية التي ما تزال تحمل اسمهم ـ هروس (Hros) او الروس (Rus)

هذا وقد أسسوا أماكن كبيرة للتجارة كنوفجورود (Nowgorod) وكييف (Kiew). وجلبوا القماش واللباد والحلى الفضية والتوتياء (Kaurimuschels) والسلاح والخطّاف (حربات كبيرة لصيد الاسماك والحيتان المائية) ، ومصنوعات مختلفة من الولايات الغربية الواقعة في اعماق البلاد حتى توليه (Thule) القصيّة . وبالمقابل ، كانوا يحملون للعرب احجار الكهرمان واسنان الحيتان البحرية (كلب البحر) ، والفراء وأخشاباً من شجر الدلب ؟ وشجر التامول ، وصقوراً حية للصيد ، وقلنسوات من الفراء الاسود ، وانواعاً كثيره مختلفة من اجود الأطعمة .

وكانت قوافل الحمير تترى ، وقد ناءت ظهورها تحت احمالٍ من جلود القندس الناعمة (نوع من الحيوانات المائية) والسمّور الأسود ايضاً ، بكثرة كان يعجز المرء عن عدّها . بالإضافة الى فراء الهرمين (Hermlin) الوفيرة التي كانت تفوق حدّ التقدير ، وفراء الثعالب الحمراء الفاقعة اللون ، وجلود المهور اللامّعة ، وفراء الوشق (نوع من السباع اصغر حجماً من الفهد) التي كانت تبرق بريقاً « كسواد الليل حين يعكسه نور النهار » .

وبين مملكة الروس وانبراطورية العرب العالمية ورومة كانت تقع في الوسط دولة الخزر . وكانت هذه الدولة تضم يهود الشرق الادنى المشردين منذ مئات السنين، وبينهم سكان مسلمون ومسيحيون وعبدة أوثان . وأما الملوك الحكّام فلقد كانوا من اليهود ؛ والعاصمة إيتيل (Itil) كانت تسيطر على مصب الفولجا الهام للتجارة في بحر الخزر ؛ ذلك أن غنى هذه الدولة العظيم كان اساسه تجارة المرور (Transit) والمكوس التي كانت تفرضها على كل البضائع الوافدة من كل اطراف الدنيا .

ومنذ ان وضع القيصر أوتو الأول حداً لقبائل المجر (Magyaren) التي

كانت تعيث فساداً في أوروبة، امتد لمملكة الخزر فرع قوي مكّن للتجارة العربية الشمالية ان تجد طريقها الى الأديرة والمدن في اواسط اوروبة ؛ ذلك ان طُرُق التجارة الكبيرة كانت تصل حتى مدينة براغ، كما ذكر ذلك اليهودي ابن يعقوب الذي وصل الى قصر ملك بلاد الساكس، هوتو في مرلنج (Merling) أي في الوقت الذي وصل فيه الوفد المرسل من قبـــل الحَـكَم الثاني، بعد قيام الأول بجولة في البلاد السلافية .

« لقد كان الروس (Rüs) والسلاف يأتون من مدينة كراكو (Krakaw) الى مدينة براغ محملين بضائع شتى، وكان يفد اليهم من تركية، مسلمون ويهود واتراك وقد حملوا البضائع والدراهم المتداولة ليشتروا بثمنها الأرقّاء والقصدير والجلود المختلفة » .

من المحتمل ان الروس انفسهم او البراغيين – نسبة الى براغ – هم الذين جلبوا تلك التوابل الى « ماينز »، وتلك الدراهم التي صادفها الطرطوشي العربي عام ٩٧٣ في بلاد الغربة .

الفصل الثالث

البندقية محطمة الحصار

خلال ذلك الوقت ، وفي طرف منزوٍ من القارة الاوروبية حقّقت اكبر نصرٍ في هذا الميدان ، ميدان التجارة والتبادل ، وجنت ثماره ناضجة ، مدينةُ المستنقعات الواقعة على شاطىء بحر الادرياتيك ، اي ماتاموكو (Metamauco) التي ما إن حطمتها الحروب الاهلية وابتلعها البحر ، حتى عادت من جديد لتعيش على جزر الريالتو (Rialto) ، كعروس البحر ، « البندقية » تحت حماية نصب « القديس مرقس المسروق من مصر » . ولما كانت تقع في وسط البحر ، فقد اعتمدت منذ البدء التجارة اسلوباً لها في الحياة ؛ وابتدأت بالقليل ، بتجارة الملح اولاً وبالسمك ثانياً ، وانتهت بالوصول الى تحقيق نصر لا مثيل له ، وكان سلاحها آنذاك عبقريتها التجارية وبضاعة شعوب الشرق والغرب ؛ وكان نصرها غنى ، لا شبيه له في الغرب ، غنى يُماثل الغنى العربي في وفرته .

ان الإسلام قد انتشر ، وبانتشاره اصبح البحر حداً فاصلاً بين عالمين اثنين فجاءت البندقية لتمدّ البحر من جديد ، جسراً مكّن بلاد الشرق ، بكنوزه النادرة حيناً والمجهولة احياناً من غزو بلاد الغرب الجائعة .

وكانت البندقية خاضعة للمملكة الشرقية (Ostron) ؛ وعرف الوطن الام

الذي لم يعرف الهزيمة على البحر ، كيف يُبقي علاقته مع قاعدة البحر الايطالية تلك على احسن وجه . ولكن رومة الملكية كانت بعيدة ، وانبراطور الفرنج غالباً ما يكون قريباً منهما ؛ وكل منهما يتفانى في التقرب من البندقية ومن خطب ودّها ؛ كما أن كلاّ منهما كان يتوعّد ويهدّد بين الفينة والفينة . ولكن البندقية الساحرة ما فتئت تعبث بهما حيناً وتتلاعب بهما احياناً ، مرتقية بذلك سلم الاستقلال درجة درجة ، حتى اصبح لدوقها (Doge) حق معاشرة امراء الأرض ، كالندّ للند ، في مساواة تامة .

وهكذا اصبح بامكان البندقية ، « العروس » التي لم يفلح احد في نيلها ، ان تجيل النظر باحثة عن مزاحمين آخرين . فرأت في جولاتها البحرية عَبْرَ المتوسط مرافىء العرب الغنيّة ، بالرغم من أنه لم يكن ثمة مدينة مسيحية تجرؤ على التعامل مع « الكفّار » . ولكن ، ألم تساعد مدينة نابولي العرب حين توجّهوا لفتح جزيرة صقلية ؟ وهل أحجمت مدينة بيزا (Pisa) عن التحالف مع عرب الأندلس ضد جنوا؟ ونابولي، ألم تشاركهم المزاحمة ضدّ منافستهم اللدود أمالفي (Amalfi) ؟ اجل ، ألم تنضم سفن « امالفي » الى جانب « الكفّار » في هجومهم الكاسح على الشواطىء الرومانية ، دون أن يمنعهم عن ذلك وعيد البابا لهم ولا تهديده بحرمانهم النهائي من الكنيسة ؟

واما هنا ، فالحديث يدور حول تجارة سلمية وليس حول الحروب ! ومتى كان للتجارة علاقة بالدين ؟ ومتى كان للبندقية ، أميرة البحر الفتية ، علاقة بسياسة الرجل العجوز القابع على البوسفور ؟

وماذا نقول عن تفتيش المنقبين في السفن بحثاً عن السلاح والخشب ، هل نتقبلها لأنها اوامر الانبراطور يوحنا تسيميكس (Tzimikes) في الريالتو ؟ مما لا شك فيه خاصة ان غضب الملك في رومة على خلفاء الفاطميين لاعتداءاتهم الاخيرة يوازي غضبه على اهل البندقية الذين — نعلم كل العلم — ما فتئوا يمدّون

الأعداء بالسلاح والخشب لبناء السفن الحربية ، فتوعدهم مهدداً بحرق جميع سفنهم التي تحمل في جوفها عتاداً او خشباً او اية بضاعة ممنوعة ، برجالها وفئرانها .

ولكنه كان لأهل البندقية تفكير آخر. فهم بعيدون كل البعد عن وضع رقابهم في أنشوطة، وخاصة حين أتيح لهم إراحة هذه الرقاب على المخمل والحرير. وبقرار سريع وضع الدوج تجارة السّلاح تحت طائلة الموت، وحدّد تصدير الخشب بالقدر الذي لا يثير أيّ اشتباه، أي بألواح يبلغ حجمها خمسة اقدام ضرباً بنصف قدم، واوعية خشبية وملاعق وغير ذلك، وبذلك عالج دوق البندقية غضب القيصر اولاً بأول، وحوّل الريح الهابة في شراع القيصر الى شراعه وافهم لجنة التفتيش، آخر الامر ، بان اتّجار البندقية بالخشب لا يحمل ايّ معنى وانهم لا يهدفون بتاتاً الى تزويد العرب بما هم في حاجة اليه ، ومساندتهم في حربهم وفتوحاتهم ! وجدير بالذكر ههنا ان ثلاث سفن محملة بجذوع كاملة من الخشب قد أقلعت من ميناء البندقية قبيل وصول رجال التفتيش من القسطنطينية ، اثنتان منها اتجهتا الى ماجدية (Machdija) ، في تونس ، والثالثة الى طرابلس الغرب . وتجاوباً مع شعوو الرحمة المسيحي بعمّال المرفأ البائسين ، وافق المسؤولون في البندقية على انزال الحمولة الى السفن شريطة إلاّ ينال الشرق منها شيئاً !

في الوقع ، ان كثيراً من الكتاب العرب في القرن العاشر يشهدون بوجود تجارة مزدهرة بين عرب شمال افريقية من جهة ، وبين كل من البندقية وأمالفي وبالرمو من جهة اخرى ، تحمل سفنها القديمة الستائر الحريرية النادرة ، واكسية الهياكل ، والاوشحة السوداء والاردية ذات الالوان السماوية الجميلة من القيروان وسوسة (Susa) وقابس (Gabes) ، الى اوروبة . تحف عربية شائقة تستقرّ بعد طواف مديد في مونتي كاسينو (Monte Cassino) وفي اديرة شبه الجزيرة الايطالية وكنائسها ، بدليل انها لا تزال حتى يومنا هذا .

واما الشمال فلم ينله نصيب من ذلك ؛ إذ مَنْ ذا الذي كان بوسعه ان ينقل البضائع عبر جبال الألب ؟ وهنا تبرز ظاهرتان هامتان تحدثان تغييراً . في عام ٩٦١ م حطمت بيزنطية السيطرة العربية التي كانت مهيمنة على جزيرة كريت ، فأصبح بذلك طريق الشرق حراً منفتحاً ، ولم يعد أي تهديد قيصري واي حرم بابوي ليمنع احداً من توثيق علاقات الاعمال التجارية مع عرب الشرق ، والاستفادة من تجارتهم التي شملت اطراف الارض ، والانتفاع من ثروتهم التي كانت في ازدياد مستمر . ! وفي عام ٩٩١ للميلاد ، ارسل الدوق Doge، بطرس الثاني اورسيولو « Peter 2 Orseolo » ، لدى تأسيس اول حكومة له ، وفوده الى جميع امراء العرب ، قصد القيام بالدعاوة للبندقية . ولم يمضِ زمن طويل حتى اصبحت سفن الليدو « Lido » وجنوا التجارية تلقي مراسيها في شواطىء سورية وثغور مصر ايضاً . واما الخليفة الفاطمي المستنصر (٦٧) وصديق المسيحيين ، فقد أمر باخلاء قسم كامل من مدينة القدس للحجّاج والتجار الاوروبيين .

اخذت قوافل السفن دوماً تعمد الى الإبحار من مرافئها الأم . فما إن يحلّ شهر ايلول وتشرع موجة القيظ بالانحسار ، حتى تكون هذه السفن قد رست في مياه الشرق العربي بعد انقضاء اربعة أو خمسة اسابيع من بدء الرحلة . فإذا ما انتصف العام حلّت اشرعتها ونشرتها عائدة الى بلادها . وفي غضون فصل الشتاء ، كان التجار القابعون في الشرق يرحلون من سورية وفلسطين الى بغداد بل والى الخليج الفارسي ، او يسافرون مباشرة الى القاهرة والاسكندرية حيث تتدفق التوابل الثمينة بكثرة من الهند ومدغشقر عبر (الطرق) المائية الرخيصة التكاليف ، وتغري بربح وفير طائل . وقد حاول الصليبيون ، فيما بعد ، «احتلال فلسطين في مصر» للانتفاع من هذه الفرص . هذا من جهة ، اما مَن لم يرتبط بعقد للعودة على السفينة نفسها ، فقد كان يطيل رحلته تلك سنين عديدة .

كان التاجر الاوروبي ـ من البندقية او جنوا ـ يمضي عادة مدّة لا تقل عن اشهر ستة يعيش خلالها في المحيط العربي ويتنفس في جو حضارة العالم العربي الساحرة تلك . وعندما كانت تطأ قدماه ارض السفينة ثانية ، كان يعود الى وطنه محملاً بأكثر من شحنة قطن سوري اشتراها خلال إقامته هنا ، وبأكثر من قماش انطاكية الكتّاني ، واكثر من زجاج «صور» وفخارها «Keramik» ، كان يعود بأكثر من سلال سكر طرابلس الغرب واكياسه . اجل ، كان يعود الى « الليدو » Lido بأكثر من التوابل Pfeffer والقرفة Zimt وجوز الطيب Muskatnüsse ، والكافور Kampfer ، والكباب Kubebe ، ـ نوع من التوابل ـ والبخور Weihrauch ، والمر Myrrhen ، والنيله Indigo ، وحجر الشب Alaun ، وخشب الصندل Sandelholz ، وخشب البرازيل Brasil ، من مراكز التجارة المصرية ... وهكذا عادت الصلة من جديد بين الشرق والغرب بواسطة تجارة البحر الابيض المتوسط . ثم كان عام ٩٥٥ الذي اوقفت فيه معركة البحر الناشبة في سهول نهر « لاش » « Lech » « فيضان » قبائل المجر البدو السالبة ، فحقق أوتون الأول لمناطق اوروبة وطرقها الأمان والسلامة .

وهنا تنفتح فجأة سبل للتجارة عبر ممرات الالب . فيمنح القيصر امتياز المتاجرة مع الشرق وحق سك النقود للمناطق الجانبية من الالب حول بحيرة « بودن » نزولاً من نهر « الراين » . وهكذا غدا الطريق مفتوحاً امام البضائع المكدّسة في مدينة البندقية لتتدفق الى الشمال تدفقاً منقطع النظير .

ولكن ، في الحين الذي كان الايطاليون فيه ينقلون هذه البضاعة الى بورغندة (Burgund) وفرنسة والفلاندر (Flanbern) ، كان يندر رؤية احدهم في المانية . حتى اليهود أنفسهم ، بدأوا يبتعدون عن التعاطي بمثل هذه التجارة ، مفضلين العودة الى الاهتمام بتجاره المال والخيول والبقر والبضائع

القديمة ؛ عندئذٍ نزل التاجر الألماني بنفسه الى الميدان عابراً ممر السبتيمر (seprtmer) أو ممر القديس برنار الكبير في طريقه الى حيث يصب نهر البو (Pô) ، ليفتح أمام البضائع الشرقية سوقاً استهلاكية واسعة المدى .

وبالطبع فقد كان هدف التجار الالمان الاساسي جمهورية سان ماركو . وكانوا يزحفون من كونستانز (Konstanx) وشفاهوزن (Schaffhausen) ، من رافنسبروغ (Ravensburg) ورغنسبورغ (Regensburg) ، من نورنبرغ (Nurenberg) وأوغسبروغ (Augsburg) ، من اولم (Ulm) وحتى كولن (Loln) ، الى كبرى حواضر اوروبة حيث البضائع العربية النفيسة . ونظراً لتوافر عددهم ، فقد اقامت لهم دولة البندقية خصّيصاً مبنى البيع والشراء والاقامة ، كما خصّص السلطان المصري للتجار المسيحيين سابقاً ، فندقاً للإقامة في الاسكندرية . فكان ان اخذت البندقية ايضاً التسمية عن العرب ، فأطلقت على نزل الالمان اسم (Eondaco Dei Tedeschi) ، ضمّ ستاً وخمسين قاعة للسكن مزوّدة بأسرّة للنوم ، واماكن اخرى لإيواء الدواب والخيول بالإضافة الى فرن خاص به ، وجميع ما يلزم من غرف للعمل اليدوي ، بجانبها مخزن (Magazine) البضائع ومحالّ للبيع والشراء ، وبكلمة : مستعمرة صغيرة بحد ذاتها .

لقد كانت ـ أي المستعمرة ـ نهاية المطاف لكل رحلة تجارية . ففيها فقط تمكّن التاجر كونراد ايسفوغل (Konrad Eisvogel) القادم من نورنبرغ (Nürenberg) أن يجد مأوى له في مدينة البندقية . هناك يؤدي التاجر ضريبة المكوس ، فيباع نحاسه ، وبضاعته من الحديد ، وفراؤه ، وأوشحة الـ (Brabanter) وذلك تحت اشراف الـ (Sensal) « السمسار » ـ تماماً كما ارتأى العرب ان يفعلوا ـ وهو «سمسار » رسمي خبير بتعرفة (Tarif) البضائع . كان على القادم من مدينة نورنبرغ ان يحصّل ثمن ما جلبه ـ بحضور السمسار ـ في صورة بضائع شرقية ، من بينها التوابل اللذيذة والعقاقير المصنّفة ، والأقمشة والأردية الموشاة بخيوط من الذهب والحرير .

ولم يكن امر التجارة مع مدينة البندقية ليجري دون نظام حازم شديد ، له شروطه وقواعده : فلم يكن بوسع كونراد ايسفوغل ان يأخذ معه الى نورنبرغ مالاً ، وانما بضاعة فحسب . وكان بوسعه ان يتأمل من شرفات « فندقه » صواري السفن القادمة من الاسكندرية وصور ، ومن ماجدية (Machdija) وسبتة (Ceuta) ؛ دون ان يُسمح له بزيارتها . كما كان محظراً عليه ان يتبادل الكلام أو التجارة – ولو بحفنة من التوابل – مع بحارة السفن تلك . وقد مُنع تاجر بورغندة (Burgund) وبوهيميا (Bohmen) ، وميلانو ، وحتى تاجر فلورنسة من الاقتراب من تلك السفن ولو على مسافة يسمح بها القانون . وبالمقابل، فإن مدينة البندقية كانت تتعهّد بعدم شراء بضائع المانية خارج دائرتها ومستنقعاتها ، وبعدم توزيع بضائعها في الاراضي الالمانية . ولكنها كانت تحتفظ لنفسها ضمن حدود مملكتها – الجزيرة وفي البحر الادرياتيكي – بحق الوساطة والصلة بين الشرق والغرب . ومن كان ضيفاً ، فعليه أن يحترم اصول « اللعبة » التجارية . وهكذا ، ففي مثل هذه الحكمة العملية وهذا الحزم الناجح يكمن سر عظمتها وبأسها .

واما مدينة جنوا ، فقد كانت تختلف كل الاختلاف . فهي اكثر تحرراً وأشد كرماً . وهنا تصبح تجارة الشرق امراً في يد الجميع متعلقاً بالبادرة الشخصية وليس احتكاراً « Monopole » حكومياً . لذلك فان جنوا كانت أشبه ما يكون الشبه بمحطة وسطى أو بقاعدة انطلاقية لجميع الجنويين وحتى للآخرين ايضاً في سعيهم وراء تجارة اسبانية وشمالي افريقية ، او في تحفّزهم للاتجار مع الشرق نفسه .

وهنا يأخذ كل ذي حق حقه ، ويظهر للأعين ما قد خفي عنها . ان اساس الثروة والقوّة الاقتصادية والتأثير القوي في كل مكان ، كان كامناً في الارباح العربية . بل قل : ان اساس كل رخاء سابق في بلاد الغرب قد نبت في سلال التوابل العربية ونما معها .

وبانعدامها انطفأت التجارة الداخلية فترة ، وأفلس التاجر وذاب الذهب المتداول بين ايدي الناس . وفي اللحظة التي تقطعت فيها خيوط الصلة مع الشرق ، غاض الغرب في اعماق الهاوية وعاد القهقرى الى مستوى زراعي فلاحي بحت . لذا فإن الشرق لم يُرضِ الفمَ الغربي ولم يتبلْ حساء الكرنب الريفي بتوابله وطيبه وسكره فحسب ، بل قلّبَ الأوضاع الاقتصادية عامة ، وأحلّ مكان الاسواق الريفية المحدودة ، التي كانت تقوم على تجارة الحبوب والبيض وتلبي حاجة القوم من اوعية النحاس المدقوقة في البيوت ، والسراويل المصنوعة محلياً ، اقول أحلّ مكانها اسواقاً جديدة ومراكز للتجميع كبيرة على أثر تدفق بضاعة الشرق الى بلاد الغرب مع كل ما يتعلق بها من نُزُل للتجار القادمين من كل حدب وصوب والذين اصبحوا يحققون كل الرغبات والحاجات . وبازدهار هذه الاسواق ازدادت اسباب الرفاهية والراحة باطراد مستمر مع ازدهار المدن الوافر . وهكذا لعبت الأيدي من جديد بالمال الذي كان سبباً في تحقيق ثورة اجتماعية بيضاء . ومما لا ريب فيه ، ان مدينة البندقية لم تكن لتحقق ما قد حققت لولا تبادل التجارة مع العرب . فلولا قرفتها وكروياؤها وقرمزها (Kermis) ونيلتها لم يكن بوسعها بتةً ان تمثل دور المسيطر وان تظهر في مظهر اكبر قوة اقتصادية في الغرب . يضاف الى ذلك الوضع الاقتصادي المناسب الذي نتج عن نقل محرري الارض المقدسة وترحيلهم وما خلّفه من ارباح مادية لها . ذلك ان المعاملة الكريمه والتساهل الكبير والاحترام الصادق الذي كان الخليفة المستنصر يعامل به المسيحيين ، قد اختفى وضاع له كل اثر على حين غرّة عندما تسلمت زمام البلاد سلالة تركية هيمنت هيمنة الجو العاصف الغاضب الكاسح على سماء البلاد العربية . ان سقوط اورشليم في ايدي الاتراك السلجوقيين وتهديدهم لمملكة الروم الشرقية كانا بمثابة ناقوس الخطر لهجوم العالم الغربي المسيحي .

لقد عاش المسلمون والمسيحيون اخوة في البلاد المقدسة السنوات الطوال

بدعة وسلام ، باستثناء الفترة التي حكم فيها متعصب احمق مجنون ، اي الحاكم بأمر الله ، وهو ثالث خلفاء الفاطميين(٦٧)؛ وأصبح البحر الأبيض المتوسط ساحة وغى وقواعد هجوم ضد الإسلام وذلك لمئات السنين .

وعلى الرغم من ذلك، فقد تابعت الجمهوريات البحرية الايطالية تجارتها الرابحة مع شركائها العرب ، إلا في بعض السنوات التي حرّم فيها رئيس الكنيسة في رومة كل تعامل مع اعداء الدين ووضعه تحت طائلة العقاب . أجل لقد عاد رؤساء مجمع الكنائس والقناصل ليمنعوا تجارة الخشب والعتاد والمعدن ، بحجة انها مواد حربية من شأنها مساعدة «الكفّار» في حربهم الضروس ضد حماة المسيحية . ولكن التدابير البابوية بقيت غير نافذة المفعول ، باعتبار ان كثيراً من البحارة المسيحيين ظلوا على استعدادهم لقيادة سفن الحرب العربية !

وتبالغ مدينة جنوا في صداقتها المشينة مع المسلمين ، حين تلبّي طلب سلطان مراكش ، فتسلح له ثماني عشرة سفينة حربية لمسانده «سلطان المؤمنين» ضد الصليبيين القراصنة !..

ولمَ لا ؟ وحكمة التاجر ان يتاجر ، وان ينتهز الفرص كلها ليفيد منها ! وما نقل العشرين الفاً والاربعين الفاً من فرسان الله الذين غصت بهم ساحة القديس مرقس انتظاراً للرحيل الى عكا ودمياط ، إلا عملاً تجارياً ، وفي الوقت نفسه، مساهمة فعّالة في خدمة القضية المسيحية . اجل ان هي إلا عمل تجاري ولا سيما حين يعمد صليبيون بقيادة البندقية عام ١٢٠٣ م الى تحطيم المملكة البيزنطية المهددة سابقاً من قبل الاسلام انفسهم ؛ بالفعل لقد كانت تلك صورة بشعة قاتمة خلّفها وراءه موكب صليبي ، بعد ان عاث فرسانه فساداً في الارض وتخريباً للمكتبات القديمة والآثار ، فساداً وتخريباً اشد هولاً وأكثر ضراوة مما فعل الاتراك فيما بعد ، بعد ان انطلق فرسان المسيحية هؤلاء وقد اخذوا اسلابهم في مشهد لا يحاكيه مشهد آخر في هوله وبشاعته « منذ ُوجد العالم »

كما وصفه احد الكتاب المسيحيين . وهكذا ، ومن بين صفوف المسيحية ، خرجت البندقية وغريماتها الايطاليات منتصرات وحدهن من بين هزيمة الحملات الصليبية العامة .

« وخرج الجميع ، آخر الامر ، خائري القوى دون ان يحققوا مآربهم » ، على حد تعبير رامون لول (Ramon Lull) الراهب الفرنسيسكاني الاسباني ، فكان ذلك حصيلة مجهودات المسيحية غير المجدية التي صبرت خلال مئات السنين ، لهدف « افناء الكفار أو هدايتهم » وإقامة حكم خاص في البلاد المقدسة . ولكنه في الواقع ، لا شيء فتّ من عزم البندقية ! بل ان شائعة سرت من أُذن الى اذن في اوروبة تقول : ان اهل البندقية ما عاد يهمهم ، بعد انتهاء الحرب السيئة ان يدخلوا الدين الاسلامي مجتمعين (؟) ولكن هزيمه القديس لويس التاسع ملك فرنسة الشنعاء ، كانت بالنسبه إليهم مهزلة !! وأي مهزلة .!

الفصل الرابع

في مدرسة العرب

إن انتصار البندقية ، في الواقع ، هو انتصار لتجارة العرب التي وشجت القارات بعضها ببعض وصهرتها في بوتقة واحدة . ولئن دفعت معها تجارة الشرق الايطالية خطوات محسوسة الى الامام ، فإنها مكّنت ، كذلك ، التجارة الايطالية والالمانية والفرنسية والهولندية من ان تعيش في ازدهار مستمر لم تكن لتعرفه لولاها ، ومن ان تتغلغل كتيار جارف كاسح في شبكة من المدن والطرقات دائمة النمو ، متشعّبة الأطراف على الدوام ، حتى وصلت الى انكلترا (او الجزر البريطانية) والى الشمال الاسكندنافي ؛ فيا للتحوّل ، ويا للازدهار اللذين عرفتها تلك المدن حينذاك !!

وكما كانت الحال في ايطالية منذ سنوات طوال ، فإن المواد الاولية العربية وصلت الى اسواق شمالي جبال الالب ، لتُصنع على نمط عربي ، كالقطن الذي زرعه العرب في جزيرة صقلية واسبانية ، او القطن الناعم ومصدره سورية وخراسان . وحوالي عام ١٢٠٠ م شرعت المغنيات الحسان في تمثيليات نايتهارت فون رويونتال « Neithart Von Reuenthal » ، يرتدين اثواب البرشنت « Barchent » والبخرام « Buckeram » ، الذي كان يُجلب من ميلانو الى اعالي المانيا لمناسبات خاصة ، كالقداديس على سبيل المثال . ولم يكدْ يمضي

قرن من الزمان حتى ازدهرت صناعة البرشنت ، وانتشرت بسرعة مدهشة في مدن كونستانز وبازل (Basel) واولم (Ulm) واوغسبورغ (Augsburg) وفي كافة انحاء مقاطعة شفابن (Schwaben) . وبعد مرور قرن آخر ، قام اثنان من حائكي البرشنت من قرية كرابن (Graben) الواقعة على نهر ليشفيلد (Lechfeld) برحلة الى مدينة اوغسبورغ . وأما كبيرهما اولريخ (Ulrich)، فقد قتله أجيره العامل عنده ؛ وأما صغيرهما هانس (Hans) ، فلقد وسّع اعماله واصبح يبيع بضاعته الجيّدة بنفسه .

وهكذا أخذت بالات القطن السوري والقبرصي تردُ الى مصنع ابنائه لتخرج منه بعد حين وقد حِيكتْ منها الاقبيةُ (جمع قُباء) والسُتر (جمع سترة) ، والجبب (Joppen) الحديثة الطراز .

بيد أن القوّة الغامضة التي أحاطت بتجارة التوابل ، ما لبث أن بهرت لُبّ هؤلاء الأبناء ، فكوّنوا مؤسسة مالية ضخمة نشأت بفضل بالات القطن وسلال التوابل العربية ؛ مؤسسة ابتدأت بالعمال الصناعيين البسيطين لتنتهي بالـ (Fugger) ، وهم قوم ذوو ثروة وتأثير عظيمين في العالم القديم . (فبفضل التوابل والقطن والحرير والاقمشة التي تحاك منها) وَضَعَتْ سلالةُ (الفوغر فون در ليلي) الباهرة النجاح (Fugger Von Dir Lillie) — كما كانت تسمي نفسها — حجرَ الأساس لتلك الثروة التي دخل بواسطتها الاجداد ابواب التاريخ الواسعة ، فنصّبوا الملوك وموّلوا الباباوات ، كما (عطفوا على المواطنين الفقراء ، وعلى غيرهم من ذوي الحاجة ، من غير تستّر أو خفاء ، دون الاضطرار للبحث عن الإحسان)

والفضل في تسمية سلالة الاخوان اولريخ وماركس وباتر ويورغ ويعقوب فوغر (Fugger) بهذه التسمية الآخذة من الزهور المعنى الجميل ، يعود الى غولدن (Gulden) ، الذي مكّن عقد قران ابن القيصر الهابسبورغي

ماكسيميليان على ماريا وارثة عائلة بورغندا « Burgund » الغنيّة ، في اللحظة نفسها التي حاول فيها الملك الفرنسي ان يجعل البلاد والعروس من نصيب ابنه البالغ من العمر السبعة عشر ربيعاً .

كما انهم كانوا يدينون لغولدن « Gulden » هذا بفضل آخر وباقتباس وحي عربي حمله الصليبيون معهم وادخلوه الى فرنسة عام ١١٥٠ م . والى ألمانية كذلك عام ١١٧٠ ، ونعني به : تبني شعار للسلاح . وهكذا اصبحت طبقة الفرسان الالمان تقلد المثال العربي، فتتبنى صور الحيوانات كرموز في ساحات الوغى : ثم تحوّلت هذه الرموز في بلاد الغرب الى رموز للمكافأة والشهرة وطريقة يتبعها الفرسان جميعاً ، حتى غدت نوعاً من العلوم المتعلقة بشعارات الاشراف « Heraldik » ذات لغة رمزية .

كذلك فإن رمز سلالة (الفوغر) الخاص ، المزدان بزهرة الزنبق ذات اللونين الازرق والذهبي والذي وهبهم اياه والد ماكسيميليان ، القيصر فردريك الثالث ، لجدارتهم ، انما اخذ عن العرب صورة تلك الزهرة الحبيبة الى قلوبهم ، النامية في البلاد شرقي البحر الابيض المتوسط ؛ ودخلت هذه الزهرة جديداً الى شعارات الشرّف الفرنسي . وكذلك قُلْ في رسم الصقر المزدوج (النسر المزدوج) الذي كان رمزاً لانبراطوريات عديدة، ولمرات كثيرة : كالانبراطورية الالمانية ، والملكية النمساوية والمجرية ، وروسية القيصرية ، انما هو ايضاً شعار عربي قديم ، بل موغل في القدم ؛ فإنك قد تراه رافعاً جناحيه الملكيين ، في آثار السومريين والحثيين ، ليعود مرة اخرى الى دياره العربية ، وليصبح ، فيما بعد ، شعاراً للسلاطين السلجوقيين في اوائل القرن الثاني عشر ، وليستقر ، آخر الأمر ، في القرن الرابع عشر ، وعلى حين غرّة ، شعاراً للقيصر الالماني .

ان من يفتح عينية وينعم النظر طويلاً يصادف خلال ترحاله في الخارج اموراً جمة تثير الدهشة وتبعث على الاعجاب ، وتنتظر ، منذ زمن بعيد ، ان

يأتي احدٌ يستفيد منها ويفيد بها بلاد الغرب ، لقدرتها على اعطاء تلك البلاد نعماً وفيرة ، يعجز المرء عن تقديرها التقدير الصحيح .

قيل ، انه قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني عشر للميلاد تقريباً ، عاد الحجاج من زيارة قبر الرسول يعقوب في سانتيوجا دي كومبو ستيلا (Santioga Di Compostela) ، الذي يُعتبر اكبر مكان مقدس في أقصى الشمال الغربي من اسبانية ، نقول عاد هؤلاء الحجاج وقد نقلوا معهم اولى لوحات الورق التي حملها اخوان لهم في الدين من الاندلس العربية . وقد رووا كذلك : (ان الخطّاطين العرب هم وحدهم الذين يستعملون الرق (Pergament) الباهظ الثمن في نسخ الكتب المقدسة ؛ وأما الآخرون – وكلهم يتعلمون فن الكتابة هناك – فإنهم يستعملون هذا الصنف من الورق الناعم ؛ وقد يستخدمونه ايضاً في اغراض اخرى ، كَلَفّ البضائع والحاجات ، لكثرة ما لديهم منه) .

وفي غضون ذلك الوقت تمتعت اوروبة ثانية بأفضل التوابل والعطور ذات الروائح الزكية ، وأردية المخمل والحرير الناعمة ، واكتسحت اسواقها وقلوبها بسرعة مدهشة . فالشوق الى الرفاهية والدعة كان اقوى بكثير من السعي وراء تحقيق حاجات الروح ، لذلك بقيت بضاعة الكتابة من ورق وغيره في رأس لوائح البضائع المفقودة منذ نهاية عهد التجارة المزدهر إذاك .

وفي زمن الماروفنجيين ، كان كتبة التجار والأعيان ورهبان الأديرة يستعملون ورق البردي «Papyrus») في الكتابة . وكانت تصل شحنات منه باستمرار الى مارسيلية قادمة من مصر .

إلا ان هذا الترف لم يدم طويلاً ، فقد وُضع له حدٌ ونهاية ولا سيا حين توقفت السفن عن المجيء ، وبالتالي اضطر الناس لأن يقتصدوا بما لديهم من الشحنات القديمة ويقتّروا عليها خوفاً من اللجوء الى استعمال الرق الغالي أو نحو

الكتابات القديمة . وما كان للرق ان يصبح يوماً من الايام بضاعة تصلح للتجارة الكبيرة ، وخاصة ان فن الكتابة الجميلة ، اي الخط الجميل ، قد فقد الكثير من شعبيته ؛ ومن ثم ، لم تعد هناك اية حاجة الى صنعه بكميّات كبيرة ... ولكن، أما آن الأوان بعد خمسة أو ستة من القرون لأن يكون في حوزة المرء مادة مطواعة للكتابة ؟ فمنذ ان رجع الحجاج من اسبانية يحملون رقعاً منه ، اكتشفه الجميع فجأة في كل الانحاء عند محاسبي التجار العرب ، وعادوا برزم من الورق الاندلسي الناعم . ومنذ ٢٠٠ سنة اصبح مواطنو نورنبرغ (Nurenberg) ورافنسبورغ (Ravesburg) وبازل (Basel) وكونستانز (Konstanz) يسافرون جماعات وفرادى الى برشلونة وبلنسية ، حيث كان يُصنع بالقرب منها الورق الناعم الفاخر ، وذلك بشهادة الجغرافي العربي والرحالة الكبير الادريسي الذي قال : « انه لا يوجد مثله في العالم اطلاقاً . »

وظل الأمر على هذا الحال الى ان جاء تاجر التوابل أولمان ستر ومر « Ulman Stromer » ، وهو أشهر أبناء العائلة النورنبرغية الواسعة التجارة ، الذي اوصلته تجارة الزعفران الى اسبانية ، فكان اول من فكر بصنع الورق في بلاده نفسها . وفي عام ١٣٨٩ م انشأ اولى مطاحن الورق في المانية ، وذلك على مقربة من نورنبرغ ؛ ثم سعى الى طلب عمال متخصصين في هذه البضاعة من ايطالية حيث بُنيت اولى مطاحن الورق في اوروبة سنة ١٣٤٠ م .

ولكن ، ألم يكن قد مرّ قرنان ونصف القرن من الزمن على كتابة أول وثيقة على الورق كانت قد أصدرتها دولة مسيحية عام ١٠٩٠ ؟ إلا إذا اعتبرنا جزيرة صقلية المسلمة التي سُلبت من العرب قبيل وقت طويل لتصبح في قبضة النورمان ، ليست من اوروبة .

ففي بالرمو (Palermo) (جدّد) الملك روجر الثاني (Roger II) ،سليل

البيت النورماني في «هوتفيل» « Hauteville » وثيقة والده النبيل الكبير روجر ، وصادق عليها لأنها كتبت على ورق عام ١٠٩٠ . « ذلك أن اصحاب الوثائق ، الذين ألفوا الكتابة على الرق المتين ، لم يعتنوا الاعتناء اللازم بالوثائق المخطوطة على ورق القطن القيرواني الخفيف الناعم . فتمزّقت على مرّ الزمن من بعض اطرافها وتجعّدت من اطرافها الاخرى ، وَصعُبت قراءتها لأنها تشققت وعبثت بها الأيدي . لذلك قضى الملك الآنف الذكر زمن حكمه كله في شغل دائم ينقّح الوثائق والمخطوطات التي اصدرها والده والتي أصدرها هو بنفسه ايضاً في بداية الامر ، ويجددها ؛ حتى انه اضطر في عام ١١٠٢ م الى تجديد وثيقة كانت قد دبجتها أمه النبيلة أديلازيا « Adelasia » في العام السابق ، وتقضي بامتلاك مطحنة كان قد بناها عربي في دير القديس فيليبس « San Filippo » بحجة انها وثيقة مكتوبة على ورق » وعلى هامش هذا الحديث ، فإننا نريد ان نقدّر حقيقة وهي ان بناء المطاحن كان اختصاصاً عربياً ، حققه العرب انفسهم ومنحوا اوروبة كل انواع المطاحن ومنها المطاحن المائية والمطاحن الهوائية .

وأي طريق طويل خلفته وراءها اول رقعة من الورق قبل ان تصل الى القارة الاوروبية ؟ وكم كانت الحاجة ماسة الى الاستعاضة عن مادة غالية الثمن بأخرى قليلة التكاليف ، والحاجة ــ كما نعلم ــ هي ام الاختراع !! وكم تعالى « الصراخ » لغلاء اسعار الحرير الصيني طلباً وراء « بديل » !! وقد يكون سِرْجاً من لبد مصنوع من شعر الماعز والبقر ، خلّفه بدوي تركي شرقي فأوحى بذلك الى مدير المصنع القيصري للسلاح « تساوي لون » « Ts'ai Lun » بفكرته الفذّة . ففي عام ١٠٠ م ابتدىء بصنع نوع من الورق ، قائم على تقطيع قشر الشجر قطعاً صغيرة جداً ونبات القنب والخرق ، وبقايا شباك الصيادين ، حرّر فن الكتابة من عبودية اسعار الحرير الفاحشة .

في عام ٧٥١ نقل العرب جماعة من اسرى الحرب الصينيين الى سمرقند ،

وعندما ارادوا بيعهم عبيداً محترفي صنعة، اتضح لهم ان قسماً من هؤلاء الاسرى كان بارعاً في صناعة الورق وخبيراً فيها. فكان أن أقامت في البلاد صناعة للورق نشيطة كل النشاط . وركزت الجهود على تحسينها وترقيتها ؛ وأصبح الكتان والقطن عماد صناعة الورق الابيض الناعم ، فغمر الانبراطورية كلها حتى العاصمة نفسها ، بغداد ، حيث احتفل بنجاحه بعد ان انطلق من سمرقند . وبعد عدة قرون غدت بلاد الغرب في حاجة ماسة إليه لكثرة ما كانت تنسخ من وثائق : فتعرّفت عليه اولاً ، واستوردته ثانياً ، واستهلكت منه كميات كثيرة ، واودعت المخازن الكثير منه . ولا جرم ، ان هذا الورق ، حينذاك ، اضاف صفحة مشرّفة لتاريخ العرب المتفتحي التفكير الدائبي النشاط .

وقد أدرك الخليفة المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥ م) قيمة هذه المادة الجديدة للكتابة نظراً لاستهلاك علمائه وكتبته كميات منها في وزارته ، ومجامعه العلمية ، ورواجه عند التجار والموظفين ؛ وأدرك انه بوسعه عن طريق هذه المادة الجديدة ان يتحرر من ربقة استيراد ورق البردي من مصر . لذلك حرّم على دوائر دولته استعمال ورق البردي إذّاك ، وأمر باستعمال الورق الرخيص فقط لأغراض الكتابة . وأما في ظل حكم ولده هارون الرشيد ، فلقد ثبتت مكانة هذا الاختراع الجديد ، الأمر الذي حدا بوزيره البرمكي يحيى بن الفضل (٧٩٤م) ان يبني اولى مطاحن الورق في بغداد .

وسار موكب صناعة الورق المنتصر هذا مطوّفاً بسورية ، حيث ترك وراءه في دمشق وطرابلس قواعده ، أي مصانعه ، ماراً بفلسطين ومصر لينطلق منها الى الغرب ، الى تونس ومراكش واسبانية . ومن عرب صقلية والاندلس تعرّفت بلاد الغرب على هذه المادة الكثيرة النفع ، التي هي في الحقيقة احدى دعائم الثقافة والحياة الروحية . أجل لقد فتح ورق العرب هذا عصراً جديداً ، لم يعد العلم فيه وقفاً على طبقة معيّنة من الناس ، بل غدا مشاعاً للجميع ودعوة لكل العقول لأن تعمل وتفكر .

وما زال الورق ، حتى هذا اليوم ، ناشر الثقافة بحق وبدون أدنى منازع ، إذ انه بدون الورق لم تكن طباعة الكتب لتصبح ممكنة ، ونحن نعلم ما للكتب من فضل ، وما لها من مجالات عديدة واسعة ، كنشر المواد الفكرية والاخبار والرسائل بين أفراد الانسانية . أجل ، فالورق ما زال حامل الثقافة دون بديل حتى في عصر الراديو والفن الالكتروني !!

وفي الواقع ، فان استعمال الورق قد أدى ، في وقت قصير في كل الانحاء ، الى اختراع فن الطباعة ، ليس فقط في بلاد الغرب ، كما تحاول فئة ان تصوّر للناس ذلك ، فهناك صينيون وعرب الى جانب الاوروبيين كالهولندي كوستر « Coster » والالماني غوتنبرغ ، كلهم قد ساهموا الواحد بعد الآخر ، من غير ان تجمع بينهم رابطة ، في خلق هذا العمل الثقافي العظيم . ونحن لا نزال نجهل بأية آلات دأب وزير عبد الرحمن الثالث يطبع الرسائل الرسمية للدوائر الحكومية ، وينسخها في الاندلس . ولكننا نعرف حق المعرفة ان العرب قد سكوا النقود في مطابعهم وصنعوا اوراق اللعب التي وصلت الينا عبر اسبانية مع غيرها من الالعاب ، كالشطرنج ولعبة « الدامة » « Dume - Spiel » ، التي لاسمها ، ويا للعجب ، مصدر عربي .

* * *

يُعتبر عندنا فلافيو غيويا المولود في مدينة أمالفي الايطالية مخترع الحُك (البوصلة) ، وحقيقة الأمر ، ان فلافيو قد عرف هذه الآلة عن طريق العرب ، بل انه لم يكن اول شخص في بلاد الغرب عرفها .

فمن المعلوم ان الصينيين كانوا يعلمون منذ زمن بعيد ان الابرة المغنطيسية تشير دوماً الى الشمال . ولكنهم ، في حديثهم نفسه ، لم يستدلوا على استعمال البوصلة إلاّ بواسطة « غيرهم » . ولما كانت السفن التجارية تصل في ذلك الوقت – اي في القرن الحادي عشر – الى المحيط الهندي ، يرجح الرأي القائل بأن

هؤلاء « الغير » هم العرب بالذات . وثمة مصادر عربية تؤكد استعمال العرب للبوصلة في ذاك العصر . وفي عام ١٢٦٩ م نقل بطرس فون ماريكور « Petrus Von Maricourt » ، عن العرب مباشرة معلوماته عن المغناطيس ، وعن كيفية استعمال البوصلة ، وادخل استعمالها الى اوروبه في رسالته « Epistole de Magnete » . وبعد ذلك بخمسين عاماً – اي حوالي عام ١٣٢٠ م – « اكتشف » ايطالي من أمالفي البوصلة كما زعموا . وتقع أمالفي هذه الى جانب البندقية ، اولى المدن البحرية التي كان لها تجارة مزدهرة مع العرب الاصدقاء ، وكان لها ايضاً مراكز تجارية في المرافىء العربية .

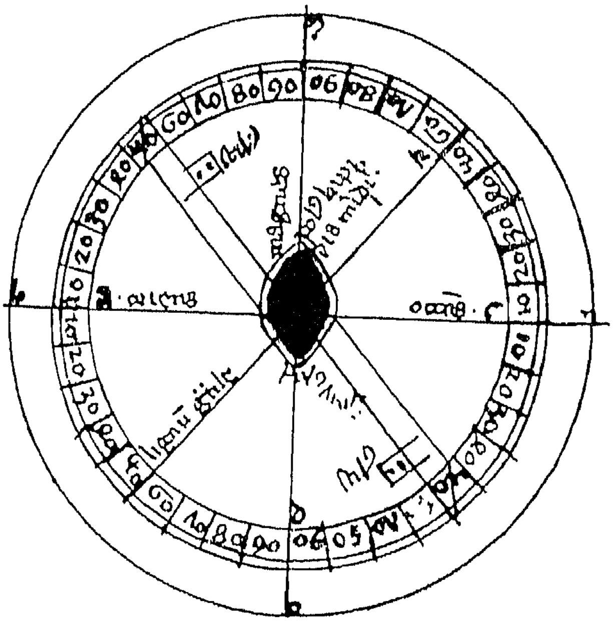

بوصلة مع احرف عربية

من رسم بطرس الصليبي عام ١٢٦٩ في رسالته « Epistole de Magnete) »

هذا ، ولئن كان عصر تلك المدن الذهبي قد ولّى الادبار ، إلا ان سكانها في عصر فردريك الثاني كانوا يُعتبرون اكثر تجار جنوبي ايطالية وبحارتها رزانة ووعياً ؛ ومن بينهم فلافيو غيويا ، وقد تلقى علومه في الشرق نفسه ، وحسّن في الآلة العربية – حسب زعم بعضهم – إنقاذاً لسمعته التي فضحها التزوير والادعاء، وقدّمها للغرب كأحسن ما تكون أداة تؤدي اكبر الخدمات في بحار العالم وتوصل السفن الى شواطىء جديدة .

★ ★ ★

اننا نقف الان دهشين متعجبين امام تطوّر فن الصواريخ العظيم دون ان نسائل انفسنا : الى من ندين بهذا الاختراع؟ وخاصة اننا نحن معشر الاوروبيين، كنا احد اسباب نشوئه دون ان ندري . وهل كان الصينيون أوّل من فكر باطلاق الصواريخ بواسطة البارود ؟ ففي معركة بين – كنغ Pien - King عام ١٢٣٢ م ، ظهرت فجأة في إبان المعركة اليائسة ضد المغول اسهم طائرة مدفوعة بقوّة البارود من قبل الصينيين . وحوالي ١٢٧٠ م استعمل المغوليون انفسهم البارود ، فكان أن قرر مصير المعركة المحتدمة حول مدينة فان – تشينغ Fan - Tsching المحاصرة ؛ وبواسطته تمكّن قبلاي خان (٦٨) المغولي من التغلب على آخر مقاومة من الصين القديمة . ولكن بمساعدة مَن يا تُرى ؟ واننا نسمع الجواب دهشين من فم المؤرخ رشيد الدين من قصر السلطان العربي: « إن قبلاي خان كان قد تقدم الى البلاط العربي بطلب ، يرجو فيه إيفاد مهندس له كان قد أتى من دمشق وبعلبك . وقد بنى أبناء هذا المهندس الثلاثة، ابو بكر وابراهيم ومحمد مع الجماعة التي صحبتهم، سبع آلات ضخمة وأتوا بها الى المدينة المحاصرة». والسؤال الآن هو : هل وضع المهندسون العرب في بين كنغ Bien King علمهم ذاك تحت التصرف ؟ وهل كانت القذائف التي استقبل بها القائدُ المصري فخر الدين، صديقُ فردريك الثاني، الجيوشَ الفرنجية وملكها القديس (٦٩) عام ١٢٤٩ م بجفاوة وحرارة شديدتين ، لدى الحملة الصليبية السابعة اليائسة ؛ هل

كانت هذه القذائف عربية ؟ لقد كتب رسول اندلسي محارب يقول : « إنه كلما انطلقت قذيفة في الفضاء ، كان يبلغ التأثر بملك فرنسة مبلغاً كبيراً فيصيح باعلى صوته : « : سيدي الحبيب احمني وشعبي من الكارثة !! » .

والحق يقال ، ان العلماء العرب وضعوا ، على اية حال ، نظرية تركيب البارود المندفع ، في القرن الثاني عشر . ونظراً للحاجة الماسة التي كانت تفرض على العرب ان يظلوا دوماً في حالة دفاع واستعداد ضد العدوان الغربي ، فلقد دفع الحكام العرب كيمائييهم الطائري الشهرة الى اجراء التجارب ، خاصة على البارود وغيره من المواد الكيماوية المفيدة في ساحة المعركة بشواظيها ونيرانها وقوة اندفاعها وانفجارها . ومن المؤكد ان العرب تمكنوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ان يستعملوا البارود القاذف كمادة دافعة للصواريخ .

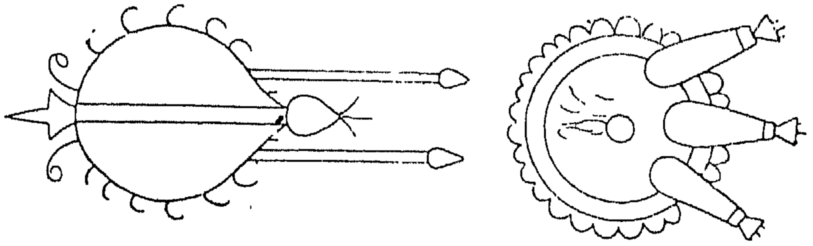

رعادة (طوربيد) مزودة بمادة متفجرة ، وبصاروخ دافع ، الى جانب رعادة اخرى متفجرة مزودة بثلاثة اشرطة نارية ، من رسم « حسن الرماح »، حوالي عام ١٢٧٥

ففي كتاب الحرب لحسن الرّماح هذا ، وفي غيره من الكتب التي تعالج شؤون الحرب في ذلك الزمان ، نجد ان الحديث كان يدور ، فقط ، حول المواد المتفجرة والاسلحة النارية ، وحول « بيض متحرك حارق » كان ينطلق كقذائف نارية قاصفة كالرعد ، « وهي اولى الرعّادات (طوربيدات) المزوّدة بمحركات صاروخية » . وعن طريق ترجمات لاتينية وصلت اولى المعلومات عن انواع المزيج القاصف اللامع ، وعن « الألاعيب » السحرية في بلاد أوروبة

الى اسمــــاع روجر باكون Roger Bacon (٧٠) ، والبرتس ماغنــــوس Albertus Magnus (٧١) ، والنبيــــل الالماني فون بولشتاد Von Bollstadt . وهذا الأخير هو الذي امدّ ، خـلال طوافه ، المدّعي باختراع البارود برتولد شفارس الفرنسيسكاني Berthold Schwarz في مدينـــة فرايبورغ ، بمعلوماته الفذّة .

وبعد هذه النظرية المشعلة للفكر يأتي التطبيق الذي هزّ العالم هزّاً . فعرب الأندلس في اسبانية هم اول من استعمل القذائف النـــارية في اوروبة لأهداف عسكرية ، فأصبحوا بذلك اساتذة الاوروبيين ايضاً في هـــذا الحقل. وبهذا بلغوا في التعليم حدّاً اثار العجب . ففي الاعوام ١٣٢٥ ، ١٣٣١ ، ١٣٤٢ ، اثارت قذائف العرب النارية في كل من معركة بازا Baza وأليكانت Alicante والجزيرة Algeciras الهلع الكبير والخوف الكاسح المؤذن بنهاية العـــالم بين صفوف الأعداء .

وبعد اربـع سنوات أي في عام ١٣٤٦ وفي معركة Crécy الشهيرة، قررت مصير المعركة انبوبة الشيطان تلك التي بثّت الذعر في قلوب الانـكليز لدى معركة الجزيرة ، نقول انها حسمت تلك المعركة بالانتصار الكاسح على جيوش الفرسان الفرنسية. وبهذا السلاح الجديد العجيب ابتدأ عصر جديد ايضاً بالنسبة الى الحروب، واننا لنقف فاغري الأفواه تعجباً لسرعة تقدمه الهائل منذ الحرب العالمية الثانية .

* * *

ان ذكر زمن منصرم كان العرب فيــه رائدي شعوب الارض في الحضارة والتجارة، ومانحي بلاد الغرب الفقيرة من بضائعهم التجارية و كنوزهم الفكرية، لاتزال تعيش بين الأضلاع في أشكال عديدة .

وهناك اكثر من تعبير عن فن الملاحة يشهد بذلك ؛ تعابير عرّفت اوروبة عليها تجارة البحر المتوسط ، كأسماء انواع السفن مثلاً : ُدو" Dau ، دنجي Dingi كارافيل Karavelle ، وشراع البزان Besan القابـــل Rabel ، دار صناعة Arsenal وامـــير البحر Admiral ، والجلفاط Kalfaten ، وحتى Klabautermann الذي ينبّه عامل السفينة بطرقات جلفاطه الى الاماكن التي يلزمها التصليح قبل ان يلحقها العور Havarie . وحتى الآن ما تزال في اشكال الجندولات في البندقية احب ذكرى عن مداعبة فينيسية مع الشرق .

كذلك فان حمام الزاجل وهو اسرع من البرق ، واخف من الغيمة ، كان لدى العرب ساعي البريد المنتظم وحامل الاخبار السرّية. ولقد ادخله الصليبيون الى اوروبة ، واصبحت صورة الحمامة في منقارها رسالة رمزاً للحب ، ولا يزال يزين قرابين اولادنا الملونة . وثمـــة ايضاً فن تنظيم الحدائق الاوروبية الذي يدين بتفوقه وكماله ليس للعرب فحسب بل للشرقين الادنى والاقصى اللذين ساهما جميعاً في ايصاله الى المرتبة التي وصل اليها الآن ، وأمدّا الحدائق بانواع من نباتاتهم المفيـــدة كالخيار والقرع العسلي والبطيخ الاصفر والارضي شوكة Artischauken والسبانخ Spinat والكَبَر (نبات الأصف) Kapern ، والليمون والبرتقال Orange واللارنج Pomeranzen ، والخوخ والإجـــاص Zwetschgen ، والرز Reis والزعفران Safran وقصـــب السكر Zucker - Reis . كل هذا بالاضافة الى زراعتهم الزينية (التي تصلح للزينة) كشجرة الكستناء الهندي والبيلسان والياسمين Jasmin ، والورد وشقائق النعمان والكاميليا Kamelia والخزامى والـ Forsythie والاوقنتس (٧٢) Hyazinthe ؛ وأمدّوه كذلك بطرق الري المختلفة وفنيّة استعمال الماء المتعدّدة التي برع فيها العرب كل البراعة . وثمة ايضاً شعائر ورموز عربية ما تزال حتى الآن متّبعة في الكنائس ، كرمز اكليل الورد الذي جاء عن طريق الاسلام من الهند ليحلّ في الكنيسة . وتعدّى ذلك الى الآنية المقدسه ، كالمباخر ، حتى البخور ذاتـــه ،

والمرّ وغيره . أضف الى ذلك اوشحة الحرير والصوف والأردية المنمّقة التي لما تزل محفوظة في هياكل الكنائس الاوروبية ومعابدها ، والتي ما فتئت تغطي مناكب الكهنة المسيحيين في الاحتفالات الدينية فتضفي بفخامتها الشرقية المزوّقة وزينتها الثقيلة معنى قدسياً رائعاً على القداس الكاثوليكي . أجل ، ان المصدر العربي ليظهر في المظلة Baldachin الحريرية المقصّبة المصنوعة في بغداد .

ان التمثّل بالعرب وتقليدهم ما انفكا يبدوان جليين كل الجلاء في ازيائنا الحاضرة وفي غالبية ازيائنا الوطنية التي ما تزال تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وبأسماء قماشها التي تدل على مصدرها الشرقي ، وبأسماء كثير من القطع التي لا تتفرّط بمصدرها الاجنبي وبالعربي كالقلنسوة « والكونرادين » Konradin الجميل المظهر مع القباء Kittel البهي والبلوزة التي يحرص المرء على ارتدائها تحت البزّة المؤلفة من جاكيت (شقة) وجلباب ، والجومبر Jumper الانكليزي القديم الذي يلبس فوق الثياب كلما عمد امروء ما الى غسل السيارة ، مثلاً والـ Jupchen ، اصغر قطعة من ثيابنا الداخلية ، والـ Jupon ؛ عفوك يا سيدتي المحترمة ، الذي حوّلته الطريقة الفرنسية (Modéle) ، الى التنّورة الداخلية المحافظة على طبقتها الاجتماعية .

ان احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرى انهم خصّوه بفيض من العطور وبانواع الزينة التي وان لم تكن غير مجهولة قبلهم إلا انها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية ، وبالاساليب الفائقة في تحضيرها ـ كذلك فان العثنون الذي كان يزين الوجوه الحليقة ، منذ حملات الصليبيين ، على طريقة النبي محمد ، قد أصبح نموذجاً modéle يقلّده الرجال .

وهناك ذكرى من نوع خاص ماتزال اوروبة تحتفظ بها للعرب فيما يتعلق

بالعري في الحمامات . وكما يخبرنا المؤرخ تاسيتوس Tacitus (٧٣) ، فـإن الحمّام اليومي صباحاً « وخاصة بعد النوم مباشرة ، وغالباً بالماء الدافىء » ليعتبر من الامور العادية وكأنها رياضة الصباح اليومية ، وبالنسبة الى الجرمان الأشداء . ففي عهد القيصر كان الجميع يستحمون بالرغم من البرودة الشديدة في الأنهر مراراً ، وكان الجنسان يستحمّان معاً دون ان يخجل الواحد من الآخر .

ولكن الطرطوشي ، خلال تجواله في بلاد الفرنجه ، صادفته اشياء اقشعرّ منها شعر بدنه ، وهو المسلم الذي فُرض عليه الاغتسال والوضوء خمس مرات يومياً . إسمعه يقول : « ولكنك لن ترى ابداً اكثر منهم قذارة ! إنهم لا ينظفون انفسهم ولا يستحمون إلا مرّة او مرتين في السنه بالماء البارد . واما ثيابهم ، فانهم لا يغسلونها بعد ان يرتدوها حتى تصبح خرقاً باليه مهلهلة ». ذلك انه بعد ان علّم اساتذةُ العِفّه والطهارة الجرمانَ كيف يخجلون وكيف يرون في الجسم العاري جرثومه الشر والغواية واساس الجشع والرذيلة ، اصبح الاستحمام والنظافه ، بل وتعرية الجسم في ظلام الغرفه الصغيرة الخاصة — اصبح كل هذا يحمل طابع المعصية بنفس الدرجة التي اصبحت فيها العفّه تقاس بدرجه القذارة .

لقد كان هذا الأمر شيئاً لا مجال لأن يفهمه العربي المتأنق أو يحتمله ، وهو الذي لم تكن نظافة الجسم وطهارته ، بالنسبة اليه ، واجباً دينياً فحسب، وانما ايضاً حاجة ماسة تحت وطأة الجو الحارّ ذاك. كما انه لأمرٌ غير معقول، بالنسبة الى مدينه كبغداد ، ألاّ تزدحم في القرن العاشر بآلاف الحمّامات الساخنه مع المولجين بها من ممسّدين (Masseurs) ومزيّنين (حلاّقين)، كانوا في خدمة الرجال والنساء على حدّ سواء للاعتناء بأجسامهم وبراحتها اسبوعياً أو يومياً . وبفضل التقليد العربي فقط عادت النظافة الضائعة وعاد الاعتناء بالصحه الى بلاد الغرب عن طريق الصليبيين والمسافرين القادمين من اسبانية وصقليه على الرغم من ضغط السلطه الشديد وتزمّت الكنيسة .

وهكذا خُرق الحصار الذي فرضته اوروبة المسيحية ضد الاسلام مرات عديدة ، واصبح سكان اوروبة هذه الكثيرون ، بطريقة الاقتناع الخاص سجناء معجبين ، بل قل تلامذة الحضارة العربية .

فبواسطة الجسور التي اقامتها السفن الايطالية ، وبواسطة الحجاج والتجار والصليبيين والسياح ، أثّر العرب بغناهم المادي الوفير على كافة مجالات الحياة اليومية الاوروبية واغنوها واوحوا لها بالكثير مما تنعم به الآن .

ثم كان هذا التمازج النفسي بفضل الثروات الروحية ، فعقبت النهضة الاقتصادية نهضة ثقافية هامة على الرغم من كثرة الشكوك التي حامت حولها .

حواشي الكتاب الاول

الفصل الاول

١) Kaffee أو Café بالفرنسية . هي « القهوة » التي تشرب . ولكنها اتخذت معنى المكان الذي تُشرب فيه . وهذا هو ما تقصده الكاتبة في هذا الموضع .

٢) أصلها بالعربية « شقة » وهي الثوب المستطيل .

٣) Sofa : هي كلمه صُفّة العربيه التي تعني المقعد المظلل في جوار جامع . وما يقابلها في سائر اللغات يدل في الغالب على مقعد طويل ذي حشية في موضع الجلوس وثلاثة مساند ، منها اثنان على الجانبين .

٤) Matrazé : لعلها الكلمة العربيه « المرتبة »

٥ Kandis : القند وهو سائل قصب السكر بعد تجمده ، وهذه الكلمه وامثالها تطلق على السكر المتبلور .

٥ Kanditor : القندي : صانع الحلوى . وهي اشتقاق من الكلمه السابقه .

٦) Mutze : قلنسوة : لم نجد لها صلة باللفظه العربية .

٧) Kittel : القباء ثوب يُلبس فوق الثياب . وقد تكون الكلمة مشتقه من « الكتّال » التي تعني ايضاً كل ما أُصلح من كسوة .

٨) Tasse : هي الطاس او الطاسه : المقصود بها ههنا فنجان القهوة .

٩) Bohnen Kaffee : Bohnen : بُنّ ، و Kaffee : قهوة ، أي قهوة البن .

١٠) Zucker : اي السكر ، وقد انتقلت هذه الكلمه لضرورتها في التغذية الى معظم اللغات الاوروبيه ، فكانت في الفرنسيه Sucre ، وفي الانكليزية Sugar وانت تلاحظ هنا ، انها مقتبسه من (سكّر) العربيه .

١١) Karaffe : غرّافه : المقصود بها آلة الطعام التي يُغرف بها . ثم اتخذت معنى الوعاء ، كالفنجان ، او الطاس أو ما شابه ذلك .

١٢) Limonade : اداة نسبة ade ، وعلى ذلك تكون الكلمه منسوبه إلى الليمون . من كلمة ليمون الذي اشتهرت به بلادنا ، فأكلته بعد تقشيره ، أو عصرته وشربت هذا العصير . وقد أخذ الاوروبيون هذا النوع من الشراب عن العرب ، وحملوا معه اسمه الذي اصبح Limonade (ليموناضه) .

١٣) Alkohol : هو الكحل ، او الكحول . والكلمة عربية كما ترى وقد استعارها الاوروبيون في حاجاتهم العلمية .

١٤) Aprikosen : البرقوق كانت اول امرها بمعنى المشمش والخوخ ، ثم تحولت الى aprikosen بمعنى المشمش فقط وهي بالفرنسية abricot ، وبالإنجليزية apricot ، وبالروسية abrikos ، وباليونانية Verikokko .

١٥) Bananen : هو الموز . ونحن نعرف ان الموزة تشبه البنان أي الأصبع ، فقلنا : بنان الموز . فجاء الأوروبيون ، وأخذوا الكلمة الاولى أي البنان ، واستغنوا عن الثانية ، أي الموز ، وهكذا صارت Bananen : تعني الموز .

١٦) Sorobett : شربة : وهو شراب مثلّج من عصير الفواكه ، ممزوج

بالسكر والكحول .

١٧) Orange : وقد تكون مشتقة من اليونانية : نارنج : وهذه الكلمة

الفصل السابع

الشغف بالكتب

لقد أقبل العرب على اقتناء الكتب إقبالاً منقطع النظير يشبه، الى حد كبير، شغف الناس في عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون، بعد الدمار الذي أصابهم إبّان الحرب العالمية، فحرمهم طويلاً من متع الحياة. فأصبحت الكتب هي مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها وأقبل الناس في البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً .

وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً، قدّر الناس – في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر – الثراء بمدى ما يُقتنى من كتب أو مخطوطات .

ولم يكن الخليفة، بتشجيع من وزرائه من البرامكة، ليهدي الجماهير هدية تتفق مع مزاجهم أجمل من انشائه مكتبة ضخمة في بغداد عرفت بدار الحكمة .

ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الارض الطيبة . ففي عام ٨٩١ م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة . وبدأت كلّ مدينة تبني لها داراً للكتب يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارة ما

يشاء منها ، وان يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد ، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصّصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية .

فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق ، كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلد ، بينما لم تحوِ أديرة الغرب سوى اثني عشر كتاباً ربطت بالسلاسل ، خشية ضياعها . ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة في مدينة الريّ إلى عشرة فهارس كبيرة. وكان لكلّ مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه كان لكل مستشفى يستقبل زوّاره ، قاعة فسيحة صُفت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء ، يقفون منه على آخر ما وصل اليه العلم الحديث. ولقد جمع **نصير الدين الطوسي** لمرصده في مراغة ٤٠٠،٠٠٠ مخطوطة .

وحذا حذو الخليفة في بغداد كل الأمراء العرب في مختلف أنحاء العالم العربي ؛ فأربت ، مثلاً ، مكتبة أمير عربي في الجنوب على ١٠٠،٠٠٠ مجلد. وروي أنه لما شفي سلطان بخارى (٢١) ، محمد المنصور ، من مرضه العضال على يد ابن سينا ، وهو بعد فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة ، كافأه السلطان على ذلك بأن سمح له ان يختار من مكتبة قصره ما يحتاج اليه من الكتب لدراسته ، وكانت كتبها تشغل جزءاً كبيراً من القصر وقد رتبت حسب موضوعاتها . ويكتب ابن سينا عن ذلك الحديث فيقول : « وهناك رأيت كتباً لم يسمع أغلب الناس حتى بأسمائها . »

ولم يكد ابن سينا يغادر قصر السلطان حتى اشتعلت النيران فيه فقضت على هذه الكنوز العلمية ؛ وتهامس أعداؤه وحسّاده قائلين : « إنه هو الذي أشعل النار فيها بعد ما قرأها ليدّعي ، فيما بعد ، أن ما عنده من علم إنما هو من أبحاثه الخاصة . »

ولا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفة العزيز في القاهرة . حتى خليفة قرطبة ، الذي بعث رجاله وسماسرته في كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتب فيزيد روائع مكتبته ، أنـّى له ان يصل إلى ما فعله العزيز؟! لقد حوت مكتبة العزيز ١،٦٠٠،٠٠٠ مجلد، فكانت بذلك أجمل وأكمل دار للكتب ضمَّت ٦٥٠٠ مخطوطة في الرياضيات و ١٨٠٠٠ مخطوطة في الفلسفة ، ولم يمنع هذا قط ابنه من بعده ، حين اعتلى العرش، من أن يبني مكتبة ضخمة فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعة إلى جوار المكتبة القديمة .

وكذلك فعل الوزراء ورجال الدولة ، فلقد ترك الوزير المهلبي ، مثلاً ، عند وفاته عام ٩٦٣ م مجموعة من ١١٧،٠٠٠ مجلد ، واستطاع زميله الشاب ابن عبّاد أن يجمع في مكتبته ٢٠٦،٠٠٠ كتاب، وجمع أحد قضاته ١،٠٥٠،٠٠٠ مجلد . ولما كانت هذه الارقام الضخمة قد حسبت بالتقريب وبولغ في بعضها ، فإن هذه المبالغة نفسها لهي أكبر دليل على مفاخرتهم بذلك وسرورهم بكل جهد يبذل في هذا السبيل ، وليس أدل على هذا مما نقرأه من أن بعض الوزراء لم يكن يخرج إلى رحلة إلا ومعه حمولة ثلاثين جملاً من الكتب تصحب ركبه .

هل نستطيع الآن أن نعرف أين تعلم القيصر فردريك الثاني أن يصحب معه في جولاته الكتب على ظهر الجمال ؟ أعتقد ان الإجابة واضحة ...

نعم ... على يد أساتذته العرب .

أين هي اليوم تلك المكتبات الخاصة التي تضم عشرين أو ثلاثين الفاً من الكتب، كالتي كان يملكها ابن المطران طبيب صلاح الدين او الكيميائي ابن التلميذ او المؤرخ ابن القِفطي (١٩) .

كتبٌ لم تكن مطبوعه على آلة ، بل نسخت باليد وبَذَل فيها كاتبوها مجهوداً مضنياً ، دام أشهراً طويلة ، بل وأحياناً بضع سنوات . ولم تكن تلك الكتب رخيصة الثمن ، فقد تقاضى ابن الهيثم مثلاً ٧٥ درهماً أجراً لنسخ مجلد

من مجلدات أقليدس ، وهو مبلغ لا يستهان به ، عاش منه ابن الهيثم ستة أشهر . ولقد ترك ابن الجزار ، الطبيب والرحالة القيرواني ، عند وفاته ٢٥٠ طناً من لفائف جلد الغزال التي كتبها بنفسه . ويحكى أن طبيباً آخر – ولم يكن أحد في ذلك العصر يشك في صدق هذه الرواية – لم يستطع ان يقبل دعوة سلطان بخارى لزيارة قصره لإنه كان مشغولاً بتحميل ٤٠٠ جملٍ لنقل مكتبته التي بلغ وزن كتبها ١٠،٠٠٠ كيلو غرام إلى مسكنه الجديد . وعرف الناس عند وفاة أحد العلماء انه قد ترك ٦٠٠ صندوق متخم بالكتب في كل فروع العلم وان كلّ صندوق منها بلغ من الثقل حداً جعل عدداً من الرجال يعجزون عن نقله إلى خارج المنزل .

وربَّ إنسان يقول : إن هذا ليس بالشيء العجيب الذي يسترعى الانتباه ويحتاج فيه الكاتب كلّ هذا الاستطراد في الوصف والتأكيد بالتكرار . فلقد وجدت في كل عصر من العصور تلك الحفنة من العلماء التي تهتم بالكتب هذا الاهتمام وإنْ لم يكن بهذا القدر مثل العرب . ولكننا نردُّ على هؤلاء بأنّ عشق الكتب لم يكن وقفاً على حفنة من العلماء فقط ، بل كان هواية العرب على اختلاف طبقاتهم ، فكل متعلم من أكبر كبراء الدولة إلى بائع الفحم ، ومن قاضي المدينة إلى مؤذن المسجد ، هو زبون دائم عند بائع الكتب . إن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر ، كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة .

لم يكن المرء ليُحْسَب من الاثرياء ما لم يكن يملك مجموعة من الكتب النفيسة النادرة . وقد رَوَى الحضرمي حادثاً طريفاً اغضبه ، وقع له في سوق باعة الكتب قال :

« أقمت مرّةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدةً أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى ان وقع ، وهو بخط جيّد ، ففرحت به أشد الفرح ،

وجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع الي المنادي بالزيادة عليّ ، إلى ان بلغ فوق حده فقلت له : ـ يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي؟! قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له :

ـ أعز الله سيدنا ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده .

فقال لي :

ـ لا أدري ما فيه ، ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضوع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط ، جيّد التجليد استحسنته ، ولم أبالِ بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .

فقلت لنفسي :

ـ نعم ، إن امثال هذا الرجل ، يملكون ثمن الغالي من الكتب . لك حكمتك يا ربي ، تعطي البندق لمن لا نواجذ له » .

ولما كان عدد أصحاء الاسنان يتزايد فقد ظلّت اسعار الكتب على ارتفاعها ، لا لعامٍ او عشرة بل لمئات السنين ، ودفعت ثمناً للكتب ، كل عام ، ملايين وملايين . فلقد خصّصت مكتبة « النظامية » ، وهي المدرسة العليا الشهيرة ببغداد سنوياً ما يعادل مليوناً ونصفاً من الفرنكات الذهبية لشراء الكتب والمخطوطات .

وفتحت اللهفة ، على اقتناء الكتب ، الباب أمام مئات الألوف من البشر لكسب عيشهم . فأصبح النسّاخ والخطاطون فنانين مهرة في فنّهم ، ووظّفت كلُّ مكتبة او متجر للكتب ، عدداً من هؤلاء ، وكان اغلبهم من الطلبة او أنصاف المتعلّمين الذين أرادوا عن هذ الطريق كسب رزقهم.

وانتشر منتجو الورق بطواحينهم في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس وفي

فلسطين والأندلس ، وتبعهم المجلّدون متأثرين بفن التجليد الصيني ، يعدّون غلافات رائعة للكتب .

وكم رزم من الاوراق وليترات من الحبر صنعت من السناج والصمغ العربي استهلكتها الأيدي الدائبة على الكتابة في كلّ عام. وكم من جلود أمدتهم بها صغار الغزلان والماعز قد استنفدت في هذا الغرض. وهكذا أصبحت تجارة الكتب، تماماً كالصيدلة ، هدية قدّمها العرب للبشرية . والواقع ، أنّ تاجر الكتب لم يُعرَف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة ، قبل أن يفعل العرب ذلك

ففي سوق الكتب عند بوّابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم اكثر من مئة متجر كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي يجتمعون . هنا يفتّش الفيلسوف والشاعر والفلكي عمّا صدر حديثاً من الكتب ، وهناك ينقّب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة ، وهنا وهنالك يتناقشون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تُقرَأ عليهم برمّتهم مقتطفات ممّا كتب .

وحوالي عام ١٠٠٠ م يصدر كتاب بعنوان « تبادل الأفكار » يحوي ١٠٦ مناقشات دارت بين العلماء بعضها في منزل فيلسوف عربي وبعضها في حوانيت تجار الكتب (١) .

وهنا في هذه الحوانيت استقبل ابن النديم زبائنه وتعرف بهم ؛ وكان ابن النديم تاجراً للكتب ، وكان هو نفسه عالماً فذّاً له شهرته، وهو مؤلف «الفهرست» الذي يحوي اسماء جميع الكتب والترجمات التي ظهرت باللغة العربية حتى ذلك الحين ، وقد ذيّل اسم كل كتاب بشيء عن مؤلفه، وكان اغلب ما كتبه عن المؤلفين وليد خبرته ومعرفته الشخصيّة بهم كتاجر للكتب . ويبدأ ابن النديم كتابه بمقدمة رائعة تنمّ عن فهم عميق لمهمة إخراج الكتب كما يجب أن تراه دور النشر في كل عصر ، فيكتب :

« النفوس ــ أطال الله بقاءك ــ تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح

---

١ ــ لعل المؤلفة تقصد كتاب « المقابسات » لأبي حيان التوحيدي .

إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات ، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إذا كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله » .

وكان ابن النديم كأغلبية زملائه من تجار الكتب ، قد تلقى تربية علمية واسعة ، فسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة عصره وزار منازلهم ، وتعرّف بالأوساط العلمية التي انتشرت على شكل جماعات ومدارس في كل انحاء العربية خلال القرن العاشر ؛ وكان ابن النديم صديقاً مقرباً لعلي بن عيسى ، أشهر اطباء العيون في العصور الوسطى ، ولغيره من أئمة العلماء الذين كان يقضي معهم السهرات الطوال في المناقشات العلمية المثمرة ، ولم يكن هذا الرجل المثقف تلك الثقافة العالية إلا نموذجاً للكثيرين من زملائه ناشري العلم والمعرفة في تلك العصور .

وعرف الناس قوماً آخرين سمّوا بالدلاّلين ، كانت مهمتهم بيع النادر من الكتب وشراءها . فكانوا يجوبون المدن ويزورون كلّ تاجر للبحث عن النادر منها وللاطلاع على آخر ما أنتجه الفكر العربي تأليفاً وترجمة . فكانوا بذلك همزة الوصل بين تجار الكتب في العالم العربي .

ولقد سافر أحد هؤلاء الدلالين من بغداد إلى القاهرة ليشتري من مصر النادر من الكتب ، وكان قد سمع بأخبار طبيبها الشهير ابراهيم بن الصوفان الذي كان يوظف عدداً من النسّاخ ويشرف عليهم ، حتى صار له كنز من الكتب الطبية وغيرها . وعن طريق وساطة الأصدقاء استطاع هذا الدلال أن يوطد صلته بالطبيب بعد سهرات طويلة ومناقشات دامت طوال الليل . وقدّم التاجر للطبيب عرضاً مغرياً لشراء عشرة آلاف مجلد من كتبه ، وقرر الطبيب الموافقة على ذلك العرض ؛ ولكن أخبار تلك الصفقة وصلت إلى آذان الوزير الأفضل ، وكان الأفضل من عشاق العلم الذين يقدرون قيمته وقدسيته ، فثارت فيه نزعة وطنية لإقليمه مصر ، واستدعى ابراهيم وأقنعه بوجهة نظره في ضرورة المحافظة على تلك الكتب لبلده ، ودفع الوزير من ماله الخاص المبلغ الذي كان التاجر

العراقي قد عرضه ثمناً لتلك الكتب ، وبذلك ضاعت مجهودات التاجر العراقي التي بذلها في سفره واتصالاته ، ولذلك يكتب ابن أبي اصيبعة ، بعد مئة عام من هذ الحدث : « لذلك وجدت هناك عدداً من الكتب الطبيّة والأبحاث القيمة التي تحمل اسم « ابراهيم » علاوة على اسم « الأفضل » .

لم يكن ما فعل الأفضل من اهتمامه الزائد بالعلم والكتب والفن بل واشتغاله بالفلك وقرضه للشعر في قصائد يصوّر فيها نزاعاً نشب بينه وبين أخيه ، كلّ ذلك لم يكن شيئاً نادراً في ذلك العصر ، فلقد ألِفَ الناس وجود أمثال تلك المواهب . فالعلوم والآداب كانت هوايتهم ، كما يعشق الناس اليوم لعب الكرة ، وكان ينظر لمن لا يساهم في تلك النهضة نظرة فيها الكثير من الازدراء .

فرجل مثل الامير أسامة بن منقذ الذي أطلعنا على نماذج من طب الفرنجة الفظيع ، يتقبل بصبر المؤمن ما أصابه على يد الصليبيين الذين سلبوا كل ما يملك ، ولكنه يكتب في مذكراته « إن سلامة أولادي وأبناء أصدقائي ونسائنا قد خففت من آلام فقدي لكل ممتلكاتي ، ولكن خسارتي لكتبي آلمتني ألماً شديداً ، لقد كانت أربعة آلاف مجلد ، ولكنها كتب قيمة ، وغدا فقدها باعث حزني طوال عمري » .

لم يكن الرجل الذي كتب هذا من أئمة العلماء ، وإلا لقلنا : وكيف لا وهو عالم يقدر العلم والكتب ؟ لقد كان فارساً محارباً ورجل سياسة . ولكن لا عجب في هذا ، فقد كان أحد أفراد شعب تربى منذ الطفولة على أن يقرأ ويكتب ..

الفصل الثامن

شعب يذهب الى المدرسة

لو أردنا دليلا آخر على مدى الهوّة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف ان نسبة ٩٥ ٪ على الأقل من سكان الغرب في القرون: التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة .

وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلّم القراءة والكتابة، وبينما امراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، لدرجة انه عام ١٢٩١م لم يكن في دير القديس جالينوس St. Gallen من الكهنة والرهبان من يستطيع حلّ الخط، بينما كان هذا كلّه يحدث في الغرب، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرأون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها، ويجوّدون ذلك معاً بلحن جميل عن ظهر قلب ثم يتقدمون خطوة تلوَ الأخرى في المبادىء لقواعد اللغة. وكان الدافع الى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقّاً كما يجب أن يكون المسلم . فلم يجبرهم أحد على ذلك بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان، لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ

القرآن . وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضاً ، فالكتاب المقدس لا يجد الناس اليه سبيلا إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته ، ومنذ عام ٨٠٠ ميلادية لم يعد الشعب يفهم المواعظ الملقاة باللاتينية ، حتى ان مجلس رؤساء الكنائس المنعقد في مدينة « تور » أوصى بوعظ الناس باللغة التي يتكلمون فيها . ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور الى تعلّم اللاتينية ، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب أو تثقيفه .

على خلاف ذلك كانت الحال في العالم الإسلامي ، لقد اهتمّت الدولة بتعليم الرعيّة . ولم تلبث ان جعلت من التربية واجباً ترعاه ، فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأوّلي مقابل مبالغ ضئيلة يقدر على دفعها الناس دون مشقّة . ومنذ ان بدأت الدولة تعيّن المعلمين للمدارس أمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجاناً . بل إن بعض البلدان العربية مثل اسبانية قد جعلت التعليم للجميع مجانياً . وقد افتتح الحَكَمَ الثاني حوالي عام ٩٦٥ م في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء ، بالاضافة الى المدارس الثماني التي كانت فيها فعلاً . وفي القاهرة ، انشأ المنصور قلاوون مدرسة لليتامى ملحقة بالمستشفى المنصوري ، ومنح كل طفلٍ فيها ، يومياً ، رطلاً من الخبز وثوباً للشتاء ، وآخر للصيف .

وتعليم العرب لم يبقَ مقتصراً على مراحله الأولى ، إذ ان السياسة مثلت دورها هنا .

لقد أفادت حركة التعليم من التنافس السياسي الناشب بين المعارضة وأحزاب الحكومة ، وبدأت أحزاب المعارضة منذ القرن العاشر ، تضع في برنامجها من قبيل الدعاوة ، إنشاء تعليم عالٍ لكل طبقات الشعب ، ومدارس عليا تشبه إلى حدٍ ما ، الكليات الانكليزية اليوم ، وبطبيعة الحال ، وعدت بأن يكون التعليم فيها مجانياً . وهكذا وجدت الدولة نفسها مضطرة أن تقابل تلك الدعاوة بمثلها ، فأنشأت المدارس العليا في كافة المدن الكبيرة .

وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجاناً ، بل ويتقاضون مرتباً صغيراً ، ويسكنون في الأدوار العليا في المدرسة دون مقابل ؛ أمّا في المهاجع ، فثمّة المطبخ

والمخازن والحمامات ، وفي الطبقة الأرضية تلتف الفصول وقاعات المكتبة على شكل دائري خلف ممرات مظلّلة تزيّنها الأعمدة ، وفي الوسط فناء فسيح تتوسّطه نافورة ماء . هنا يتعلم شباب العرب الطموح القرآن وقواعد اللغة والديانة والخطابة والأدب والتاريخ والجغرافية والمنطق والفلك والرياضة ؛ ويساهم الطلاّب في المناقشات والمناظرات . ويعيد معهم دروسهم مساعدون من طلبة الصفوف المتقدّمة أو من الخريجين ، وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل الدائبة النشاط ، تخرج للجميع شهداً حلواً فيه شفاء للناس ، ولتقدّم قادة للعلم والسياسة .

ويحدّثنا أحد أساتذة تلك المدارس عن رحلة رسمية قام بها في أحد البلدان العربية فيقول : « لم أذهب الى مدينة أو قرية إلا ووجدت فيها طالباً من طلاّبي يتبوأ مركزاً هاماً . »

وكثير من الفلاحين كانوا يسلمون أولادهم إلى معلمين في المدينة ، فيأخذ المعلم الصبي الى منزله ويتعهد بإعداده حسب ما أوتي من ذكاء لإحدى وظائف الدولة ، ويقدّم الوالد مقابل ذلك مبلغا من المال او كميّة من المواد التموينية ؛ ويذهب الصبي الذي يطمع في ان يكون يوماً ما قاضياً أو موظفاً من موظفي الدولة مع معلمه فلا يفارقه ؛ يعاونه في أعمال المنزل ، ويشتري له حاجاته من السوق ، ويصطحبه في خروجه الى الحمّام أو إلى الجامع كالكلب الأمين يتبع سيّده إلى كل مكان .

وقابل المعلمون هذا الوفاء من تلاميذهم بحبه أبوية ، فقد يتفق لأحد المعلمين أن يبيع حماره ليشتري لتلميذه المريض ما يلزمه من الدواء ، ويظل يخدمه طوال مرضه ، بل ويحمله بنفسه إلى الحمام الساخن .

وبعض الآباء كان يحضر المدرسين إلى منزله لتدريس أولاده. فطفل موهوب، كابن سينا مثلاً ، ما كانت لتكفيه الدراسة في المدرسة، وهو الذي حفظ القرآن وعدداً من الكتب الدينية ولم يتجاوز العاشرة من عمره ؛ فبعد أن تعلّم الصبي مبادىء القانون على يد معلم خاص وتعلّم الحساب على يد أحد تجّار الفحم ،

استدعى له أبوه معلماً يدعى أبا عبدالله ، كان يدّعي أنه فيلسوف . وبدأ المعلم مع الصبي دروسه ، ولكن الفتى كان أذكى من استاذه ، وكان يجيب على الأسئلة اجابات يجهلها مدرّسه . وعندما بدأ معاً في دراسة المنطق ، ظهر لابن سينا جلياً ان المدرّس لا يفقه منه شيئاً . وشرع ابن سينا يدرس على نفسه بمعاونة الكتب ، فقرأ لاقليدس (Euklides) بمفرده بعد ان شرح له مدرسه خمس قواعد أو ستاً ؛ وعندما بدأ ابن سينا دراسة الهندسة قال له أبو عبدالله : إنك تستطيع الآن أن تقرأ بنفسك هذا الكتاب وتشرح لي ما تستوعبه لأصحح لك .

ولكن هذه المهزلة لم تدم طويلاً ، فقد غادر أبو عبدالله بخارى ، وهنا تحول ابن سينا بحماسة إلى دراسة الطبيعة ثم الطب تحت اشراف عيسى بن يحيى . وعلى الرغم من أنه قرأ أصعب الكتب فقد قال : « ان دراسة الطب إن هي إلا دراسة يسيرة تعلمتها في مدة وجيزة » . لقد كان ابن سينا حينذاك في السادسة عشرة من عمره ، فتجوّل عاماً ونصف العام ليزيد من علمه ، خاصة في المنطق وفروع الفلسفة المختلفة ، وفي هذه الاثناء ، عالج سلطان بخارى الذي استدعاه لعلاجه بناءً على مشورة كبار أطبائه . وأكمل ابن سينا دراسته في مكتبة القصر وفي المستشفيات ؛ وأتم تعلّمه نهائياً وهو في الثامنة عشرة . وكان هذا هو الطريق الفذ الذي سلكته عقلية فذّة .

أما الطريق الذي يسلكه الراغب في تعلّم فرع معيّن من العلوم ، والذي يرغب الطالب أن يقوم هو بتدريسه يوماً من الأيام ، فكان يبدأ في المساجد ؛ فلم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدي فيها الصلوات فحسب ، بل كانت منبراً للعلوم والمعارف ، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التديّن الأعمى . ألم يقل محمد أقوالاً ، كان يكفي لأن يقولها في رومة حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة ، أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد ؟ ! .

وحول أعمدة الجامع كان يجلس الأستاذ ويلتف حوله طلبة ، حلقة أبوابها

مفتوحة لمن يشاء ، رجلاً كان أم امرأة ولكل الحق في سؤال الأستاذ أو مقاطعته معارضاً ؛ وكان هذا النظام اكبر دافع للاساتذة يدفعهم دائماً للإعداد المتقن لدروسهم والتعمق فيها . حقاً ؛ لقد كان لأي متعلم الحق في أن يلقي ما شاء من محاضرات وأن يتخذ مجلس الأستاذ . ولكن الجمهور المثقف الواعي بنقده الدائم ويقظته ، كان يحمي تلك المجالس من أن يتسرب إلى قيادتها مدعي علم أو مَن لم تنضج ثقافته وتكتمل .

وحول أعمدة المساجد أتيحت للطلاب دائماً فرصة الاستماع إلى الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم العربي المترامي الاطراف . فلقد كان المتعلمون ، في طريقهم السنوي إلى مكة لأداء فريضة الحج يغتنمون الفريضة فيزورون مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة على مقربة من طريقهم ، ويستمعون لكبار الأساتذة في دمشق أو في بغداد . ومن أئمة العلماء من زار القيروان أو الجامع الأزهر بالقاهرة أو الزيتونة بتونس ليلقي ثمّة المحاضرات ، سواء كان هؤلاء العلماء في طريقهم الى الحج او مسافرين خصيصاً لهذا الغرض، يجوبون انحاء العالم الإسلامي من سواحل بحر قزوين إلى سواحل الأطلسي ، ومنهم المؤرخون والجغرافيون ، ومنهم علماء الحيوان والنبات والباحثون عن تراث الأدب القديم . وهم جميعاً ، في حلّهم وترحالهم يفيدون ويستفيدون . ومن شفاه هؤلاء وأولئك كانت الأفكار العلميّة الحديثة تنتشر في كل صوب، فما يدر اليوم في البصرة أو بغداد ، تحمله إلى القاهرة او قرطبة غداً الأنباء ، حين لم يكن هناك صحف او بريد .

وكم كان من السهل ، أثناء نقل مثل تلك الأخبار من فم لآخر ، أن تسرق النظريات والاكتشافات ، ولكن الأمانة العلمية الحق منعت هذا . فكان مألوفاً ان نسمع من أستاذ علاّمة « يحي بن عيسى أخبرني انه سمع من ابي بكر البغدادي كيف شرح سعيد بن ياقوت في إحدى محاضراته أن ... »

فلم يكن العربي يرضى ان يحرق فمه بأفكار سرقها عن غيره. فمن يرغب من

المعلمين ان يحاضر عن كتاب لغيره ، وجب عليه أن يحصل أولاً على إجازة من مؤلف هذا الكتاب؛ ولم يكن لأحد ان يأخذ آراء استاذه التي ألقاها شفوياً في إحدى محاضراته ليدرسها لتلاميذه ، دون أن يستأذن أستاذه صاحب الرأي نفسه . وكان راوي الشعر مثلاً تلميذاً للشاعر ينقل عنه أشعاره بموافقته واختياره، كما كانت الحال في الجاهلية. ويقول الطلبة عن استاذهم الكريم الذي يمنحهم تصاريح بنقل انتاجه العلمي إنه قد غمر الأرض بشهود على عبقريته، ذلك، أن من يحصل على هذا الإذن يملك حق تدريس ما صرح له به ، وبذلك كان حفظ حق المؤلف مرعياً مقدساً ، ورثته الجامعات الغربية عن المدارس العربية العليا .

لقد قدم العرب ، بجامعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع ، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستروس الثاني عدداً من الغربيين من جانبي جبال البرانس ظل يتزايد حتى صار تياراً فكرياً دائماً ، فقدم العرب بها للغرب نموذجاً حيّاً لإعداد المتعلمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي؛ لقد قدّمت تلك الجامعات ، بدرجاتها العلمية وتقسيمها إلى كليات واهتمامها بطرق التدريس ، للغرب أروع الأمثال ، ولم تقدم هذا المظهر فقط بل وفرت له كذلك اللباب : مادة الدراسة .

الفصل التاسع

هدايا العرب للغرب

ما هي المادة التي قدّمتها تلك الجامعات للغرب ؟

إنها دون شك الثقافة الإغريقية . لقد اعترف الجميع للعرب بفضلهم في إيصال أعمال الفلاسفة والعلماء القدماء وآثارهم للعالم الحديث .

وبهذا الثناء الجزئي الذي يهمل الدور الكبير الذي قام به العرب في تأسيس العلوم والثقافة الغربية ، قد تخلص المؤرخون الغربيون حتى اليوم من واجبهم تجاه هذا العمل العظيم . فبينما هم يربّتون على كتف العرب شاكرين لهم تلك الوساطة في نقل الحضارات القديمة للغرب ، نجدهم يرتكبون ظلماً صارخاً بسكوتهم عن أفضال العرب الأخرى . لقد كان الإغريق والهنود وسطاء ايضاً في نقل الحضارات ، وتلك الوساطة لا تعيب الحضارات في شيء . وكان طاليس وفيثاغوروس ورثة للمصريين والبابليين ، نقلا عنهم ما خلفوه من قواعد في الرياضيات والفلك . فهما وريثان لحضارات الشرق القديم ، وهما أيضاً وسيطان في نقل تلك الحضارات ، تماماً كما كان العرب ورثة ووسطاء لحضارة الإغريق وحضارة الشرق القديم ، وكما كان الغرب وريثاً لحضارة العرب والحضارات القديمة .

من البديهي أن كلّ عصر يتناول معرفة الأسلاف وعلومهم ، ولكنّ هذه

المعرفة وتلك العلوم ، إذا وقعت بين أيدٍ مبتكرة خلاّقة فانها تصنع منها شيئاً جديداً حسب ظروفها . فأينما ذهبت كان الفكر الإغريقي بطابعه الخاص ، يرفرف خفيفاً على الخصوصيات ليصل إلى العموميّات ، وفوق شوارع عالم الواقع المتربة لينقّي نفسه وليصل الى التأمل العقلي للفكرة المجردة، وطبعه هذا بطابع خاص وصل به إلى الكمال. فالحضارات المصرية والبابلية والإغريقية كلها حضارات عقلية ، ولكن لكلّ منها طابعها المعيّن وشخصيتها المميّزة تماماً كما للحضارة العربية أو للحضارة الغربية فيما بعد، لمفكري كل منها طابعهم الأصيل الذي يميّزهم تماماً عن غيرهم .

ويظلم تلك الحضارات من يقيس إحداها بمقياس الأخرى .

فاذا كان الفكر اليوناني قد اتجه إلى التأمل الموهوب في كينونة الأشياء ، وترك بذلك طريق الخبرة المضني ، ولم يُعر عمل العبيد في أرض السيد ، مثلاً ، أيّ اعتبار ، وتطلّع مباشرة إلى القوانين والأفكار العامة ، إذا كان قد فعل كل ذلك ، فقد ضمن لنفسه بهذا ، الوصول إلى ذروته وخلوده ؛ أوَليس من الخطأ أن نتّهمه باهماله للملاحظة والتجربة ؟ إنه لمن الطبيعي أن الإغريق قد لاحظوا وأجروا التجارب هنا وهناك، ومن الطبيعي كذلك ان ارسطاطاليس قد بذل جهده في التعرف على الجزئيات، ولكن هذا لم يغيّر من تركيب الحضارة الإغريقية شيئاً ، فالعلوم الإغريقية من طب وطبيعة وكيمياء وحيوان ونبات، بقيت كلها فلسفية وبذلك حافظت على طابعها الإغريقي. لقد شقّت الحضارة الإغريقية لنفسها طريقاً يخالف الحضارتين العربية والغربية

وبالنظرة العادلة نفسها نقول : أو ليس من الخطأ ان نقيس الحضارة العربيه بمقياس الحضارة الإغريقية ذاته ، وأن نتّهمها - كما هي الحال حتى الآن - بنقص فلسفتها العالمية أو أن نصمها بأنها محاكاة للحضارة الهيلينية ؟

إن الحضارة العربية المبتكرة ، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية او الحضارة

الهندية إلاّ بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغوروس من الحضارتين البابلية والمصرية .

لقد طوّر العرب ، بتجاربهم وابحاثهم العلمية ، ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق ، وشكلوه تشكيلاً جديداً . فالعرب ، في الواقع ، هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة .

لقد سرت بين العلماء الإغريق ، الذين لم يكونوا جميعاً بالإغريقيين بل كان أغلبهم من اصل شرقي، سرت بينهم رغبة في البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات، ولكنهم تقيّدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية . ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلاّ عند العرب . فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات إلى الكليات، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين. وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية في القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مراراً وتكراراً؛ فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها. ووضعوا بديلاً للخاطىء منها متمتعين في ذلك بحرية كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في أبحاثهم — الشك هو أول شروط المعرفة — تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطاً كبيراً ، أثر فيما بعد ، بطريق غير مباشر ، على مفكري الغرب وعلمائه أمثال روجر باكون (Roger Bacon) وماجنوس (Magnus) وفيتليو (Vitellio) وليوناردو دافنشي (Leonardo da Vinci) وجاليليو .

إنّ العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتّبوها ثم اهدوها الى الغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي

سُرِق أغلبها ونُسب لآخرين ، قدّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطّه عليها اليوم .

ولعلّ أبرز رجال الغرب الأوائل الذين بهرتهم حضارة العرب ولم يخجلوا من الارتباط بهم هو القيصر الصقلي فردريك الثاني ، أحد القياصرة الأعلام في التاريخ .

حواشي الكتاب الخامس

١) **ابن النديم** : وشهرته الورّاق . ولد في بغداد وعاش فيها . ألّف « الفهرست » أو فهرس العلوم القديمة . ويضم أسماء كل الكتب اليونانية والفارسية والهندية التي نقلت إلى العربية ، بالإضافة إلى الكتب العربية التي ظهرت حتى عهده مع أسماء مؤلفيها وحياتهم .

٢) **الحكم الثاني** : هو تاسع الخلفاء الأمويين في الاندلس . كان عصره عصر ازدهار ونهضة ، غدت فيها جامعة قرطبة مناراً للعلماء والباحثين في الطب والفلك والرياضيات .

٣) **البيروني** : ابو الريحان (راجع حاشية رقم ١٣ من حواشي الكتاب الثاني) .

٤) **انجادين** : مقاطعة في سويسرا .

٥) **ابوليان** : مدينة في جنوبي ايطالية .

٦) **كالابريا** : مقاطعة في ايطالية .

٧) **المايا** : راجع الحاشية ٧ من حواشي الكتاب الثاني .

٨) **الانكا** : هم شعب من الهنود الحمر ، كانت لهم حضارة زاهرة تشهد بذلك الآثار التي اكتشفها العلماء في اميركة . وقد انقرض هذا الشعب في القرن الخامس عشر .

٩) **فيرجيليوس** : (٧١ – ١٩ ق م) أعظم شعراء رومة . ألّف

« الرعائيات »و«الفلاحيات » وملحمة « الانياذة » .

١٠) **شيشرون** : (١٠٧ – ٤٣ ق م)رجل السياسة الشهير وأفصح خطباء رومة . أشهر خطبه : طلب محاكمة كاتيلينا .

١١) **هوميروس** : أشهر شعراء اليونان الاقدمين . عاش في القرن التاسع قبل الميلاد . وإليه تنسب الاوذيسة ، والالياذة التي نقلها شعراً الى العربية الشاعر اللبناني سليمان البستاني .

١٢) **الزرادشتية** : راجع الحاشية ٩٨ من حواشي الكتاب الثالث .

١٣) **إشنباخ** : هو فولغرام فون اشنباخ (١١٧٠ – ١٢٢٠ م) شاعر الماني اشتهر في العصور الوسطى . من أهم مؤلفاته : «برتسيفال » وهي ملحمة تدور حول البطولة والفروسية كما عرفتها العصور الوسطى .

١٤) **ابن حزم** : (٩٩٤ – ١٠٦٤ م) عربي اندلسي من أصل مسيحي قوطي ؛ كان طبيباً وفقيهاً وشاعراً ومؤرخاً ووزيراً . له « طوق الحمامة » و « الفصل في الملل والاهواء والنحل » .

١٥) **هيجل** : Hégel (١٧٧٠ – ١٨٣١ م) فيلسوف الماني . قال : إن الكائن والمعقول هما ، مبدئياً ، شيء واحد : الفكر . والفكر يبدأ بذاتية مجردة ثم ينتقل إلى ما يناقضه ثمّ يخطو إلى الوحدة التي تضمه وتضمُّ معه أضداده .

١٦) **عبد الرحمن الثالث** :(٩٢١ – ٩٦١)ثامن أمراء بني اميّة في قرطبة، ويعرفه التاريخ باسم الخليفة الناصر . عاشت الاندلس في أيامه عصرها الذهبي وامتدت سيادته على إفريقية الشمالية .

١٧) **يحيى بن ماسويه** : طبيب عربي مسيحي ، اشتغل بالترجمة زمن هارون الرشيد ، وعمل طبيباً للمأمون. وأبرز تلاميذه حنين بن اسحق. توفي عام ٨٥٧ م .

١٨) **قسطا بن لوقا البعلبكي** : (٨٢٠ – ٩١٢) طبيب عربي أبدع في الفلسفة والهندسة والحساب والموسيقى . كما اشتغل في صنع الآلات الفلكية وترجم الكثير من المؤلفات اليونانية الى العربية . ومن مؤلفاته : « المرايا المحرّقة » « والفلاحة اليونانية » .

١٩) **ابن القِفطي** : جمال الدين ابو الحسن علي (١١٦٧ – ١٢٤٨ م) ولد في قِفْط . سمع الحديث في مصر وحلب . وزير الملك العزيز (١٢٣٥) . جمع من الكتب ما لا يوصف ، فأوصى بها للناصر صاحب حلب . له : « تاريخ الحكماء » اعتنى بطبعه ليبرت Lippert وطبعه في لايبسيك سنة ١٩٠٣ .

الكتاب السادس

مُوحِّد الشّرق والغرب

« اشكروا الله واحمدوه إذ أتمّ عليكم نعمته ، فإن إتمامها كان بمعجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب . وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الأرض إتمامه . »

من منشورات فريدريك الثاني في بيت المقدس عام ١٢٢٨ م.

الفصل الاول

دولة النورمان، حلقة الاتصال بين عالمين

لقد أحضر القيصر هاينرش السادس لدى عودته من إيطالية بضع قطع اثرية اضافها إلى نفائس الانبراطورية المقدسة . وكان من بينها بضعة اثواب استقبل بها ابنه الأكبر فريدريك الثاني في رومة تاج الانبراطورية، وكان معطف القيصر أجمل ما في رسومها وشعارات الانبراطورية وأثمنها .

كان المعطف مصنوعاً من قماش ارجواني رسمت عليه شجرة نخيل تحمل ثماراً ذهبية لامعة، وعلى كل من جانبيها صورة أسد قوي يضرب بمخالبه جملاً كبيراً، وأرض المعركة حمراء ذهبية . وقد زين الرسم بخطوط واشكال زخرفية باللون البني الغامق وبصفوف مزدوجة من اللؤلؤ البراق الجميل .

وكتب ناسج الذهب على حافة المعطف مكان إتمامه لعمله الفني هذا وزمانه : «بمصنع الملك مقر الشرف والحظ السعيد، مقر الخير والكمال، مقر الجدارة والمجد، في مدينة صقلية عام ٥٢٨ ه . »

والكتابة على حافة معطف القيصر مكتوبة باللغة العربية، كما أنّ النسّاج العربي قد أرّخ عمله بالتاريخ الهجري الذي اتخذ من هجرة محمّد من مكة بداية للتقويم . ترى لمن صنع هذا المعطف الأرجواني وزين بأسدين وجملين ؟

إن عام ٥٢٨ ه يقابل ١١٣٣ ميلادية، وفيه توجت بالرمو تواً ملكاً عظيماً

هو روجر الثاني Roger II ابن الكونت روجر الأول الذي طرد العرب من جزيرة صقلية بعد ما يقرب من قرنين ونصف كانوا فيها سادة للجزيرة على طرف اوروبة الجنوبي. ولقد جعلت أرملته آدل آسيا Adelasia ، وكانت امرأة ذكية، بالرمو ، عاصمة العرب القديمة ، عاصمة لدولتها النورمانية ، فنقلت بذلك مركز ثقل الدولة إلى مركز العرب السابق لتفيد مما أنشأوه هناك . وعندما ضم ابنها روجر الثاني جنوبي إيطالية إلى صقلية استطاع أن يطلب من ذوي الامر في رومة تتويجه ملكاً . ومن أجله صنع عامله العربي عبدالله ، نسّاج الذهب ، هذا المعطف كرمز فخر وعزة للملك . فالأسد رمز الاسرة النورمانية الحاكمة قد صرع الجمل العربي أرضاً .

ومع هذا لو سُئِل عبدالله هذا عما رسم ، لما استطاع أن يقدم دليلاً واحداً على وجود هذا الطغيان النورماني الذي صوره .

فمنذ مائتي سنة قدم العرب إلى صقلية من تونس ، من المنطقة التي حول القيروان ، وحولوا خرائب صقلية إلى حدائق غناء ، واستوردوا لها من بلادهم اشجار النخيل وزرعوا فيها اشجار البرتقال والفستق والمر والموز والزعفران . فحولوا الجزيرة الفقيرة بالقطن وقصب السكر إلى بلد يزخر بالخيرات وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تعج بالشعراء والمغنين والفلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة ، ويحصيها ابن حوقل عام ٩٧٠م في بالرمو فقط بثلثمائة ما بين قصر ومسجد . واستخدم المتعلمون في صقلية في كتاباتهم ورقاً ابيض كان أول ورق عرفته اوروبة ، وكان ذلك قبل ان تصدره إسبانية للغرب بزمن طويل. وهنا في صقلية نظم الشعراء شعرهم الغنائي الرقيق في صورة لم يعرفها الإغريق ولا الرومان ولا الجرمان ، ولم يلبث هذا الطابع العربي ان صار ميزة فن الشعراء في حضارات الشعوب كلها .

لقد صارت الجزيرة للعرب بخيراتها الوفيرة وطناً ثانياً . وعندما هاجم النورمان الجزيرة اعتقد أغلبهم أنهم لن يستطيعوا احتمال طغيان المسيحيين .

واستبد الحنين إلى صقلية بمن غادرها من العرب فصاروا لا يتحدثون عنها إلاّ ويقولون « أرض الوطن » . ويصفها احدهم بأنها « الوطن الذي تغذي فيه الشمس بدفئها وحيويتها النباتات فتملأ الجو بعبيرها الفواح ويتنفس الناس الهناء الذي تختفي أمامه الهموم فيشعر الانسان بالسعادة ! . »

ويصف الشاعر ابن حمديس الذي هاجر إلى الاندلس، فظائع الحكم النورماني في صقلية كما تخيلها فيقول :

صقليّةٌ كادَ الزمـــانُ بلادَها   وكانت على أهْل الزمانِ محارسا
فكم أعينٍ بالخوف أمستْ سواهراً   وكانتْ بطيبِ الامنِ منهم نواعسا
أرى بلدي قد سامَهُ الرومُ ذلّةً   وكان بقومي عِزُّهُ متقاعسا

وفي قصيدةٍ ثانية يصف فيها حنينه الى صقلية فيقول :

ذكرتُ صقليّةً والاسى   يهيّج للنفسِ تذكارهـــا
ومنزلة للتصـــابي خلتْ   وكان بنو الظرفِ عمارَها
فإنْ كنتُ أُخرجتُ من جنّةٍ   فإني أُحدّث اخبارَهـــا
ولولا ملوحةُ ماءِ البكاءِ   حسبتُ دموعيَ أنهارَها
ضحكتُ ابنَ عشرين من صبوةٍ   بكيتُ ابنَ ستين أوزارَها
فلا تعظمنَّ لديك الذنوبُ   فما زال ربُّك غفّارَها

ومرت الأيام وكان لا بُدّ للدموع أن تجف ، فقد تحول الفاتحون أ الجدد إلى رعية وديعة تقودها جماعة العرب . ولا عجب ... فهذا هو ما حدث بالفعل . فقد وجد النورمان أنفسهم محاطين بجمال واناقة لم يعرفوا من قبـــل لها مثيلاً . لقد وجدوا فن البناء في ذروته والأدب والشعر في أوج ازدهارها ، فلم يتمالكوا أنفسهم إلاّ وأن يسلموا مختارين لهؤلاء العرب بالسيادة . وهكذا بسط المسلمون سلطانهم المعنوي عليهم كما بسطوه دائمـــاً على كلّ من احتك بهم من الشعوب على اختلاف دياناتها .

لقد ترك فرسان الصليبيين في الأرض المقدسة ، بما فيهم ملكهم بلدوين الأول (١) Balduin I ، كل عاداتهم وتقاليدهم وأخذوا عن اعدائهم عاداتهم وطباعهم من كرههم لأكل لحم الخنزير وتذوقهم للأطعمة العربية إلى حملهم لميداليات تحمل آيات من القرآن . واندمجوا بالعرب وحذوا حذوهم . لقد كتب أحدهم من بيت المقدس إلى وطنه قائلاً « نحن الذين كنا يوماً ما من الغرب قد صرنا الآن شرقيين » .

وهكذا فعل أيضاً سادة صقلية الجدد فقد نهجوا نهج الامراء العرب برغم ارتباطهم بعقود الطاعة مع البابا . فخصصوا لهم ولرجال دولتهم قصور العرب بل بنوا قصوراً جديدة على الطراز العربي تتوسطها الحدائق الغناء مزدانة بالنافورات والزينات العربية ، ولم يخجلوا من ان يطلقوا عليها أسماء عربية وأن يتصدرها اسم الله أو امثال تلك الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم » « قف وانظر فسترى عملاً رائعاً يخص احسن ملوك الأرض : فيلهلم الثاني » .

لقد كان طبيعياً ان يندمج النورمانيون وهم لا يملكون حضارة ولا موهبة بما وجدوه من حضارة عربية . أما العجيب في تصرف الغرب ، فهو ما فعله الصليبيون الذين قادوا الحرب ضد أعداء دينهم وخاضوا بحراً من الدماء في بيت المقدس ودمياط. من أجل ذلك ، وعلى الرغم من هذا ، فقد نسوا عاداتهم وتقاليدهم واندمجوا بالعرب .

ولأول مرة في تاريخ العالم المسيحي أظهر النورمان تسامحاً مع المخالفين لهم في العقيدة متمثلين بالعرب في شهامتهم ورجولتهم ، فكان ذلك المسلك ، بالتأكيد ، هو سر ما اصاب دولتهم من ازدهار إذا قورنت بنظيراتها في الغرب .

ترى ، هل أجبرتهم اهدافهم السياسية على عدم التخريب وذبح الكفرة المنهزمين ؟ هل اضطرتهم كثرة المسلمين العددية إلى الاعتدال وعدم اتخاذ الأساليب الوحشية التي عرفت عنهم في غزواتهم في أوروبة ؟ أم يكون اعجابهم بشهامة العرب وتسامحهم هو الذي سحرهم ؟

على أية حال ، وسواء كان الدافع هو كل تلك الأسباب أو بعضها ، فإن إعجابهم بخصمهم أيقظ فيهم واجبات الشرف الجرمانية ، ووقف النورمان امام خصومهم المسلمين المنهزمين موقف الحليم المتسامح. تسامح لم يعرف عن المسيحيين في الغرب ولا فرسان الحروب الصليبية .

وتذكر الناس كلمات عمرو بن العاص لدى تسليم الاسكندرية ، عندما رأوا الدوق روبرت جويسكارد (Robert Guiskard)يعِدُ المسلمين المحاصرين في بالرمو بحرية ممارسة شعائرهم الدينية ويؤمنهم على حياتهم وممتلكاتهم ، ثم يفي بوعده بعد احتلاله المدينة وذهل الناس عندما وضع أخوه الكونت روجر إدارة شؤون العاصمة المحتلة في يد الأمير العربي المنهزم . وعاد التاريخ سيرته الأولى يوم كان العرب الفاتحون يسمحون للشعوب المنهزمة أن تمارس عاداتها وعقائدها . ولكن ما حدث للنورمان الفاتحين ، كان غير ما حدث للعرب ايام فتوحاتهم وانتصاراتهم . فلقدانقلبت مع النورمان الأوضاع فحاولوا ، وهم المنتصرون ، ان يقلدوا المسلمين المنهزمين وأن يتطبعوا بطباعهم .

ويسير النورمان على ما نادى به الإسلام . « لا اكراه في الدين » وعلى ما نادى به ثيودوريك من أنه لايمكن لإنسان أن يرغم انساناً آخر على اعتناق دين ما دون رغبته . وحرم الكونت روجر إجبار الرعايا المسلمين أو الالحاح عليهم في ترك دينهم . فالاسقف الانجليزي « انسلم » (Anselm)الذي دخل خيام العرب أمام اسوار كابوا (Capua) جنوبي ايطالية ، شعر بغضب الأمير النورماني عليه عندما حاول التبشير بالدين المسيحي بين صفوف الجند المسلمين . وقد كتب في هذا الشأن : « لأيّ سبب يغضب الكونت روجر إذا انتحل أيّ مسلم المسيحية ؟ إنني لن أبحث في الأسباب ولكنّ الرب سيحاسبه » .

كلاّ ، إن عبد الله نساج الذهب للملك الثاني روجر الثاني كان يعرف تمام المعرفة أنّ النورمان لم يكن شديداً على أكتاف أبناء دينه من المسلمين ، فقد ظلوا يزورون مدارسهم ومساجدهم وحماماتهم وأسواقهم دون أن يصادفوا أية

متاعب من االنورمانيين الذين اولوهم ثقتهم، واختار الملك من بين النابغين منهم موظفي دولته وكوّن منهم قوة عسكرية للدفاع ضد القلاقل التي كان يثيرها البارونات دوماً وكانت معاونة العرب له ذات أثر كبير في تنظيم دولته الجديدة فعينهم في اعلى مناصب الدولة والجيش والبلاط؛ وقلد ملوك المسلمين في تنصيب موظفين مُعينين مثل، امير البحر، مما لم يكن معروفاً عند الفرنجة من قبل.

وبعد احتلال الجزيرة ظهرت حاجة النورمانيين لأسطول يحميها كما كانت الحال ايام العرب، وكان من الطبيعي أن تكون بالرمو المدينة البحرية والعاصمة، هي مركز الأسطول وان يختار اميرها اميراً أي ادميرالاً وفي حكم روجر الثاني كان منصب الادميرال هو اعلى مناصب الدولة، وكان اول من تولى هذا المنصب ليس قائداً من قواد السفن النورمانية القدامى بل رجلاً عربياً هو عبد الرحمن النصراني الذي تسمى باسم إغريقي كاثوليكي هو كريستودولوس (Christodulos) والذي قاد الاسطول والمشاة ايام حكم والد روجر، فأضاف روجر الثاني إلى مهامه وظيفة كبير القضاة.

وارتفعت مكانة الادميرال الثاني في مملكة النورمانيين، وكان هو الآخر عربياً يدعى جورج الانطاكي الذي أوتي موهبة في الادارة والشؤون المالية جعلته في صدر شبابه وزيراً الحاكم ماجديه قرب تونس برغم أنه مسيحي. وكان الوزير الفتى الذي يهوى المغامرة ويجيد اكثر من حرفة قد عرض خدماته على بلاط النورمانيين بعد وفاة سيده خشية من نيات الحاكم الجديد، ورغبة منه في الهرب من وجهه. ولقد وجد روجر الثاني في جورج ذاك الرجل المغامر الذي تحتاج إليه دولته. وبينما سكان ماجديه ورجال البلاط يؤدون صلاة الجمعة في المسجد الكبير استقل وزير المالية متخفياً في زي بحار ومعه رجاله المخلصون له، سفينة البريد النورمانية التي تظاهرت بقدومها من بالرمو حاملة رسالة للامير. ولقد لاقى جورج في بالرمو نجاحاً مماثلا للنجاح الذي لاقاه وهو فتى مغامر في صدر شبابه، فعهد إليه عبد الرحمن النصراني، في أول الأمر، شؤون الإدارة. ولكن

موهبته السياسية والمالية التي ظهرت جليّة في بعثته الموّفقة إلى سلطات مصر ، زادت إعجاب روجر به ، فعهد اليه بقيادة مجموعة من سفن الاسطول . ولم يلبث جورج ان تولى رئاسة الاسطول كله متخطياً كلّ أقرانه وقد لاقت البحرية على يد جورج الذي لم يلبث أن اصبح امير أمراء البحر ، عدة اصلاحات وتنظيمات توخى فيها النظام العربي المتبع آنذاك مما جعلها سلاحاً قوياً استطاع ان يغزو به شمالي إفريقية ويحتل أهم موانئها التي عمل فيها في صدر شبابه .

إن هذا العربي الماهر ، الذي قدّم لدولة النورمانيين هذه الخدمات الجليلة ، صار من اقرب المقربين إلى الملك ، فطوال اربعين عاماً خدمها بإخلاص احتضنه الملك اكثر من اي واحد آخر من رجال بلاطه وذلك لنزاهته وشخصيته الممتازة وحسن تقديره للمسئولية. فنراه يتحدث عنه مثلا في عام ١١٣٢ ميلادية ويسميه « بالشخصية الأولى في المملكة كلها » وعندما وافاه أجله بعد ذلك العام بعشرين سنة لم يتمالك الناس ، حتى من كانوا يعادونه ، من ان يقولوا : « لن يجد ملك صقلية من يسد الفراغ الذي تركه موت ذلك الرجل العظيم » .

ألا تحمل مثل تلك الصداقة التي ربطت ملك صقلية برجال ممتازين من العرب ، ولمسه لمقدرتهم الفذة وثقافتهم الواسعة وتقديره لرجولتهم وشهامتهم ، على ان يحب العرب عامة ويجلهم ؟ لقد حدث هذا بالفعل فكان العرب دائمي التردد على الملك ، يناقشهم ويفيد من علمهم ويتخذ من علمائهم وشعرائهم جلساء له ويشجعهم على ترجمة الكتب العربية والإغريقية المعربة ، بل وينضم إلى جانب العرب حين تحدث منازعات بينهم وبين المسيحيين . وقد كتب عنه المؤرخ العربي ابن الأثير(٢) قائلا : « وأكرم المسلمين ، وقرّبهم ومنع عنهم الفرنج ، فأحبوه » .

لقد احبه العرب من قلوبهم . فعند وفاة أكبر اولاده الذي كان اكثرهم ذكاء ومهارة والذي كان يحمل اسمه ، أظهر العرب حزنهم الشديد عليه ورثاه شعراؤهم . بل إنّ سيدات الأسر العربية لبسن السواد وتركن شعورهن حزناً

الكامل في التاريخ : ١٠ : ١٩٨

على وفاته ، والتفنن حول القصر ناحبات ، وسارت خادماتهن في الشوارع ترتلن مقطوعات الرثا . ورسم العرب لروجر صورة خالدة ليست كصور العصور الوسطى مثالية غير شخصية . إن هذه اللوحة تنطق بحبهم له كمؤسس للدولة ومشرع ومحب للعلوم والرياضيات والجغرافية وعاشق للفنون .

والفضل يرجع للعرب في جعلهم من روجر الثاني أغنى ملك في أوروبة يوم كان أصغر ملوكها . لقد وُفقوا في ذلك بقدرتهم االفائقة على فلاحة الأرض ومهارتهم المتوارثة ونظامهم المالي الضرائبي الدقيق الذي أخذه عنهم كما اتبع نظامهم الاداري والقانوني وتدفقت على دولته الخيرات من شمالي إفريقية التي ضمها إلى أملاكه أمير امراء البحر جورج في حملة موفقة خاطفة ، والتي تركها روجر بتسامحه المعروف تحت إدارة محليين . فالفضل كل الفضل يعود لذلك العربي الشجاع الذي وسع رقعة أملاكه ونفوذه ، وجعله يزهو باسمه « ملك صقلية وإيطاليا وشمالي إفريقية » .

لقد اثارت تلك الفتوحات في الملك رغبة ملحة في التعرف على العرب ، ومن ذا الذي يستطيع ان يرسم له صورة واضحة للعالم إلا عربي ؟ عربي مثل أولئك السبعين جغرافياً الذين رسموا خريطة العالم بأمر من المأمون في بغداد ؟ ولم يتردد الملك في دعوة اعظم علماء الجغرافية في عصره ، الادريسي. ولم لا ؟ او ليس هو ملك صقلية وإيطالية وشمالي إفريقية !

ويكتب الادريسي إنه عندما خضعت له بلاد إيطالية وقبلت الشعوب سيادته شاء الملك أن يتفهم أجزاء امبراطوريته فأراد أن يعرف حدودها وطرقها المائية والبرية ومناخ كل منطقة والبحار والخلجان التي تحيط بها ؛ ليس هذا فحسب ، وإنما اراد ايضاً ان يتعرف على البلدان الأخرى . . . وأمر بتأليف كتاب يحوي وصفاً كاملاً للمدن والبلاد يوضح طبيعتها وثقافتها والنشاط البشري فيها ، ويذكر بحارها وجبالها وأنهارها وسهولها وأوديتها . وكان لا بُدَّ ان يتناول هذا الكتاب ،

علاوة على ذلك ، الحديث عن الحبوب والفواكه والنباتات التي تنمو في تلك البلدان والحديث عن الفنون والصناعات التي يتقنها أبناء كل اقليم. كما أوصى بذكر الصادرات والواردات والحالة المعيشية للشعوب والعادات والتقاليد والملابس واللغات المنتشرة بينهم .

لقد تلقى الإدريسي دراسته في قرطبة ، وقام برحلات عديدة ما بين آسية والساحل الغربي لانجلترا ، ووصل جنوباً الى جنوبي القارة السوداء . وقضى الادريسي في بالرمو خمسة عشر عاماً في إعداد ما عهد به إليه الملك يرسم ويسجل ويحصي ويدون كل ما رآه في رحلاته العديدة . وكان الملك الشغوف بالجغرافية ومشاكلها وكتبها يشاركه في عمله بنفسه . ولم يكن يدخل دولته ضيف او سفير او مسافر او تاجر إلا وسأل عن بلده ورحلاته وخبراته . وقد كلّف الملك الموثوق بهم من موظفي المساحة العرب بالتجول في كل انحاء إنبراطوريته ليقيسوا المدن والانهار والمرتفعات .

وفي أوائل عام ١١٤٥ ميلادية أتمّ الادريسي عمله العظيم وقدّم للملك الذي هدّه المرض وبات ينتظر نهايته سبعين خريطة ، خرائط تفوق خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة اخطائها .

بيد انّ دُرّةَ عمله كانت خريطة العالم التي نحتها على لوح من الفضة قطره متران ووزنه يعادل وزن رجلين ناميين . وتوضيحاً لخرائطه ، وضع الادريسي كتابه القيّم في وصف الارض ، المعروف في العالم الإسلامي «كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» .

ولم يكن الادريسي بأعماله العظيمة هذه وحيد عصره ، فقد ازدهر علم الجغرافية عند العرب منذ الأسفار التي قام بها التاجر سليمان الى الصين ، والتي قام بها غيره من العرب في جنوبي آسية وشرقيها ، والتي جابوا فيها تلك البقاع قبل ماركو بولو بأكثر من اربعة قرون . لقد كان العرب شعباً يحب الترحال ، وكان

التوسع العظيم لدولتهم ، الذي خرج بهم الى شعوب وبلدان عدة ، والذي جعلهم دائماً على سفر ، أكبر عامل ساعدهم على جمع المعلومات الصحيحه ومقابلة النابغين من العلماء والأخذ عنهم . كما كان لرحلاتهم التي قاموا بها قصد اداء فريضة الحج أو للتجارة ، او خصيصاً لطلب العلم وجمع المعلومات في البر والبحر أثر كبير في قدرتهم على كتابة تقارير مفصلة في وصف البلدان التي زاروها ، وبهذا بدأ علم الجغرافية عند العرب يأخذ شكلا علمياً صحيحاً. وبينما كان الغرب عاكفاً خلف أسوار الاديرة يبحث عن الجغرافية فيما كتبه الاقدمون وما وصلوا إليه من نظرية او استنتاجات ، كان عالم كالمقدسي (٤) مثلا يجوب الارض طولاً وعرضاً ليكتب في القرن العاشر كتاباً في جغرافية الأرض وشعوبها ، اتخذ مادته من تجاربه ومشاهداته الخاصة فقط . وها هو يحدثنا عن مغامراته بحثاً عن المعرفة فيقول : « وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ، ودخولي أقاليم الاسلام ، ولقائي العلماء ، وخدمتي الملوك ، ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء ... مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد .. وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها ، وتدبُّري في الكور حتى فصلتها ، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها » .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : ص ٢

ولقد ساهمت الرحلات العالمية التي قام بها العلماء العرب امثال ابن بطوطة في زيادة المعلومات الجغرافية وصحّحت آراء خاطئة واخطاء شائعة . لقد غادر ابن بطوطة (٥) بلدته طنجة في رحلة علمية محفوفة بالمغامرات والتجارب عاد منها إلى موطنه بعد اربعة وعشرين عاماً .

واستطاع الجغرافيون الفلكيون أمثال البتاني وابن يونس والبيروني وابن سعيد وياقوت (٦) ان يتقدموا خطوات عما وصل اليه الاقدمون فاستطاعوا ان يحددوا بدقة متناهية الموقع الجغرافي للبلدان الهامة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض.

وكان من الطبيعي ألا تأتي تلك اللوحات مضبوطة تماماً نظراً لشدة سرورهم وكثرة اندفاعهم . ولكن اذا كان بطليموس قد أخطأ في رسوماتها في بضع درجات فإن العرب لم يتجاوزوا الواقع الصحيح بدقيقة او دقيقتين . ولقد وحد الأدريسي الاتجاهين فربط بين الجغرافية الوصفية والجغرافية الرياضية الفلكية .

وفي فرع آخر من الجغرافية الطبيعية والجيولوجية اعطى ابن سينا والبيروني امثلة صحيحة تماماً ولها قيمتها العلمية في دراستهم لنشأة الجبال وطبقات الصخور . ولقد كتب ابن سينا حوالي ١٠٠٠ ميلادية يقول : ترجع الجبال في اصلها ونشأتها إلى عاملين ، فإما ان تنشأ نتيجة انحناء في القشرة الارضية بسبب حركات عنيفة في باطن الارض، وإما ان يكون اثر الماء هو سبب نشأتها عندما يشق الماء لنفسه طريقاً وأودية . وطبقات الصخور وانواعها بعضها لـيّن وصلب ، والرياح والماء تؤثر في النوع الأول ... والماء هو العامل الاساسي في هذه التأثيرات ويمكن الاستدلال على ذلك من وجود بقايا متحجرة من حيوانات مائية فوق كثير من الجبال .

إن جيولوجية ابن سينا تصلح لكل زمان ومكان ، وللقرن العاشر اوالرابع عشر ، للشرق او الغرب ، في اصفهان او في الاندلس . تصلح لنظرة العالم المتطورة التي تنظر إلى كل احداث الحياة كعملية تطور ، وتلك التي تسعى وراء التجربة الشخصية والبحث العلمي لتفسير الحقائق بالرجوع إلى مسبباتها، والتي لاتقتنع الا بالبراهين المادية الملموسة او بالرؤية المباشرة بالعين المجردة . ففي العالم العربي، على خلاف ما كانت عليه الحال في الغرب، سادت التعابير التالية «لقد لاحظت»، «لقد شاهدت بعيني» ؛ وأَلِفَ الناس ان يقرأوا مثل هذا التقرير ، «احيانا يجف الوحل ويتحول إلى مادة لا هي بالوحل ولا هي بالحجر ، أي إلى حجر طري، ثم يتحول هذا إلى حجر صلب وفي طفولتي رأيت على شاطىء نهر اموداريا Oxus الوحل الذي يستخدمه الناس في غسل رؤوسهم، وفيمابعد لاحظت ان هذا الوحل قد تحول إلى حجر لين ، وتم هذا في زمن مدته ثلاثة وعشرون عاماً ».

أن مشاهدات ابن سينا وملاحظاته لم يعرها مترجمو العصور الوسطى أي اهتمام ولا هم كلفوا بطريقته العلمية . والذي كان يحدث في الغرب عند تلقى أخبار تلك الانتصارات العظيمة هو ان يلقى بالخبر جانباً . ويكتب الغربي ما تعلمه منذ نعومة اظفاره « إننا نعرف طريقنا في هذا العالم » .

ولم يعرف الناس في اوربة لزمن طويل الجغرافية المؤسسة على المراقبة والتجربة . فلم تكن خرائط الاديرة ترسم الأرض طبقاً لفهمهم للإنجيل إلاّ على أنها قطعة من الأرض يحيط بها بحر عالمي وفي وسطها تقع الجنة .

لقد كان الجغرافي العربي الادريسي هو الذي مثّل في قصر ملك صقلية دور المعلم للغرب ، وليس بطليموس كما يدعي بعضهم . وبقيت خريطة الادريسي ثلاثة قرون تسد الفراغ في الغرب ، وتخدم محاولاتهم الخاصة في هذا المجال كنموذج يهتدي به ، كما ظلت اعمال ابن سينا المرجع الأساسي للجيولوجية الاوروبية حتى القرن الثامن عشر .

وفي البلد الذي أتمّ فيه دراسته يوضح الادريسي قائلاً : نحن نقول انّ صقلية هي لؤلؤة هذا القرن في الغنى والجمال ، وأول بلاد العالم في خصوبة أرضها وكثافة سكانها وقدم حضارتها . يأتي اليها المسافرون والتجار من كل الانحاء وكلهم مقدر لصقلية مكانتها ، الجميع يثنون على جمالها . ويتحدثون عن مزاياها وبضائعها التي تأتيها من أرقى البلاد ... وبالرمو مركز الملك منذ القدم ، تقع على الساحل المكتنف بالشمس محاطة بالجبال مزينة بالمباني الفخمة لدرجة أنّ الناس تأتي اليها لترى فن البناء فيها وتحفها الفنية ولتشاهد قصورها المتوجة بالأبراج ومبانيها ومساجدها وحماماتها وحوانيت تجارها . ولا يستطيع المرء ان يتصور مدى جمال جامعها ، بالإضافة الى التحف والزينات والنادر من التماثيل والرسوم والزخارف الذهبية والملونة . وبالرمو غنية بفواكهها . ولا يستطيع الانسان أنْ يتصور فخامة مبانيها . وبكلمة موجزة : إنّ هذه المدينة تخلب لُبّ زائرها .

ومن بين الذين جذبتهم بالرمو إليها من غرناطة ابن جبير (٧) المؤلف الرحّالة الذي زارها عام ١١٨٥ ميلادية . ولقد ترك لنا ابن جبير تقريراً وافياً عن بلاط النورمانيين وحاكمهم وعاصمتهم ، وكيف كان حالهم بعد وصف الادريسي وثنائه عليهم بمدة ثلاثين عاماً . وكان الملك روجر الثاني في هذه الاثناء قد توفي في العام نفسه الذي سلمه فيه الادريسي عمله بعد أن أتمه وتسلم من يده « هدايا كالبحر لا تنضب ، مباركة كالغيث . » وبعد حكم قصير لابنه فيلهلم الأول خلفه على العرش حفيده فيلهلم الثاني .

ومر على حكم النورمان لصقلية مئة عام توطدت فيها اواصر الحكام برعيتهم من العرب ، وهذا ما كان يلمسه كل قادم للبلاد من غرناطة أو غيرها بعد أن يظن أنه قادم الى بلاد يحكمها الفرنجة . فقد كان الملك يضع كل ثقته في العرب فعملوا عنده كأطباء او كفلكيين . إنه اعتمد عليهم في شؤونه الخاصة ، فكان طباخ قصره عربياً ، بل لقد كون منهم فرقة لحراسته يرئسها عربي ايضاً . فالعرب هم عماد دولته يختار من بينهم موظفي الدولة والبلاط ويصطفي منهم امناءه ووزراءه ، وبرؤيتهم فقط يتعرف الانسان على مدى ازدهار دولته ، فهم يختالون في الغالي والنفيس من الثياب ، ويركبون الأصيل من الخيل ولكل منهم حاشيته وخدمه . والملك فيلهلم يمتلك القصور الفخمة والحدائق الغناء خاصة في عاصمته بالرمو . وهو في لهوه يحاكي الامراء المسلمين ، ويحاكيهم في قوانينهم ونظام حكوماتهم وفي معاملة رعيته وكذلك أبهتهم ومظهرهم . إنه يكتب اللغة العربية ويقرؤها ، بل إنّ أحد خدمه المقربين يذكر أنه كان يكرر الكلمات « الحمد لله ، إن الثناء عليه حق » وكانت كل الفتيات والجاريات في قصره من المؤمنات بالاسلام . ويذكر خادمه هذا المدعو يحيى ، والذي كان والده يطرّز (يوشي) حلل الملك بالذهب ان كثيراً من الفرنجة المسيحيين الذين كانوا في قصر الملك قد تحولوا عن المسيحية ودخلوا في الاسلام بتأثير هؤلاء الفتيات .

« وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حدثنا

به خديمه يحيى بن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك : أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة ... وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مُرجفة ذعر لها هذا المشرك : فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه ، ولربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به ، تسكيناً لهم » .

رحلة ابن جبير : ص ٢٩٩

« وللمسلمين بهذه المدينة رسم باقٍ من الإيمان ، يَعْمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم وهم التجّار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلّون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وَقيده في هذا الشهر المبارك ، وأمّا المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها مَحاضر لمعلمي القرآن » .

رحلة ابن جبير : ص ٣٠٥

ويصف مَن رأت عيناه عظمة فن البناء في الاندلس مدينة بالرمو قائلاً :

مدينة « عتيقة أنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلّع بمرأى فتّان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان . فسيحة السّكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشان ، قُرطبيّة البنيان ، مبانيها كلها بنحوت الحجر المعروف بالكَذّان ، يشقّها نهر مَعين ، ويطّرد في جَنبَاتها أربع عيون ، قد زُخْرفت فيها لملكها دنياه ، فاتّخذها حضرةَ ملكه الإفرنجي .. تنتظم بلَبّتها قصورُه انتظامَ العقود في نحور الكواعب ، ويتقلّب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب ، فكم له فيها ... من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع ، وكم له بجهاتها من ديارات قد زُخرف

بنيانها » .

رحلة ابن جبير : ص ٣٠٥

وفي صقلية هذه بقصورها وحدائقها، وفي بالرمو بشوارعها الفسيحة وجمهورها العربي شبّ يتيماً حفيد آخر للملك روجر الثاني هو فريدريك ، الذي كان أيضاً حفيداً للملك فريدريك الاول بربروسا . وقد اعتلى عرش صقلية باسم فريدريك الثاني (٨) بعد وفاة ابن خاله فيلهلم الثاني . كما اعتلى عرش الإنبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة أبيه هاينرش السادس . وبدأ فريدريك الثاني بشق طريقه المليء باللعنات احياناً وبالعجائب أحياناً اخرى بين عالمين تصارعا حتى سالت منهما الدماء ، وكان من الواجب أيضاً ان يتعالجا على يديه ليبدأ عصراً جديداً .

الفصل الثاني

« توحيد الشعوب المتنازعة »

إن المباحثات السرية الجارية بالقرب من يافا لا تنتهي ، والهمسات تتردد على الأفواه حتى تصل ايطالية : إن القيصر فريدريك الثاني يتفاوض مع «الكفار» ...

هكذا عاش الناس بين تلك الهمسات منذ أن تجرّأ القيصر المطرود من الكنيسة على أن يطأ بقدمه الأرض المقدسة . لم يكن قد استُلّ حتى ذلك الحين سيفٌ من غمده كما كان متوقعاً .. وتجمدت الأحوال ؛ وأعطى فريدريك لجنوده الألمان وللحفنة التي بقيت معه من الانجليز وأبناء جنوا وبيزا معاول بأيديهم يلهيهم بها عما يشعرون به من ملل السكون والبطالة ، ليحفروا بها خنادق دفاعية . وتوالت الرسل بين يافا ومعسكر الملك الكامل قرب الحدود المصرية جيئة وذهاباً . وفي الوقت نفسه جلس قائد المسيحيين في خيمته مع رجل عربي حصيف خبير بأمور الدنيا وأحداثها يتناقشان ويتجادلان باللغة العربية بثقة متبادلة . ولم يكن أحد ليعلم شيئاً عما يدور بينهما .

ولم يكن أحد ليعلم أيضاً ماذا يخفي القدر لسيدهم هذا ، الذي عملت دعاوة أعدائه في رومة بكل الوسائل على تجريحه والنيل منه ، خاصة بعد أن اصدر البابا حكمه بحرمانه من الكنيسة ، وأخرج أتباعه من يمين القسم، وأرسل جنده

يهاجمون إنبراطوريته . ولم تقتصر متاعب القيصر فريدريك على ذلك ، فانه لم يسلم من مؤامرات الخونة في معسكره ومكائدهم ؛ وكان لا يعرف كيف يتدبر أمر إطعام جنوده بعد ان ذهبت العواصف البحرية بالإمدادات المرسلة إليه . غير أنّ الرجل كان يخفي آلامه خلف وجه باسم حتى لا يشمت به أعداؤه . والواقع أنه لم يكن أحد يعرف متاعب القيصر إلا هرّمان فون سالتزا (Herrman Von Salza) رئيس الفرسان الألمان والكونت اللومباردي توما الأكويني (Thomas Von Aquin) والأمير فخر الدين الذي كان قد فاوضه منذ عام منتدباً من سلطان مصر ، بشأن عقد اتفاق لتسليم بيت المقدس. وبهذا نشأت بينه وبين فريدريك صداقة وثيقة سببها إعجاب فريدريك بذكاء الكامل وسلوكه الطيب وسعة اطلاعه .

إلاّ أن عرض السلطان السالف الذكر وشروطه للصلح تهاوت بطبيعة الحال . فالكامل لم يعد في حاجة لما عرضه فريدريك من مساعدة ، إذ انه استولى على بيت المقدس دون عون او حرب . وأرسل فريدريك مستشاره القانوني الى سلطان مصر ليقول له : « إننا لم نعبر البحر لنحتل أراضيكم ، فاننا نملك من البلدان أكثر من أي ملك على الأرض » . واستقبل السلطان مستشار القيصر وأحاطه بالإكرام والاحترام ، ولكنه أهمل عروضه كلها بأدب دبلوماسي . ولم تسفر هذه الاتصالات التي توالت بين القيصر والسلطان إلاّ عن تبادل الهدايا ، فأرسل إليه الكامل جِمالاً سريعة وعدداً من الهدايا النفيسة . وأظهر فريدريك احترامه وإعجابه بثقافة الكامل ورجال دولته ، فبعث اليهم بكتب الرياضيات والفلسفة وعلوم الطبيعة . أما عن الاتفاق المقترح بينهما فانه لم يتمّ منه شيء بالمرة .

وما كان لينقذ فريدريك من حكم الموت الذي صدر ضده من الكنيسة ، على حدّ تفكيره وتفكير المخلصين من أتباعه ، إلا عقد اتفاق مع السلطان الكامل يحتل بموجبه بيت المقدس بأسرع وقت ممكن . وهكذا يكون قد وضع حداً

لمشاكله المتفاقمة المتزايدة . ولكن، كم كان هذا التفكير بسيطاً ساذجاً !! وحقيقة الأمر أن الكنيسة ما كان يهمها قط أيّ انتصارات يحرزها فريدريك على أعدائه، وانما كانت تبذل كل ما في وسعها من جهد لعرقلة أيّ مجهود يؤدي إلى نصرته وظفره . لقد كانت الكنيسة تريد أن ترى على أقدام العرش البابوي ملكاً صريعاً لا ملكاً متوجاً بأكاليل النصر والغار . فالخطابات المتبادلة مع السلطان المصري أظهرت مدى امتنانهم له لعدم تسليمه الأماكن المقدسة لفريدريك الثاني .

لقد كان لتبادل الهدايا بين فريدريك والسلطان الكامل، فضلاً عما فيه من إرضاء لغرور العاهلين وإشباع لهوايتهما، أثر حميد في توطيد عرى الصداقة بين فريدريك والأمير فخر مبعوث السلطان، والذي قدّم إلى معسكر فريدريك يحمل قائمة من السلطان بأسماء الكتب القيمة التي يبحث عنها . وكانت تلك فرصة توطدت فيها، بين الرجلين، صداقة ومحبة فأفسح فريدريك للأمير العربي مكاناً في خيمته وآخر في قلبه .

لماذا تكون الحرب واستخدام القوة وسيلتي تفاهم بينه وبين السلطان ؟ ولماذا لا يمدّ الرجلان المحبان للفكر والثقافة، والكارهان للعنف وإراقة الدماء يد الصداقة الخالصة لبعضهما ؟ أيجوز لهما أن يتوانيا، والفرصة سانحة أمامهما، عن حقن الدماء التي طال هدرها، وتوحيد الشرق والغرب وقد طال صراعهما ؟ لقد كانت هذه هي كلمات فريدريك التي أسرّ بها إلى صديقه فخر الدين . ويأخذ فخر الدين بمنطق صديقه الذي كان هذا ايضاً منهجه في الحياة ويزيل من طريق المفاوضات بين العاهلين اول عقبة، فيقترح على صديقه فريدريك إلاّ يبعث للسلطان مستشاره القانوني ذاك الذي يثير غضب السلطان بتصرفاته، ويقترح عليه أن يرسل اليه الكونت الاكويني القادم معه من صقلية، والذي لا يجيد اللغة العربية فحسب، بل يعرف ايضاً كيف يتصرف كالمسلمين تماماً . ولقد جاءت تلك النصيحة في الوقت المناسب والظروف الملائمة، واستطاع فريدريك، بفضل رسوله هذا، أن يلمّح للسلطان بضرورة المحافظة على سمعته كفارس في الغرب .

ولم يكن السلطان ، الذي كان على علم تام بمجريات الأمور بين فريدريك والكنيسة في رومة ، ليغفل هذا الأمر ونجح فخر الدين كذلك في اقناع السلطان بوجهة نظر فريدريك لدرجة أن السلطان أظهر استعداده الكامل لعقد اتفاق جديد معه ، ولا سيما وان ظروف السلطان في سورية لم تكن طيبة .

وفي الثامن عشر من فبراير عام ١٢٢٩ م ، مدّ الشرق للغرب يده مصافحاً . وأمام هرمان فون سالتزا وتوما الاكويني قال السلطان الكامل :

« **أقسم بالله العظيم** ، وبقلب ونيّة سليمة أن أنفّذ كل ما اتفقنا عليه في هذه الوثيقة ، وألاّ أحنث بقسمي » .

وفي الساعة نفسها أقسم فريدريك الثاني قائد المسيحيين في معسكره قرب يافا ، بين يدي الأمير فخر الدين يمين احترامه للاتفاق ، مؤكداً قسمه بقوله : « إنه سيأكل لحم يده اليسرى إنْ هو حنث بهذا القسم العظيم » .

وبهذا تمّ السلام بين الشرق والغرب دون حرب أو سلاح ، ومثلت المفاوضات دورها السلمي بنجاح . وكُتب لفريدريك أن يحقق ما لم يستطع احد من أسلافه تحقيقه .

لقد كان في إمكان فيلهلم الثاني WlhelmII ملك صقلية أن يحقق ذلك ، وهو المعروف بحبه للعرب في دولته ، ولكنه ، برغم هذا ، لم يستطع أن يحقق ما حققه اليوم فريدريك الثاني بعلاقاته الشخصية وحسن كياسته . وللحال يأمر فريدريك الثاني هرمان ان يعظ الجند :

« اشكروا الله واحمدوه إذ أتمّ عليكم نعمته ، فإن إتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب . وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الارض إتمامه لا بكثرة العدد ولا بالقسوة ولا بأية وسيلة أخرى .. » وهكذا ، ومن دون أن تسيل قطرة دم واحدة ، حقق فريدريك الثاني ما

عجزت عن تحقيقه الحروب الصليبية جميعاً ، فأصبحت المدن المقدسة المسيحية – بيت المقدس ، بيت لحم ، الناصرة – مدناً حرة ، كما غدا طريق الحجاج من الساحل عَبر الجليل وصيدا ويافا وعكا طريقاً مسلوكاً حراً ؛ وبقي بيت المقدس الذي يضم أماكن مقدسة للمسلمين أيضاً مدينة مقدسة لأبناء الديانتين على السواء. أوَ لم يقل صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد :

« إن بيت المقدس مدينة مقدسة بالنسبة إلينا ، ونحن نقدسها أكثر منكم لأنه منها بدأ الرسول إسراءه ليلاً الى السماء ، وهناك اجتمع الملائكة من حوله؟» لذلك وجب أن يحتفظ المسلمون بقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وسمح للمسلمين بزيارة بيت لحم المسيحية ، وفُرض على الحجاج جميعاً ، مسلمين ومسيحيين – أن يراعوا مشاعر بعضهم بعضاً ، فكانوا يتمتعون بالحقوق نفسها في طريقهم لأداء فرائض العبادة لله ، لا فرق بين مسلم ومسيحي .. إن مثل تلك الافكار والآراء كانت ، بالقياس الى العرب ، اموراً متفقاً عليها وتُعتبر أوضاعاً طبيعية لا بُدّ منها ؛ أما بالقياس إلى الغرب ، فقد كانت بداية عصر جديد ، فارتفعت أصوات – سُمعت لأول مرة – تدعو إلى نبذ القوة في شؤون الدين وتحرّم إبادة الكفار – المخالفين في العقيدة – . ارتفعت من أفواه فولغرام فون اشنباخ Wolfram Von Ischenbach ، وروجر باكون Roger Bacon ، والملك ألفونس العاشر Alfons X ، كذلك اظهر فرسان التروبادور Troubadour ارتياحهم الشديد للاتفاق الذي وصل اليه القيصر ، وأطلقوا عليه لقب : « طبيب الغرب الماهر . »

والواقع ، أن هذا الاتفاق كان يناقض مناقضة تامة عقلية الحروب الصليبية التي كانت الكنيسة ترى في رعايتها واجباً عليها ، بدليل أن ما ردّ به رسول القصر ، فيما بعد ، على اتهام البابا ، برهنه فريدريك الثاني في بيت المقدس على مرأىً من العالم كله ، وأثبتت سياسته البعيدة النظر حصافة رأيه : «إن صداقته مع الملوك والأمراء العرب قد حقنت دماء المسيحيين وحفظتها من الهدر من غير

مبرر » ... لقد كان مجرد دخول القيصر في مفاوضات مع «الكفار» ، وسماحه لغير المسيحيين بالصلاة في بيت المقدس ، كافيين لوصمه بالخيانة والعار ، فهو ابن الشيطان ، وخارج عن المسيحية ، وجهنم هي مصيره ... وعلى الرغم من أن الذي حققه فريدريك الثاني الخارج على الكنيسة باتفاقه مع السلطان الكامل كان أنجح مما حققته الحروب الصليبية كلها ، فإن أعداءه لم يتركوا فرصة للعمل ضده إلا واستغلوها . فقد أرسل رئيس فرسان المعبد سراً برسالة الى الكامل — يبدو أنها بإيحاء من البابا غريغوريوس التاسع GregorIX ، يخبره فيها بأنهم — أي الفرسان — قد علموا ان القيصر سيخرج ، بصحبة نفر من أتباعه في ساعة معينة ، من بيت المقدس إلى مكان معيّن من ضفة نهر الاردن الشمالية للصلاة ... وهم يدعون السلطان لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالقيصر وقتله ... واشمأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان ، فأرسل إلى القيصر نفسه هذا الخطاب المختوم بختم رئيس فرسان المعبد .

إن الكنيسة لم تكن لتدع وسيلة من الوسائل إلا وتستعملها لتحطم بها نجاح فريدريك الثاني الذي أحرزه قسراً عنها . ومن امثلة هذه الوسائل ، أن فريدريك عندما وقف أمام أبواب يافا في طريقه الى بيت المقدس ليتسلّم من يد مندوب السلطان مفاتيح المدينة . أصدر أسقف قيصرية حرمان بيت المقدس من الكنيسة ؛ فتوقفت قراءة الصلوات في الكنائس ، وامتنع كثير من الكهنة عن اداء المراسم الكنسية ، وحُرّض الجيش على العصيان ، وقذف القيصر وفرسانه بالقاذورات .

لقد أتيحت فرصة وجيزة من تاريخ البشرية توحّد فيها الشرق مع الغرب على أساس من الصداقة والثقة والاحترام المتبادل ، مما أغضب الكنيسة منذ اللحظات الأولى ، فوقفت في طريقه بكل ما اوتيت من قوة . كذلك ، فإن الكامل ما كان ليسلم من هجوم أعنف واتهام بالخيانة ، ذلك أن المسلمين لم يكونوا قد نسوا ما فعله المسيحيون بسكان بيت المقدس يوم شقّ الصليبيون الأولون

طريقهم في بركة الدماء ، فلم يكن المسلمون ليرضوا بما عقده الكامل من اتفاق مع المسيحيين .

وبهذا بقي للقيصر واجب إعداد الفكر والدولة لتحقيق مثل تلك الأفكار التي لم تكن السياسة قادرة على تحقيقها ، فكان من واجبه أن يشق للغرب طريقاً جديداً ، أو أن يشق طريقاً لغرب جديد .

الفصل الثالث

«سلطان» لوسيرا

« أول إنسان عصري يتسنّم العرش» .

بهذه الكلمات قدّم « يعقوب بوركهاردت » Jacob Burckhardt فردريك الثاني كأول ملك متحرر من التقاليد وكأول حلقة لسلسلة من امراء النهضة .

ولكن هذا التعريف يبدو موضع تساؤل . ففردريك الثاني يشبه في أعماله وشخصيته عظماء حكام العرب ، أمثال المأمون ، أكثر من شبهه لأيّ أمير آخر من أمراء النهضة . ثم ان سلطان مصر وملك صقلية يتشابهان تشابه أوراق الشجرة الواحدة في العادات والمزاج وطرق المعيشة والتعامل مع الناس ، وفي حبهما لحرية الفكر وتقديسهما للعلم والبحث في نظمهما الإدارية والمالية ، كما يتشابهان تماماً في كرههما لإراقة الدماء .

ولم يكن فردريك متحرراً لدرجة الإلحاد ، بل العكس هو الصواب . لقد كان مسيحياً يشعر انه أكثر تديناً من الجالسين على كرسي البابوية « تلك الذئاب التي تتستر بثوب الحمل .. أولئك الذين لا يريدون أن يتركوا الأرض تنعم بالسلام ، والذين يبتزون أموال المسيحية وينغمسون في الثراء الذي سيقضي عليهم . »

لقد كان فريدريك متأثراً بالعصور الوسطى ايضاً وإن اختلف عن قرنائه في

الغرب بأنه قد تأثر بكل ما هو عربي مثالي .

وكان لهذا التأثير العربي الذي قامت على اساسه دولة اجداده في صقلية اكبر الأثر في تكوين شخصيته ، ويحكي عنه ابو الفداء قائلا :

لقد رأيت تلك البلاد عندما سافرت الى إنبراطورها كسفير للملك . والانبراطور كان احد ملوك الفرنجة الكرماء ، يهتم كثيراً بالفلسفة والمنطق والطب ، ويحب المسلمين لأنه تربى في جزيرة صقلية حيث اغلبية الشعب من المسلمين » .

ولو ان العم فيليب حمل الطفل الصغير فريدريك الذي لم يتجاوز الثالثه من عمره الى وطنه المانية ، تحقيقاً لرغبة والده قبل وفاته ، لتلقى فريدريك الصغير تربية اكثر عمقاً ، ولتولاه ـ كوارث مُقبل للعرش ـ معلمٌ يربيه تربية ارستقراطية ويعلمه القراءة والكتابة والحساب واللغة اللاتينية ، ولكان فريدريك قد بحث لنفسه عن طريق اخرى لثقافته . ففي القصور الالمانية كانت ستُرسم له تربية وعناية خاصة . ولما وجد احد سبباً يردع من اجله الفتى ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، مثلا عن سوء سلوكه .

هل ينتظر الانسان من فريدريك في طفولته التي لم يرعه فيها احد أن يفعل غير ما تعود أن يفعله من التسكع في الأزقة وحانات الميناء والبحث عن المعرفة في المساجد والأسواق ، وأن يمتزج بذلك الخليط العجيب من سكان بالرمو وان يقضي اوقات فراغه بين الطيور والحيوانات ، وان يتخذ اصدقاءه من بين هؤلاء الناس الذين اعجبوه والذين يجد نفسه منجذباً إليهم .؟

لقد مات والده الذي أراد أن يصحبه معه الى المانية ، فتربى الطفل في قصر الملك روجر الذي بناه له العمال العرب وزينوه بالنقوش العربية وأثثوه على الطراز العربي وعاشوا فيه حاشية وخداماً للملك ، فارتسمت في عقل الفتى الصغير صورة الحياة العربية الجميلة ممتزجة بخرير مياه النافورات ، وحددت أوقات يومه اصوات المؤذنين من فوق مآذن المساجد .

وما إن ماتت أمّه ابنة الملك روجر الثاني بعد وفاة ابيه بمدة وجيزة حتى بدأت الأزمات تحيط بالطفل . فقد حل بالبلاد القحط وهـو في السادسة من عمره ، وتلقف سراة القوم من العرب الطفل فآووه بالتناوب هذا يطعمه اسبوعاً والآخر شهراً حتى صار الطفل في السابعة من عمره . أمّا عن تربيته وتعليمه فقد اخذت الحياة نفسها بيد الملك الطفل تقوده في دروبها . ففي ميادين بالرمو ومساجدها وكنائسها ، وفي أسواقها وحوانيتها وشوارعها تعلّم فريدريك كل لغات اهلها المختلفة وعاداتهم ودياناتهم .

واصبح الفتى يتكلم تسع لغات ويجيد العربية كما لو كانت لغته الأم . كما تمرّن على فن المناقشة والجدل في الأمور الدينية والفلسفية ، ومنحه قاضي المدينة فرصة الاشتراك في الدروس وقدم له عدداً من الكتب العربيـة في العلوم والمعارف المختلفة « ليستنشق عبيرها العطري » على حدّ قوله هو بأسلوبه العربي .

إلا أن تربيته هذه بتلك الوسائل غـير المألوفة في تنشئة الملوك وإن كانت لا تمت بصلة إلى ما كان يرجوه له والده من تربية مثالية أثمرت كما يبيّن تقرير كتب عنه وهو في الثالثة عشرة . « إنه لا يقبل أيّ نصح يسدى إليه لمنعه من الخروج الى الجماهير ولكن عمره العقلي يسبق عمره الزمني لدرجـة أنه بالرغم من صغر سنه كثير المعرفة يفهم ويدرك كرجل : فالسنون والعمر لا قيمة لها في نضج هـذا الفتى . فهو الآن بمعارفه رجل وبقدراته حاكم » .

إنّ صور الطفولة وانطباعاتها تشكل اتجاهات الفكر والعقل ، وقد أثرت تلك الظروف التي عاشها فريدريك في طفولته على شخصيته واتجاهاته طول حياته . تلك الاتجاهات التي برزت فيها صورة حية لاسلافه من النورمان ودولتهم التي رعت الثقافات وكفلت لها الضمانات اللازمة لازدهارها . ومن هنا كان احترام فريدريك لكل الديانات والعادات . إلا أن هذا لا يعني اعترافه بالهراطقة ، فقد رأى فيهم محطّمين للنظم والحضارات . وكان تقديره للفكر العربي هو أساس

نظرته للعالم التي رفعته عن بقية معاصريه وأسلافه ودفعت به لحب كل ما هو عربي وتقديره .

ولم يخلُ هذا الحب من شوائب عكّرت صفوه . فعند احتلال النورمان لصقلية ، وتبعاً لما حدث أحياناً من اضطهادات للعرب ، لجأت جماعات منهم الى الجبال المجاورة واعتصمت فيها معلنة عصيانها وعدم رضوخها لهذا الحكم الأجنبي وقد سبّب هؤلاء للملك الشاب متاعب عدّة فكثيراً ما أغاروا على الجزيرة . وكان على الملك الصقلي أن يحاربهم سنوات عدة ليوقف شغبهم المتزايد . وأجبرهم الجوع ذات يوم على الاستسلام لفريدريك . وانتظر خمسة وعشرون ألفاً من العرب في معتقلاته ، حكمه عليهم بالإعدام .

ولكن فريدريك كان يعرف العرب تمام المعرفة ، ولقد تعلّم من موت أميرهم الذي قتله أثناء الحرب أنّ المُصَمّمَ على الانتقام لا يكسب المعركة وأن النصر الحقيقي يناله مَن يعفو ويتسامح ، لا من يتشفّى من المنهزمين . والعربي يعفو عند المقدرة ويعطي المنهزم مثل ما له من حقوق ، وهو لا ينسى معروفاً أسدي اليه بل إنه يردّ الجميل أضعافاً .

دعا فريدريك كلّ هذا لإطلاق سراحهم بدلاً من إعدامهم وضمن لهم حرية ممارسة عقائدهم الدينية وأحلّهم قرب فوجيا Foggia مدينته المحببة .

وهكذا قامت في حدود انبراطوريته في ايطاليا مستعمرات عسكرية إسلامية في جيروفالكو ولوسيرا Girofalco و Lucera حيث عاشت آلاف العائلات الإسلامية شبه مستقلة ، لها إدارتها الخاصة وحاكمها العربي بمستشفياتها ومدارسها وحماماتها ومكتباتها . وتزايد عدد العائلات الى ثلاثين الف عائلة ثم إلى خمسة وثلاثين الف عائلة أسبغ عليهم حبه ورعايته .

ويشعر العرب بفضل فريدريك عليهم ويجعلون لوسيرا Lucera حماة للقيصر ، ولو بذلوا في سبيل ذلك حياتهم عرفاناً منهم بالجميل . ومن بين صفوفهم المدرّبة

على القتال اختار فريدريك حرسه الخـــاص ، كما كون منهم للقتال فرقة من ثلاثين الف محارب تأتمر بأمره ولا تهزها كلمات البابا الموجهــة الى فريدريك .

ويتفانى العرب في الإخلاص لفريدريك فلا يتركونه في أي من معاركه ضد اعداء دولته. ويزداد فريدريك ثقة بهم فيعهد لثقاته منهم بكنوز دولته لحراستها. ويعطيهم سلطة الإشراف على قصوره وكل ممتلكات بلاطه . وولاهم على المصانع التي تنتج حاجيات قصوره ودولته من أقواس وسهام ودروع وملابس للفرسان ولجم وسروج للخيل والجمال ، فضلاً عن الخيـــام والسجاد والستائر والوسائد المذهبة والمراتب الحريرية . فأدار العرب كل ذلك بكفـــاية تامة كانت موضع إعجابه الدائم .

وفي الحجرات الملكية في لوسيرا Lucera ومسينا Messina وغيرها طرز العمال المهرة الستائر الحريرية بالذهب، وأعدوا سروج الخيل والجمال للقيصر نفسه وجلست الفتيات ينسجن الحرائر والأصواف والأقطان تحت إشراف خصيان القصر الخبراء بتلك الفنون .

ولم يسلم القيصر من همسات تردّدت عن علاقاته الغرامية بالفتيات الجميلات .

واذا كان فريدريك دائم الخروج فوق حصانه العربي مصحوباً بالنياق والجمال ، التي كانت دوماً تحمل أجزاء من مكتبته ، وبالأفيال والقردة والفهود ، تحرسه جماعات من العرب بملابسهم الزاهية ومن الحبشة ببشرتهم السمراء متبوعاً دائماً بحرّاسه من رماة السهام وبعدد ضخم من الأتباع والتابعات المحجبات فقد أعطى بذلك للناس مادة خصبة للتقوّل عليه والاعتقاد بأن للقيصر من اولئك النسوة اللائي لا يتركنه أبداً ، حريماً يغصّ بالفتيات الجميـــلات حيث ينعم القيصر في خدورهن بوقت ممتع .

أمّا اذا كان هذه الاتهامات الموجهة لفريدريك ، والتي قدّمها البابا باكيا

للمجمع المقدس نصيب من الصحة أمْ لا ، فهذا ما لا نستطيع الإجابة عليه إلا بمثل ما أجاب به رسول القيصر على البابا في ليون أمامَ مجمع الكنيسة بقوله «مَنْ غيرُ فريدريك نفسه يستطيع أنْ يُثبت هذا ؟» فارتسمت يومذاك الإجابة على الافواه كما ترتسم الآن على شفاهنا جميعاً : « لا أحد سوى الله » .

وكان كل طفل من أبناء الأتباع في قصر القيصر بصقلية يحمل في جيبه المفتاح الذي يؤدي به مباشرة للقصر ، فأصل الشخص ومركزه ولونه وديانته لا تمثّل بالمرة ايّ دور في اختيار القيصر لرجاله ، فكلّهم أمام ناظره سواء . وكلُّ من يُظهر منهم ذكاء كان القيصر يأمر في الحال بإعداد دراسة خاصة تُنظَّم له : فيأمر بأجر شهري للمدرِّس يوا كيم ليعلِّم الخادم عبدالله القراءة والكتابة باللغة العربية . ويأمر بتعليم العبدين الصغيرين مرزوق وموزكا فنون الموسيقى فيعزفان بأبواق فضيّة صنعت خصيصاً لهما .

ويعجب القيصر يوماً بطفل عربي صغير عريض الجبهة أسمر العينين كان ابناً لأحد عبيده من البربر القادمين من مراكش فيقلّده وظيفة هامة . ويتسلق العبد برعاية فريدريك سلّم وظائف الدولة بمهارة ويشتهر ذلك الرجل باسم المورو Il Moro ويعرفه التاريخ باسم يوحنا موروس Johannes Morus ويعينه فريدريك حارساً خاصاً لغرفته ثم مستشاراً للبلاط ، تماماً كما فعل روجر الثاني بجورج الانطاكي ، ثم يكافئه على خدماته العديدة بمنحه لقب البارون وإهدائه ضيعة واسعة .

وفي حكم الملك كونراد Konrad عيّن المورو حاكماً لمدينة لوسيرا Lucera التي ولد فيها، ثم أصبح كبيراً لأمناء ملك صقلية ولكنّ هذا الصعود من عبد حقير الشأن الى منصب كبير أمناء الملك أودى بحياة صاحبه عند ما وشى بالملك مانفريد لدى البابا ، فما كان من المواطنين العرب لشدة حبهم لهذا الملك وأسرته ، باعتبارهم حماة لهم ، إلا ان قتلوا ابن جنسهم جزاء لوشايته .

ونال مثل تلك الحظوة بل جاوزها في البلاط الصقليّ عربي آخر هو ريتشارد . وكان ريتشارد من خيرة المتعلمين الذين عملوا بالقضاء ووصل في ارتقائه لمناصب الدولة لا إلى منصب كبير أمناء الملك فحسب بل إنه أصبح مستشاراً للدولة مدة عشرين عاماً . فمنذ عام ١٢١٢ م وقف الى جوار الملك الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة بعد ، يخدمه بإخلاص ويركب معه الى المانية ليحصل على ميراث أبيه ولا يتركه في أية رحلة من رحلاته أو حملة من حملاته الحربية . وبعد عودة القيصر من المانية عام ١٢٢٠ م تولّى ريتشارد منصب كبير الأمناء ، وفي الوقت نفسه تسلّم منصب كبير الموظفين ثم منصب مستشار الدولة .

وقد كافأه الملك بإقطاعه مساحات واسعة من الأراضي . وقد ظل ريتشارد يشغل تلك المناصب حتى وفاته عام ١٢٣٩ م . ليخلفه من بعده في منصب كبير الأمناء ، المورو .

ولقد صاحب ريتشارد فريدريك حتى في الحروب الصليبية . ولم يكن ريتشارد هو الوحيد في ركب القيصر الذي ينتمي للكفّار الذين على حد تعبير وعّاظ الحروب الصليبية يدنسون قدسية بيت المقدس بسيطرتهم على الأماكن المقدسة .

أكان في نية فريدريك وهو المحب المسلمين أن يترك جنده العرب القادمين معه الى عكا يرسلون بسهامهم الى صدور اخوانهم المسلمين من جند السلطان ؟ إنْ لم يكن هذا في نيته فلماذا قدم بهم إذن ؟ أهي لعبة سياسية ماكرة ؟ أمْ انه اراد انْ يقوم بدور الأمير الشرقي وسط امراء الشرق ؟

الحقيقة ان هذه الرحلة الى الأرض المقدسة لم تكن بالمرة موجهة عن دافع ديني . لقد كانت كما صرح هو لخلصائه من العرب ، رحلة ذات طابع سياسي .

وهي في معناها العميق تمسّ في الواقع ، نواحي حساسة من شخصيته. لقد قدم الى عالم يكنّ له هو نفسه كل احترام وتقدير بل ويشعر نحوه بعاطفة تجذبه وبشعور من الامتنان عميق .

ولم تكن السياسة وحدها هي التي دفعته الى القدوم وإلى تبادل الهدايا . إنما هي نزعة دفينة كانت تدفع بفريدريك إلى مسالمة مسلمي الشرق ، ومشاركتهم مجدهم وعاداتهم . فعندما زار القيصر بيت المقدس امر السلطان الكامل من قبل المجاملة لضيفه المسيحي ومراعاة لمشاعره بألاّ يؤذن المؤذنون للصلاة من فوق المآذن طوال زيارة القيصر لبيت المقدس . ويلاحظ فريدريك أثناء زيارته ذلك فيلتفت الى القاضي شمس الدين الذي ناب عن الكامل في الترحيب به ومرافقته طوال زيارته ويسأله « لماذا لم يؤذّن المؤذنون للصلاة ؟ وجاءه رد شمس الدين : « إننا نعرف يا سيدي كيف نحترم زيارتك » . ولكن فريدريك صديق العرب اجابه : « إنّه لمن الخطأ أنْ تغيّروا عاداتكم اليومية بسببي . وحتى لو كنتم تسكنون في بلادي لما احتجتم أن تفعلوا هذا. إنّه ليسعدني جداً أن أسمع صوت المؤذّن يرتّل أذان العشاء ».

لقد كانت هذه الرحلة لقاء بين ذكريات طبعت في ذهن القيصر منذ طفولته وبين صور من الحاضر يراها فريدريك بعين فاحصة ويستمع لهمساتها بأذن واعية لتحتل في الغد القريب في وطنه مكانها .

وبقي فريدريك في بيت المقدس يومين فقط، فقد ورغم هذا انتهز الفرصة لزيارة قبة الصخرة ثاني الأماكن المقدسة مكانة عند المسلمين بعد الكعبة ، تماماً كما فعل جدّه روجر الثاني الذي رأى ودرس كخبير كلّ ما شاهده في الكنائس والقصور . ويصف القاضي شمس الدين زيارة فريدريك لقبة الصخرة قائلاً : لقد راى كل شيء بمنتهى الدقة، فشاهد المسجد اولاً عن بعد ، وابدى إعجابه بعظمته، ثمّ فحص بنفسه البناء المؤسّس على الصخر ، وابدى إعجابه بالمبنى عامة وبالمنبر

خاصة . وعندما خرجنا أحاطني بصداقة وبشاشة بذراعه .

وكانت خبرة فريدريك هذه بالمشرق ، بالاضافة إلى ما ورثه عن طفولته وأسلافه النورمانيين من حب العرب وتقديرهم . هي العوامل التي رسمت لفريدريك طريقه في الحياة .

الفصل الرابع

« لقد بني على أساس عربي »

على أنّ جميع المؤثّرات الأخرى من إغريقية وبيزنطية ورومانية لم يكن لها في تشكيل اتجاهات ذلك القيصر مثل ما كان لتأثير ميراث النورمان وانطباعات الطفولة وأثر تلك الخبرات التي عاشها في الشرق . وبهذا تتحدث الابنية العديدة التي شيّدها سيد البناء فريدريك الثاني في كل انحـاء صقلية ، والتي زاد عددها على المائتي قلعة تعبّر كلها عن قوة جديدة تهدف إلى التوحيد بين مختلف الحضارات. تستلفت الأنظار فيها بواباتها القديمة وتماثيلها وسقوفها ودقّة فسيفسائها البيزنطية وارتفاع قبابها . ولكن الأساس الأصيل لفن بناء كل تلك القلاع والحصون بقي برغم كل هذا ، عربياً .

وقلاع العالم الاندوجرمانية indogermanisch كانت تبنى كقاعدة عامة على هيئة مساكن دائرية الشكل ، تستخدم كسكن خاص للنبيل وعائلته فقط . وكانت تقام فوق تل أو رأس جبل ، وحول البرج الاصلي يلتف على شكل دائري ، سياج خشبي ، فَحُفَرٌ فاستحكامات.

أما القلاع العربية فكانت تبنى على خلاف هذا . فمنذ الجاهلية الأولى قامت في جنوبي بلاد العرب حركة فروسية اقطاعية ازدهر معها فن بناء القلاع . ولقد دامت قلاعهم التي بنوها من الاحجار الضخمة المتلاصقة بمعدن منصهر عـدة

قرون . ولم تكن تسودها الأشكال الدائرة بل سادت هنا الزوايا القائمة والمربعات .

وأقام سادة اليمن وحضرموت فوق رمال الصحراء قلاعاً ضخمة من الحجر المربع شاهقة الارتفاع بلغ عرض حيطانها خمسة أمتار . ويحمي كلاً من جوانبها الأربعة برج هائل بينما تقوم في أسوارها عدة أبواب يحمي كل باب منها برج . وكانت القبيلة وجمالها وخرافها تجد في وقت الحرب في القلعة لها ملجأ .

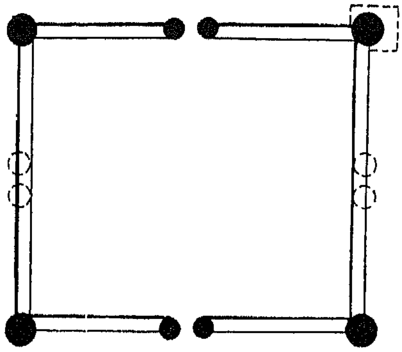

الشكل العربي المربع في البناء

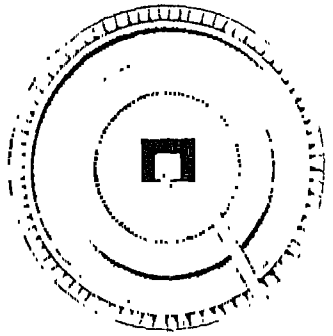

الشكل الغربي المستدير

وفي القرن الرابع الميلادي نقلت شبه الجزيرة العربية عن الجنوب فن بناء القلاع واخذته عنها بيزنطة . وترجع قلعة « قصر الحير » في سورية بسورها الذي يبلغ طوله ٧٠ متراً وزواياها القائمة وبروجها ذات الأوجه الأربعة ، إلى القرن الخامس الميلادي .

وعلى مقربة منها بنى الخليفة الأموي هشام عام ٧٢٨ م . قلعة عظيمة بلغ طول سورها ١٧٠ متراً وارتفاعها ٢٨ متراً وفي كل ناحية باب يحميه برج . وفي حكم بانيها اندفع العرب عبر البرانس يهاجمون فرنسة ويحملون معهم فكرتهم وطريقتهم في بناء القلاع التي انتشرت في اسبانية والبرتغال ، ومنها الى بقية اجزاء اوروبة لتزيح من طريقها ذلك النظام القديم الذي ألفه الغرب .

وقد تعلمت فروسية الغرب، خاصة في فرنسه وانجلترا، كثيرا عن عرب إسبانية كما أخذت الكثير عن عرب المشرق خلال الحروب الصليبية في فلسطين وسورية وإن كان عن طريق غير مباشر . وما يسمى بقلاع الصليبيين ، فإنه في الواقع ، أقدم بكثير من عصر الحروب الصليبية ، وليست هذه القلاع وليدة أفكار الفروسية الغربية كما يحلو لمؤرخي الغرب ترديد ذلك دائماً .

وكأغلب العائدين من الشرق من الانجليز والفرنسيين ، يبني أيضاً فريدريك الثاني قلاعه على الطراز العربي ، كأنه أعاد بناء ما تهدم من القلاع القديمة في صقلية على النمط العربي ما أمكنه . ولم يكد يرجع من بيت المقدس حتى وضع خطة بناء جديدة يشيد بمقتضاها شبكة محكمة من القلاع والحصون في جميع أنحاء مملكته تساعده على حماية البلاد من الأعداء وتسهل عليه إدارتها .

وهكذا تتشابه قلاع باري Bari وتراني Trani وبرانديزي Brandisi بقلعة كوكا Coca الاسبانية وبالباستيل الفرنسي لأنها كلها قلدت القلاع العربية .

إن التصميم ونوع الأقبية والعمد وخامات البناء والزينات في كل ما بناه فريدريك الثاني لتنطق بأثر فن البناء العربي بطريقة لا تقبل الشك . ويزيد ذلك توكيداً اسماء العمال والفنيين من العرب التي نقشت على تلك الأعمال .

وينتقل فن البناء العربي من جنوبي إيطالية ، حيث قلاع فريدريك الثاني ، إلى شمالي إيطالية ، ثم إلى المانية ليبلغ أقصى ازدهاره .

وبينما القيصر يحمي سلطة الإقطاع في المانية ويوزع الاقطاعات بسخاء على الأساقفة والنبلاء والمدن والأديرة ، نجده يفعل العكس تماماً في مملكته صقلية .

لقد أجرى في صقلية تجربة ضخمة اسّس بها في الغرب مدرسة جديدة . فبدأ يزيل رواسب الإقطاع ويبسط الإجراءات وينزل العقوبات . لقد بدأ حكماً مركزياً يحكم بموجبه حكماً مطلقاً عن طريق جهاز كبير من الموظفين أمات نظام الإقطاع ..

لم يكن ما فعله فريدريك بالحدث الفريد في التاريخ فإن نماذج لهذا الحكم المطلق قدمتها على مر السنين رومة وبيزنطة . ولكنّ ظروف تلك الفترة تجعلنا نتساءل : هل كان للعرب يد فيما حدث ؟

كما أخذ فريدريك فن البناء عن العرب وأدخله على العُمد البيزنطية والرومانية فقد أخذ عنهم كذلك أسس تكوين دولته وتنظيمها . وعلى هذه الأسس أمكنه متابعة البناء .

لقد كان عليه أن يدعم جهاز الموظفين ليستطيع السيطرة على ذلك الشعب المفكك الذي زهد في النظام وانصرف عنه. ولقد رأى فريدريك مثالاً عملياً لسلطة الحاكم المطلقة في دولة الكامل . وسهراته مع الأمير فخر الدين في خيمته قرب يافا لم تكن تتناول بالحديث الموضوعات الفلسفية فحسب، بل كانت تتناول كذلك نظم الدولة وقواعد الحكم والإدارة . ومنحته خبراته مع العرب إيماناً عميقاً بأن تنظيماتهم الإدارية في بلدانهم هي سرُّ قوتهم فعوّل على أن ينهج نهجهم .

لقد أخذ روجر الأول عن العرب نظم إدارتهم ودواوينهم ونظام بيت المال والضرائب والمكوس وغيرها من أعمال الموظفين والوظائف . أخذ عنهم نظام الضرائب بتوزيعها المباشر وغير المباشر وطرق حصر الأملاك الاميرية وإدارتها . بل لقد أخذ عنهم نظم جيشهم وقيادتهم البرية والبحرية ونظام الشرطة عندهم .

وقد كلّفت حروب فريدريك الثاني ضد الثائرين عليه ، كما كلفته الحروب الصليبية وصراعه مع البابا الكثير من المال . ولولا اتّباعه لنظام الضرائب العربي لما استطاع أن يحصل على تلك الأموال . فكان موظفوه يتبعون ما كان متبعاً في البلدان العربية . ففي كل عام يمرُّ جباة الضرائب مع رجال المساحة يقدرون الضرائب على الأرض تبعاً لمساحتها وخصوبتها . كما فرض فريدريك على اليهود والمسلمين من سكان صقلية ضريبة الرأس التي كانت تتفاوت تبعاً لحالة الأفراد من

غنى أو فقر ، تماماً كما فرضها المسلمون في البلدان المفتوحة على من لم يدخل في الإسلام وبقي على دينه . وعمت في صقلية ضرائب العرب غير المباشرة على الاستهلاك والبضائع الكمالية كما ظهرت الاحتكارات والمكوس . فامتلاك الدولة للمعادن الخام المستخرجة واحتكارها لأنواع معينة من التجارة ، كالحرير مثلاً كان حقاً من حقوق الدولة العربية منذ القرن العاشر . ولقد تعلم فريدريك كل ذلك أثناء إقامته في الشرق ، ولم يكد يعود إلى بلاده حتى بدأت دولته في احتكار الملح والمعادن الخام والقطران والقنّب والكتان وتجارة الحرير وصباغته ، وجعل الدولة تشرف على تجارة القمح .

وأصبح نظام الضرائب والمكوس في دولة فريدريك الثاني مثالاً للغرب يحتذيه . صحيح أن النورمان قد أخذوا ذلك عن رعاياهم العرب ، ولكن فريدريك نظّم كلّ شيء وقننه فبدلاً من نظام المكوس الداخلية المليء بالثغرات الذي كانت تفرضه كل اقطاعية تبعاً لمشيئتها وقوتها ، أصبح هناك نظام الجمارك على الحدود فقط . ففي كل الموانىء وفي كل منافذ الحدود أنشأ فريدريك بيوتاً حكومية على نمط الفنادق العربية ، وبالاسم العربي نفسه ، وجعلها تخدم المسافرين والتجار وتعدّ لهم مبيتهم . وكان على المسافرين أن يقدموا ما يحملونه من البضائع لموظفي الجمارك في تلك الفنادق فتوزن وتقدر عليها المكوس تبعاً لقيمتها ووزنها .

وفي هذه الفنادق الحكومية كان من الممكن للتجار أن يتبادلوا العملة وأن ينالوا قسطاً من الراحة ويغتسلوا من غبار السفر ، وأخذت البندقية والمدن الايطالية الاوربية تتسابق في تقديم وسائل الراحة للمسافرين فخورة بذلك . وبدأت المدن الاوروبية الاخرى تقلّد ما حدث في المدن الايطالية وصقلية . وانتقلت الفكرة إلى المانية عن طريق المسافرين والفرسان ، وحملت معها تعبيراتها العربية لتصبح كلمات المانية مثل :

فندق Fondaco ومخزن Magazin وترسانة أو مخزن عسكري Arsenal

وديوان Duane وجباية Gabelle والعواري بمعنى عطل في بضائع المراكب Havarie وقابل سلك أو حبل سميك Kabel ومخاطرة Mohatra و Risiko بمعنى مغامرة و Scheck أي صك و Sterling استرليني و Tara بمعنى طرحة و Tarif بمعنى تعريفة وغيرها .

وبرغم أنه كان قد مضى على استيلاء الاوروبيين على صقلية العربية مائة وخمسون عاماً ، فإن العرب كانوا يسيطرون على أهمّ وظائف الدولة المالية التي كانت بالنسبة إلى فريدريك الثاني خلال حروبه ، مسألة حياة أو موت . فبين يدي ريتشارد العربي كانت تصب نقود الضرائب ودخل الدولة ليوزعه على الأبواب المختلفة ، وعلى الجنود والضباط والموظفين ومرافق الدولة والخدمات .

وأصبحت اللغة العربية لغة سجلات الدولة أو الدواوين كما كانوا يسمونها . وكان أغلب صغار الموظفين كذلك من العرب . ويحدث في عام ١٢٤٤ م . أن مقاطعة عجزت عن دفع ما عليها من ضرائب فيغضب القيصر ولا يرى حلاً للمشكلة إلا أن يطرد الموظف المسؤول في المقاطعة وأن يُحلّ محله موظفاً عربياً .

ومن كبار الموظفين في صقلية اشتهر أيضاً ابن عبدالرحمن الذي كان مديراً للضرائب ثم صار رئيساً لمالية صقلية كلها . وقد أتيحت لمثل هذا الموظف الماهر مجالات في السياسة واسعة ، فسافر كمبعوث للقيصر إلى اسبانية ومراكش ، وسافر مرة أخرى في مفاوضات اقتصادية مع سلطان تونس نال بعدها من خزانة الدولة ٣/٤ ٤٣ أوقية من الذهب . وكان يُصرّ على توقيع جميع الاتفاقات والوثائق باللغة العربية كبقية كبار الموظفين العرب . ولم تشمل تلك الحركة الناهضة الموظفين فحسب ، بل شملت كذلك كثيراً من مرافق الحياة فاهتم بزراعة المحاصيل العربية كالحناء والنيلة وقصب السكر ، وراقبت الدولة التجار والمقاييس والموازين وأشرفت على الحوانيت والمواد التموينية ونظافتها ، وأولت عناية خاصة للمسالخ التي كانت تقع ، تبعاً لما تعارف عليه الشرق ،

خارج المدينة .

وأشرفت الدولة كذلك على العمال والمصارف بل وعلى الأطباء والصيادلة الذين وضعت لهم مناهج خاصة للدراسة . « ولما كانت دراسة الطب لا يمكن إجادتها ما لم يكن الطالب على علم سابق بالمنطق لذلك نأمر : ألا يُسمح لأحد بدراسة الطب ما لم يكن قد درس المنطق لمدة ثلاث سنوات » وبعد دراسة ، مدتها خمس سنوات في الطب والجراحة والتشريح ، يؤدي الدارس امتحانين أحدهما امام الكلية التي تعلم فيها والآخر أمام القيصر أو من ينوب عنه ، ثم يطلب منه أن يؤدي تمرينه لمدة خمسة أعوام أخرى ، وحينئذ فقط ، يسمح له بممارسة مهنة الطب . أما الجرّاح صاحب المسؤولية الطبية الكبيرة فلا بُدّ له من أن يثبت كفايته في تشريح الجسم البشري وإلمامه بفروع الطب اللازمة له لإجراء العمليات الجراحية بنجاح ، ولمعالجة المرضى بعد العمليات حتى تمام شفائهم . كذلك قل في الإلمام باستعمال وسائل التخدير التي نقلها لهم عن العرب هوجر فون لوكا .

كما وُجدت لوائح تنظم عدد زيارات الطبيب في اليوم وأجره والعلاج المجاني للفقراء وكذلك علاقة الطبيب بالصيدلي الذي يشرف عليه ويراقبه الشرطي المختص بالشؤون الصحية .

ويحذو فريدريك في كل هذا الرقي بفن العلاج حذو العرب كما فعل جده روجر الثاني الذي وضع اول قانون لمهنة الطب . وفريدريك يبلور كل ذلك في قوانينه وتنظيمه للمهنة والعلاج فيقدم للغرب خدمة كبرى .

وكما كانت الحال في البلدان العربية ، فقد نظم فريدريك شرطة مراقبة خاصة لتشرف على الأعمال التجارية ، وأخرى لتشرف على الشؤون الصحية للمواطنين فأصبح إنشاء الحمامات العامة ينظر اليه بنفس الأهمية التي ينظر بها إلى إنشاء المدارس ودور الكتب . وكان من الطبيعي أن تصبح لوسيرا Lucera أكثر

مدينة في أوروبة نظافة .

وكان من الطبيعي أيضاً ألاّ ينشىء القيصر أياً من قصوره دون أن يزوده بالحمامات والمياه الجارية. وكان هذا المسلك من القيصر موضع انتقاد من معاصريه الذين لم يتعودوا تلك الرفاهية ، والذين اعتبروا الحمام رذيلة لأنه اهتمام زائد بالجسد .

ولم يكن من المستغرب أن يهتم القيصر ، الذي تعلم من الشعب على اختلاف طبقاته ، بتعليم هذا الشعب وتثقيفه ، وان يكرّس جهد دولته منذ البداية على النهوض به ، وأن يرسم لتلك النهضة خطوطاً عريضة متحررة من كل السلطات الدينية آنذاك تتسم بطبيعتها وملامحها الخاصة بها .

ولإعداد الموظفين لتلك الدولة ، وجب عليه أن يُعد لهم تعليماً عالياً يؤهلهم لتحمل تبعاتهم ، وكان أن أنشأ لهذا الغرض جامعة نابولي لتعدهم وتحمسهم للحق والعدل ، واهتم اهتماماً شديداً بتثقيفهم ثقافة عالية في كل الفروع العلمية ، وكان القيصر نفسه اكثر علماء صقلية بل والغرب كله علماً واطلاعاً .

الفصل الخامس

أحاديث عبر الحدود

وفي خلال حياة فريدريك الثاني التي دامت ستة وخمسين عاماً ، باشر النفوذ العربي من مختلف مصادره الثقافية والفكرية تأثيره على دولته حيث وجد جوّاً فكرياً مهيّأً لتقبله ورعايته . وإذا كانت أوروبة قد نظرت الى تلك النهضة القادمة اليها عبر إسبانية وصقلية نظرة الإعجاب حيناً فإنها نظرت اليها نظرة الشك أحياناً . لكنها على أية حال ، لم تقف منها موقفاً سلبياً ، خاصة بعد ان قدّم فريدريك في دولته نموذجاً لمدى ما يمكن أن تحقّقه تلك النهضة الجديدة من رفاهية وازدهار للشعوب .

وحفل بلاط القيصر بعدد وافر من العلماء أمثال ميخائيل سكوتوس « الاسكتلندي Michael Scotus » الذي تعلم في طليطلة باسبانية وساهم في الترجمات العربية اللاتينية . وكان هذا وحده أكبر مؤهل يمكن أن يقدمه للقيصر ليلقى منه كل محبة وترحيب . وبرغم سعة اطلاعه ، فقد ذهل عندما ناقش القيصر في بعض المسائل العلمية والفكرية فلم يتمالك إلا أن يقول له : « سيدي القيصر ، لئن وجد بين البشر إنسان يستطيع أن يواجه كل صعب حتى الموت بكثرة علمه ، فلن يكون هذا الإنسان سوى فريدريك الثاني »

ولقد ترجم ميخائيل عن ابن سينا كتاب الحيوان ، كما ترجم عن ابن رشد شروحه لفلسفة أرسطاطاليس. تلك الذخائر التي هزت العالمين المسيحي والإسلامي.

وكان ابن رشد قاضياً وطبيباً وفيلسوفاً قرطبياً وقد مات عن اثنين وسبعين عاماً في بلاط ملك مراكش في نفس العام الذي تسلّم فيه فريدريك الثاني ، وهو بعد في الرابعة من عمره ، تاج الملك في بالرمو .

وابن رشد هو القائل ان الحركة خالدة ، ولكل حركة سبب . وانه لا زمن بلا حركة . وإننا لا يمكن ان نتصور أن للحركة بداية او نهاية ...

ويقدّس هذا الفيلسوف القرطبي ارسطاطاليس ، ويرى انه ابو الفلسفة كلها ، وان المرء يحتاج فقط الى ضرورة تفهمه .

ويرى ابن رشد ، على عكس ما اعتقد المسيحيون ، ان وجود المعرفة وتجسيمها قبل الرسول بمئات السنين وقبل نزول كلمات الله لا يمنع بالمرة تفسيرها ولا يتعارض مع العقيدة الدينية . كما يرى العربي التقدمي ان الخلق من العدم خرافة ، وان العالم خالد خلقه الله وهو المنظم والمدبر للوجود . وهذا التدبير الإلهي يضيء المعرفة في روح الانسان .

هل كان ابن رشد كافراً لا يؤمن بالله؟ ألم يعترف ابن رشد بوجود حقيقتين، حقيقة تابعة من المعرفة وحقيقة صادرة عن العقيدة الدينية؟ ألا يكون هذا إنكاراً لخلود الروح ؟

إن مَن يدّعي هذا لم يقرأ قطعاً بتروٍّ ما كتب ابن رشد . إنه يؤكد أنه ، برغم كل تباين مادي بين الفرديات فثمة دائماً جوهر روحي موحد يجمع بينها . فالجزء السلبي من الروح هو جزء من الجسد يفنى بموته لأن كل ما هو فردي زائل . اما الجزء الإيجابي الذي هو من الله وغير الذاتي ، فهو الخالد . إنه كالشمس التي تضيء كل الانحاء ، والتي هي واحدة دائماً وفي كل مكان . وهذا الجزء الإيجابي هو طريق اتصالنا بالله وهو خالد لا يموت ، خلود العالم نفسه . إنّ من لم يقرأ ابن رشد فاته ان يتعرف على الفلسفة العربية الاصيلة .

وقد أثرت هذه الأفكار على القيصر فريدريك اكبر تأثير لتجاوبها مع

ميوله ولأنها قبل كل شيء ، صادرة عن عالم لم يكن بالغريب عليه .

ومن بين من اعتنق تعاليم ابن رشد وفلسفته توما الاكويني ، وهو ابن شقيق توما الأكويني اللومباردي رسول فريدريك الى الملك الكامل ونائبه في بيت المقدس . وقد أراد توما الاكويني ان يكون كاهناً فزار جامعة نابولي وصار من كبار رجال الكنيسة واعتنق فلسفة ارسطاطاليس ومتبنيها ابن رشد بل ودافع عنها . وكان من المضحك أن يصبح ابن اكبر عائلة مخلصة للقيصر المتهم بالهرطقة أباً مقدساً للكنيسة ، وأن يكنّ لأرسطاطاليس وابن رشد احتراماً كبيراً .

وما إن عرفت جامعة باريس تعاليم ابن رشد حتى تأثرت بالفلسفة العربية وطريقة البحث العلمي. فمهدت بذلك الطريق لازدهار الحضارة العربية ، وأصبح بلاط فريديك خاصة ، بعد ما ترجمه ميخائيل سكوت ، مركزاً لإشعاع الفلسفة العربية انعكست اضواؤه في كل جامعات اوروبة . كما انتشرت منه علوم الرياضيات والارقام العربية في كل انحاء الغرب بفضل مؤلفات ليوناردو البيزي صديق ميخائيل سكوت وضيف القيصر .

وكانت افكار ابن رشد ، بالنسبة الى القيصر الشغوف بالعلم والبحث ، كالغيث صادف ارضاً متعطشة . وكان وجود ميخائيل وتعمقه في العلوم العربية والإسبانية عاملاً كبيراً في زيادة اهتمام القيصر بالعلوم والابحاث العربية . ووجد القيصر في ميخائيل رفيقاً عالماً يلجأ اليه بأسئلته . ويكتب ميخائيل عن ذلك قائلاً : « لقد دعاني القيصر اليه بصفتي أوثق علماء الفلك عنده وسألني بسرية تامة عما فكر فيه طويلا من اسئلة عن الكرة الأرضية وعجائبها » .

لقد اراد القيصر المطرود من الكنيسة ان يتعرّف على العالم وكل ما فيه بعد جهل العصور الوسطى بعين ثاقبة تبغي تفهّم كل شيء على اسس رياضية ، وتُرجع كل ما تراه او تسمعه لأسبابه الأصلية . فيسأل ميخائيل مثل تلك الأسئلة :

« ما هو عدد السموات ؟ وما هو حجم الأرض وما سمكها وما طولها ؟ ما هو بعد السماء عن الأرض ؟ هل يوجد عمق واحد للأرض ام اعماق متعددة ؟ وإن كانت اعماقها متعددة فما هي المسافة بين كل عمق والذي يليه ؟...»

إنها هواية جده روجر الثاني نفسها في قياس كل شيء وحسابه بالأرقام ، ورغبته في الملاحظة للوصول الى الحقيقة ، كما فعل عندما قام ليلا ليقيس طول اسوار نابولي ليعرف محيط المدينة .

واستجاب فريدريك لفكرة الخلود سراً ولكنه لم يلبث بعد ان اعلنت الكنيسة طرده للمرة الثانية ، ان وجّه استفساراته علانية وارسلها إلى مصر وسورية والعراق وآسية الصغرى واليمن ومراكش . وقد ارسل فريدريك ذات مرة لسلطان الموحدين اسئلة لابن سبعين في (سبته) Ceuta للإجابة عليها .

وكان ابن سبعين شاباً مغروراً في العشرين من عمره يعتقد ان الفرنجة شعب همجي غير مثقف فأرسل للقيصر إجابة فيها صلف وتكبر . ولم يأبه القيصر لهذا الرد غير المهذب بل ضحك وأمر بإرسال هدية له ، ولكن الشاب العربي ردها ثانية ولم يقبلها .

على ان هذا لم يكن إلا حادثاً فردياً ، لأن علماء العرب وامراءهم اعتبروا الإجابة على اسئلة ملك الفرنجة الشهير بعلمه شرفاً كبيراً لهم . وشغف فريدريك بتبادل الأفكار مع الشرق برغم مشاغل دولته العديدة وكثرة مشاكله مع اعدائه . كما وجد لديه ايضاً الدافع ، كما يرى بعض العرب ، في ان يختبر معلومات المسلمين .

إن فريدريك اراد شريكاً من نوعه هو ، يرى الأشياء على حقيقتها . وكانت علوم الغرب عاجزة عن ان تشفي غليله ، فاقترب من العالم العربي مما جعله بتفكيره واتجاهه هذا غريباً على مجتمعه الغربي . إن ذلك الشعور بالوحدة هو الذي دعاه في يافا الى توجيه الكثير من الاسئلة العلمية إلى العرب بغية كسب صداقتهم واحترامهم . وكلما ازداد عليه الغرب ضغطاً وتجريحاً زاد حنينه الى العرب

ورغبته في الانضمام فكرياً إلى مدرستهم .

ولم يتمالك فريدريك حين حضره الموت وقد أصيب في الصميم من خيانة أخلص الناس إليه ، أن يقول بحنين بالغ : « تمنيت أن أبقى في الشرق إلى الأبد » .

لقد بحث فريدريك دائماً عن أصدقاء جدد من العالم العربي الذي رفعه فوق أقرانه من معاصريه . فكم كان سروره عظيماً يوم استقبل وفوداً عربية من دمشق أهدت إليه جهازاً قيّماً لرصد الكواكب وحركاتها . ولم يكن سروره هذا لقيمة الهدية العلمية فحسب ، بل كان سرور مَن يلقى أحباءه الذين يسيرون معه في الطريق نفسه . وأبقاهم لديه شهراً بعد شهر . وقبل أن يسمح لهم بالرحيل احتفل معهم بعيد رأس السنةالهجرية ، وأقام لهم وليمة ضخمةلم يعرف الغرب قبل ذلك لها مثيلاً . ولو استطاع فريدريك أن يبقي ضيوفه العرب دائماً ببلاطه لفعل .

ويكتب العرب عن وفود القيصر الوافدة اليهم فنرى ، من كتاباتهم كيف كانوا ينظرون بعيون عربية ثاقبة لرسل فريدريك . وينقل الينا ابن أبي أصيبعة عن شاهد عيان يقول :

« حدثني القاضي جلال الدين البغدادي تلميذ كمال الدين بن يونس .. قال: كان قد ورد إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من عند الأنبرور (ملك الفرنج) — وكان متفنناً في العلوم — رسول وبيده مسائل في علم النجوم وغير ذلك ، وقصد أن كمال الدين بن يونس يرد أجوبتها ، فبعث صاحب الموصل إلى ابن يونس يعرفه بذلك ، ويقول له أن يتجمل في لبسه وزيه ويجعل له مجلساً بأبهة لأجل الرسول ، وذلك لما يعرفه من ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثة بلا تكلف وما عنده خبر من أحوال الدنيا ، فقال : نعم . حكى جلال الدين ، قال : فكنت عنده ، وقد قيل له هذا رسول الفرنج قد أتى وقرب من المدرسة ، فبعث من الفقهاء من تلقاه ، فلما حضر عند الشيخ ، نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة ، وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة

حسنة . ودخل الرسول وتلقاه الشيخ وكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها . ولما راح الرسول غاب عنا جميع ما كنا نراه ، فقلت للشيخ : يا مولانا ما أعجب ما رأينا من ساعة من تلك الأبهة والحشمة . فتبسم وقال: يا بغدادي ، هو علم » . طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ص ٤١٠

ويكتب طالب آخر من طلبة أحد العلماء الآخرين في الموصل فيحدثنا عن المشاكل المتناهية في الصعوبة التي كان يستفسر عنها قيصر الفرنجة فيثير بذلك الخلافات بين العلماء العرب . وعلى الرغم من ان استاذ هذا الطالب كان من الحاسدين لكمال الدين بن يونس وما وصل اليه من مجد علمي ، نجده يكتب : « من أعجب ما سمعت عن كمال الدين انه في زمن الكامل أرسل الفرنجة إلى سورية بأسئلة يرجون الإجابة عليها ، كان من بينها أسئلة في الطب والفلسفة والرياضيات . فأجاب علماء سورية بأنفسهم على الأسئلة المتعلقة بالطب والفلسفة ولكنهم لم يستطيعوا الاجابة على الاسئلة الرياضية . ولكن الكامل رغب أن يكمل الإجابات فبعث ببقية الأسئلة الى معلمنا مفضل بن عمر في الموصل ، وكان حجة في العلوم الهندسية ، ولكن ابن عمر لم يستطع أن يجد لها حلا وعرضها على ابن يونس الذي درسها حتى وجد الإجابة عليها . وكانت المشكلة : أعطينا قوساً فأوصلنا الوتر ومددناه والمطلوب رسم مربع على امتداد هذا الوتر تكون مساحته مساوية للمساحة المنحصرة بين القوس والوتر . وها هو الشكل المطلوب .

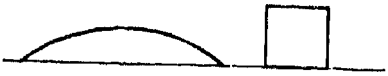

وأرسل ابن عمر الحل للملك الكامل . وعندما قدمت إلى سورية وجدت العلماء هناك في دهشة بالغة يثنون على تلك الإجابة الرائعة التي كانت غير معروفة في هذا العصر .

ومن بين فيض أسئلة ذلك القيصر العظيم تلقى شهاب الدين الكرافي عدداً منها . وكان شهاب الدين من علماء القاهرة المهتمين بالقانون والعلوم الطبيعية ،

وكان يكن لفردريك الثاني احتراماً كبيراً . ويعلق شهاب الدين على ذلك قائلا : « لقد كتب ملك الفرنجة في صقلية زمن الملك الكامل سبعة أسئلة بالغة في الصعوبة ليختبر بها المسلمين . وقد علمت أن بعض الأسئلة قد أجيب عليه . ولست أدري إن كانوا قد أجابوا على كل أسئلته أم لا . ولقد أمكن الإجابة على اسئلته الدائمة ومراجعة صحتها لوجود كثير من العلماء في البلاد . وقد جمعت في هذا الكتاب خمسين سؤالاً عن المشاهدة » .

ويذكر شهاب الدين اسم القيصر فريدريك الثاني مقروناً بثلاثة أسئلة فقط وهي :

السؤال رقم ١١ : لماذا يرى الانسان أجزاء الأجسام المستقيمة كالحراب والمجاذيف المنغمسة في ماء صاف على غير استقامتها تحت سطح الماء ؟

السؤال رقم ٢٥ : لماذا يرى الانسان سهيلا (اسم نجم) عند ظهوره أكبر حجماً مما يراه عند حلوله موقع السمت ؟ في حين أن الجنوب يخلو من أية رطوبة (ووجود الرطوبة تعليل يصح الأخذ به لتبرير توهمنا اختلاف حجم الشمس بين الشروق والظهر) وقد ثبت خلو الجنوب من الرطوبة من كون المناطق الجنوبيه هي صحارى وجافة ؟

السؤال رقم ٣٠ : الانبراطور يسأل : لماذا يرى ضعاف البصر خيوطاً تبدو كالذباب أو البعوض، برغم أنه لا يوجد شيء بالمرة أمام العين ؟ وكيف يستطيع الانسان أن يرى في حدقة العين شيئاً بعيداً بينما لا يرى الانسان ما هو قريب منها أو ما هو معلق بها؟

وكان لمثل تلك الأسئلة التي استفسر عنها فريدريك ، مما لم يكن معهوداً عند امراء أوروبة وملوكها، أثر كبير في رفع مكانته وشهرته في العالم العربي بدرجة أن احد العرب كتب عنه : «في الحقيقة إنه لم يظهر في العالم المسيحي حتى اليوم مثل هذا الحاكم العظيم » .

وقد جذب بلاط القيصر عالماً عربياً آخر عرف باسم الاستاذ تيودور . وكان تيودور

مسيحياً من انطاكية تلقى تعليمه على يد كمال الدين بن يونس في الموصل فعلمه الفلسفة والرياضيات والفلك ، كما نبغ في الطب علاوة على ذلك . ولما مات فيلسوف البلاط ميخائيل عام ١٢٣٥ م . أثناء رحلته مع القيصر في المانية عيّن فريدريك الأستاذ تيودور خليفة له في منصبه .

وبعد حياة حافلة بالنشاط والبحث العلمي توفي ذلك الفيلسوف الكبير قبل موت القيصر بأشهر قليلة . وثارت شائعات تتهم الاستاذ الفيلسوف بأن له يداً في موت القيصر لأنه كان يعد الأدوية والأقراص المقوية ، وهو الذي أعد له كمثرى مجففة تناولها القيصر فأدت الى نكسة أودت بحياته .

وكان لتيودور أهمية كبرى في بلاط القيصر لسعة اطلاعه وتبحره في كل نواحي العلم والمعرفة . فهو يناقش القيصر في مشاكل الرياضيات والفلك ويقرأ للقيصر طالعه ويهتم بشؤون الدولة فضلاً عن اشتغاله بالمراسلات مع حكام العرب أو سفره إليهم في مهام سياسية او يعقد اتفاقات تجارية . وكان بالإضافة إلى كل هذا طبيب القيصر ورجال البلاط الخاص، يصنع لهم بنفسه الأدوية والحبوب فضلاً عن الحلوى والشراب . ووضع تيودور للقيصر نظاماً دقيقاً للمعيشة والطعام ، فهو الذي يحدد أصناف المأكولات وطرق طهيها وكمية الملح والتوابل ومواعيد الوقعات وكمية المشروبات أو النبيذ . وهو الذي يحدد درجات الحرارة اللازمة لتدفئة مختلف الغرف تبعاً لظروف الطقس وينظم ساعات نوم القيصر بل وعلاقاته الجنسية . كما ترجم للقيصر كثيراً من الكتب العربية كان القيصر يراجع ترجمتها بنفسه .

ولقد شغل فريدريك نفسه بمراجعة الترجمات ، حتى وهو في معسكره أو حروبه . ويُحكى أنه قام أثناء احدى المواقع بمراجعة كتاب عن الصيد ألفه عربي يُدعى مؤمن كان يصاحب فريدريك في الصيد وتدريب الصقور ، وجمعت بينهما تلك الهواية فصارا صديقين حميمين .

الفصل السادس

نظرة جديدة إلى العالم

ولم تكن تلك الهواية هي كل ما جمع بينهما . فقد تشابه الاثنان ، القيصر وذلك العربي ، فيما كان غريباً على العالم الغربي ، فقد وهبا نظرة فاحصة للطبيعة الحقيقية . فكان القيصر وصديقه هذا وولداه إنزيو Enzio ومانفريد Manfred والمشرف على خيوله الذي ألّف كتاباً في علاج الخيل ، كانوا جميعاً على علم واسع بشؤون الطبيعة ، فهم دائمو الملاحظة والاستنتاج والتجربة والبحث بغية الوصول إلى الحقائق العلمية الصحيحة .

ولكن ، أوَ ليس من واجب كل انسان أن يرى الحقائق كما هي ؟ وما هو الغريب في هذا إن كان اولئك القوم قد فعلوا ذلك ؟

اننا اليوم نتصور ذلك شيئاً طبيعياً ، أما العالم الغربي حينذاك فقد كان يرى ذلك إثماً كلّ الإثم ، فالطبيعة ليس لها معنى لديهم سوى أنها مظهر لله والروح وكل ما هو مقدس أو مثالي . فهي جزء من عالم السماء تصورها أقاصيص حملوها عن العصور الوسطى بشغف مثل أقصوصة « الأسد والنملة » . فقد ولد للأسد من النملة حيوان صغير سمي «الاسد النملة» مات بعد فترة وجيزة من مولده لأنه لم يجد ما يناسبه من طعام فهلك جوعاً . ويثبت صدق هذه الرواية ورود شيء من هذا في الكتاب المقدس عن الأسد النملة الذي هلك جوعاً . ولكون

ذلك الحيوان ذا طبيعتين فإنه حينما اراد ان يأكل لحماً منعته عن ذلك طبيعة النملة التي تشتهي بذرة الحبوب وحينما أراد أن يأكل بذرة من البذور غلبت عليه طبيعة الأسود . ونتج عن عدم إمكانه أكل اللحم او البذور هلاكه . وهكذا يكون مصير الشخص الذي يريد خدمة الرب والشيطان معاً ، فالرب يريد منه أن يكون تقياً ورعاً والشيطان يلحّ عليه في أن يكون فاسقاً .

وتسقط كلمات فريدريك صافعة ذلك الوجه الكالح من الخيال العقيم لفهم الطبيعة واسرارها حين يقول : « إن واجبنا هو التوصل إلى تفسير الأشياء وتوضيحها كما هي في الواقع فعلاً » وبذا كانت كلماته وأعماله بمثابة نقطة تحوّل في تاريخ العالم الغربي .

ولم يكن هذا القيصر العالم الذي هوى الكتب والعلم منذ نعومة أظفاره ليكتفي بما يقرأ او ليثق بما يُكتب . وكان يردد دائماً : «إن اليقين لا يصل اليه الانسان بالسماع فحسب» لهذا كان دائم الملاحظة ، يجلس الساعات الطوال في حديقة الحيوان يلاحظ الحيوانات ويدرس طبائعها وعاداتها . ويجلس في جنة الطيور يرقبها بإمعان بالصبر العجيب نفسه الذي يجلس فيه مع أحد الفلكيين العرب ليرصد نجماً او يراقب كوكباً .

وكتاب فريدريك عن فن الصيد بالصقور الذي كتبه بمعاونة ابنه مانفريد لا يظهر مدى دراسته الدقيقة وتعمقه فحسب ، بل يحوي في الواقع بحوثاً علمية رائعة في علم الطيور كما كان بداية طيبة للعلم الحديث القائم على الخبرة والمشاهدة والتجربة .

وقدّم فريدريك في كتابه هذا خلاصة لمشاهداته وتجاربه الشخصية ، علاوة على تجارب مَن وثق بهم ومشاهدات اعوانه الذين عهد اليهم بتلك المهام فأدّوا مهمتهم على خير وجه لا يهمهم مال او جهد . كما استعان بالأمراء العرب في مصر وغيرها ليزودوه بكل ما وصلت اليه الأبحاث ، ولم يكتب فريدريك شيئاً في

كتابه إلا بعد أن تأكد من صحته بنفسه . وهو يفعل كل هذا بنفس تقدير ابن البيطار ـ عالم النبات العربي ـ للمسؤولية العلمية أمام الحقيقة والتاريخ. فلقد تمثّل به فريدريك حين قال : « إني اكتب عن المؤلفين السابقين ما يثبت لي صحته من ملاحظاتي وتجاربي الشخصية ، ولقد تركت ما رأيت أنه يخالف الحقيقة أو ما لم أتثبت من صحته » .

وكان ميخائيل سكوت قد ترجم للقيصر أبحاث أرسطاطاليس وابن سينا في علم الحيوان ، وقرأ القيصر كل ذلك ، ولكن مع هذا كان يكتب بحيطة العالم الحذر المدقق ويقول : «نحن نتبع ارسطاطاليس حيث يجب أن نتبعه . ولكنه في حالات كثيرة ، كما علمتنا الخبرة ، يبدو ، وقد بعد عن الحقيقة ، خاصة فيما يتعلق بطبائع الطيور . ولهذا لم نتبع أمير الفلاسفة في كل شيء ... لأن أرسطاطاليس لم يمارس صيد الطيور إلا نادراً أو هو ، كما يبدو ، لم يمارسه إطلاقاً . أما نحن فقد عشقنا صيد الطير وتدربنا عليه الكفاية » .

ان هذا المنهج هو نفسه منهج المدرسة العربية . فكل شيء واضح لا يغلفه ضباب من الغموض ولا حجاب من ظلمة مقدسة . فالحقائق واضحة قريبة للافهام لمن شاء أن يثبتها أو يعارضها بالتجربة والخبرة والمشاهدة . والجميع يقدّرون المسؤولية العلمية قدرها، ويعترفون مع هذا بعجائب نشأة الطبيعة ما داموا يجدون لذلك تفسيراً . وهم يستبعدون من العجائب ما لا يتفق مع العقل ويحلون محلها التفسيرات القائمة على المسببات والنتائج .

وتدرج فريدريك الثاني في المدرسة العربية فبدأ فيها تلميذاً مجداً حتى صار استاذاً من اساتذتها ، أزاح من طريقه كل ما يعترضه بعد ان عرف طريقه. وهو لا يكتفي بالأخذ عن الآخرين بل يخلق ويبتكر ليؤسس منهجاً للعلوم الطبيعية الحديثة . وهو يعتبر أول سلسلة من العلماء المفكرين نبذت خرافات العصور الوسطى وقادت النهضة الحديثة أمثال ألبرتوس ماجنوس وروجر باكون

وليوناردو دافينشي وفرانسيس باكون وجاليليو . بل هو حلقة الاتصال بين هؤلاء جميعاً والفكر العربي لأنّ أغلبهم وخاصة ، روجر باكون وليوناردو دافينشي ، قد قامت أبحاثهم على أساس الأبحاث العربية .

وهناك خط مستقيم يصل اولئك جميعاً بالحضارة العربية على أساس الأبحاث العربية التي كان يذخر بها البلاط النورماني الصقلي ووساطة فريدريك الثاني بالذات .

وكأنّي بابن البيطار ينطق بلسان فريدريك عندما كتب في علم النبات : « إن كل ما كتبته هنا يرجع إلى تجاربي وخبراتي الخاصة أو من كتب للمؤلفين الذين نعرف تماماً أن كل ما كتبوه هو ثمرة أبحاثهم الخاصة » .

وفريدريك لم يكتب عن النبات والحيوان وهو قابع في مكتبته . فلأول مرة في الغرب تجوّل ، كباحث ، بين الطبيعة ، تماماً كما فعل العرب . وها هو يقول بهذا الصدد : « إن واجب علوم الطبيعة لا يقتصر على جمع معلومات الآخرين بل إن واجبها هو تعليل أسباب الظواهر الطبيعية » .

إن حضارة الغرب قد ولدت في صقلية ، وكان الأطباء المشرفون عليها هم العرب . وفي انبراطورية فريدريك الثاني التقى الفكر العربي بالفكر الغربي ، وحقق هذا ما تنبأ به جوتفريد فون فيتربو (Gottfried Von Viterbo) للقيصر هاينرش السادس قبل مولد فريدريك : هذا الطفل سيصالح الشرق والغرب سياسياً لمدة وجيزة ولكنه سيوحّدهم فكرياً لمدة طويلة .

ونتج عن ذلك الاحتكاك بين الشرق والغرب نظرة جديدة للعلوم الطبيعية أساسها التجربة والخبرة .

وفي جبّة راهب بيضاء دثر « طريد الكنيسة » فقد توفي فريدريك الثاني يوم ١٣ ديسمبر ١٢٥٠ م . في قلعة على الطريق بين فوجيا Foggia ولوسيرا (Lucera) وحُمِل ميتاً الى بالرمو المدينة التي شهدت طفولته العجيبة

والمقرّ الأخير لوالديه وأسلافه من النورمان . وفي بالرمو رقد فريدريك رقدته الأخيرة مدثراً بثوب أحمر وبجواره سيفه في غمد عربي ، وقد طرّز العمال العرب بأحرف مذهبة ثوباً رقيقاً لفّوا فيه جثة صديق المسلمين المعترف بأفضالهم ، وعلى كم الثوب كتب هذا الإهداء بأحرف عربية « هديّة للسلطان » .

حواشي الكتاب السادس

١) **بلدوين الاول** : أحد ملوك الصليبيين .

٢) **ابن الاثير** : عز الدين أبو الحسن علي ابن الأثير . (١١٦٠ م – ١٢٣٤م) درس في الموصل وبغداد وسورية . وأهم مؤلفاته : « الكامل في التاريخ » ، وهو من أهم المصادر التاريخية في القرون الوسطى في الشرق، و « تاريخ أتابكة الموصل » و « أثر الغابة في معرفة الصحابة » و « اللباب » .

٣) **الادريسي** : أبو عبد الله الادريسي (١١٠٠ – ١١٦٦ م) ولد في الاندلس ، ودرس في قرطبة وبرع في علم الهيئة والجغرافية والطب والحكمة والشعر . زار بلاد الروم واليونان ومصر والمغرب وفرنسة وبريطانيا .

٤) **المقدسي** : أبو عبد الله المقدسي . عاش في النصف الثاني من القرن العاشر وهو من أشهر جغرافيّي العرب . زار أكثر البلدان الاسلامية ، وقد ترجم كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » إلى كثير من اللغات الاوروبية .

٥) **ابن بطوطة** : (١٣٠٤ – ١٣٧٧ م) هو محمد ابن عبد الله بن محمد بن

ابراهيم ... الطنجي . نشأ في طنجة وأقام فيها حتى عام ١٣٢٥ م. وقد قام بثلاث رحلات واسعة النطاق ، جاب فيها اكثر ما عرف في زمانه من البلدان . وقضى في رحلته الأولى ٢٤ سنة (١٣٢٥ ـ ١٣٤٩) زار فيها كلا من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وعيذاب على البحر الأحمر وفلسطين ولبنان وسورية والحجاز . ومن مكة اتجه إلى العراق والعجم وبلاد الاناضول ، ومنها إلى مكة ثانية وافريقية الشرقية ، ثم جنوبي الجزيرة العربية فإلى مكة ثالثاً ؛ ومنها إلى بلاد الهند والصين ... ثم عاد الى موطنه بعد أن مرّ ثانية بالبلاد العربية كلها .

أما رحلته الثانية فكان هدفها بلاد الاندلس ، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغرناطة .

وقام ابن بطوطة برحلته الثالثة إلى السودان حتى اواسط إفريقية ، وكان ذلك عام (١٣٥٢ ـ ١٣٥٤ م) .

ويعدّ ابن بطوطة من أشهر الرحالة العالميين . وقد حظيَ كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» بإعجاب المستشرقين وتقديرهم الكبير .

٦) **ياقوت** : يعقوب ياقوت الروم (١١٧٩ - ١٢٢٩ م) أصله عبد من بلاد الروم أعتقه سيده وشغله بالاسفار في مدن العراق والشام ومصر . وأهم مؤلفاته . « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » .

٧) **ابن جبير** : (١١٤٥ ـ ١٢١٧ م) رحالة عربي ولد في الاندلس وتوفي في الاسكندرية . زار الاسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة

والكوفة والموصل وحلب ودمشق وعكا وصقلية عائداً إلى غرناطة عن طريق قرطاجنة . وقد سجّل وصف كل ذلك في كتابه الذي يعرف بـ : رحلة ابن جبير أو « الرحلة » .

٨) **القيصر فريدريك الثاني** : راجع الحاشية ١٤ من حواشي الكتاب الثاني .

٩) **توما الاكويني** : راجع الحاشية ٨٤ من حواشي الكتاب الثالث .

الكتاب السابع

عرب الأندلس

« وهكذا وجب أن يظهر الحق
ويعلو، كما نجح في هذا محمد ، الذي
أخضع العالم كله بكلمة التوحيد »

جوتة – الديوان الشرقي الغربي

الفصل الاول

أصل سيدات الطبقة الراقية

إنّ الحلى التي يقدمها الأوروبي لحبيبته أو لزوجة صديقه أو رئيسه ، سواء أكانت ماساً أصلياً أو زجاجاً مصقولاً ، هي عادة استوردت من الشرق ويمارسها الناس كل يوم ولا يعرفون لها مصدراً . وتمر السنون ، والحلى تلك مازالت تتنوع وتتغير ولكنها لم تفقد قوتها السحرية في جذب قلوب النساء حتى ولو كنا نعيش في القرن العشرين .

ولو كتبت أنت للسيدة الفاضلة خطاباً وأنهيته : «بالمخلص فلان» أو «بخادمك المطيع» فأنت تعترف بسيادة العرب ، لأنك أخذت عنهم هذه الكلمات ولم يكن أجدادك في الغرب يعرفون شيئاً منها. وأنت كلما انحنيت على يد سيدة لتقبلها ، لا تنسَ ، في تلك اللحظة ، أنك بهذا تمارس عادة عربية . وفي كل مكان تركع فيه أمام محبوبتك لتعبر عن فيض من مشاعرك تذكّر انك تقتفي ، دون ان تدري ، أثر عشاق العرب .

ويتكرر هذا كل يوم ، وتصبح هذه اللغة وتلك الحركات وذلك الخضوع للمرأة طبيعة ثانية فينا كغربيين نكفر به عما تعودنا من خضوع المرأة للرجل لتكفر عما ارتكبته حواء من إثم .

فتزلف الرجل للمرأة وخطبه لودها وتقديسها ، سواء أكان هذا من باب الأدب

في المجتمعات ، أو كان عن حب صادق، فإنه لا يتفق مع أصول الحب في المجتمع الجرماني ، الذي كان يرنو إلى مساواة تامة بين الرجل والمرأة مع اعتداد كل منهما بنفسه وشخصيته المستقلة ، ومساواة في الحقوق والواجبات . وقد تعارض هذا الاتجاه العربي في تقديس المرأة ايضاً ، مع ما كان سائداً في دول البحر الأبيض التي كانت لا ترضى بتزلف جنس لآخر وتطلب من الجنسين على السواء بذل الجهد لحوز رضاء الجنس الآخر .

وعارض الكتاب المقدس ايضاً ذلك المسلك العربي، ونص على أن الرجل سيد المرأة . ونشطت الكنيسة تحارب كل الأفكار المخالفة ، وتعمل كل ما في وسعها لإبقاء المرأة تحت سيطرة الرجل تبعاً لمشيئة الرب .

وعلى الرغم من هذا ، فقد قاوم العرب كلّ التيارات المعادية واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة ، وجعلوا من منهجهم مثالاً احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكاً . وأصبح الاستمتاع بالجمال والغزل جزءاً من حياة الاوروبيين شاءوا أم أبوا .

ولكن ، أو ليس هذا نوعاً من المبالغة ؟ وهل يعقل هذا الكلام ؟ ثم ألمْ تعش نساء العرب منذ زمن بعيد مقيدات مظلومات لا يتمتعن بحقوقهن ؟ ألمْ نسمع بالحريم كالسجن يملك فيه الرجل عدداً كبيراً منهن ويقيم عليهن الحراس ؟ ألم نسمع بنساء يزوجن دون أن يستشرن ؟ وتكفي بضع كلمات يتفوه بها الرجل وقتما شاء لتصبح المرأة طالقاً تعود إلى عائلتها دون أيّ ذنب ، والدين لا يمنع هذا ؟ . ألم نسمع بالمرأة تحمل الأمتعة وقد تقوّس ظهرها في طريقها إلى السوق وزوجها الهمام يركب حماره منتفخ الأوداج بجوارها لايعيرها أيّ التفات؟ ألم يبدأ، حديثاً فقط، ترك النساء للحريم وخلعهن الحجاب ومطالبتهن بالتخلص من ذل دام قروناً ؟

أين هي الحقيقة في كل هذا ؟ وما هو مركز المرأة في المجتمع ؟ لقد أقبل

حارث بن عوف أشجع فتيان قبيلة مُرّة إلى أوس بن حارثة ، وهو من أشراف العرب، ليطلب يد إحدى بناته الثلاث . ورفضت ابنتاه الكبيرتان هذا العرض، **أما الابنة الصغرى بهيسة فقد أجابت : « لكني والله الجميلة وجهاً ، الصنّاع يداً، الرفيقة خلقاً ، الحسيبة أباً.. فإن طلقني فلا أخلف الله عليه».**

قصص العرب : ٢ : ٨٧

ولكنّ الحارث لم يكد يقترب من عروسه حتى امتنعت عليه قائلة : « لا يصح هذا ونحن في جوار أبي » . فأمر الحارث بخلع الخيام وتحميل الجمال وغادروا المكان . وما أن أظلمت الدنيا حتى أمر الحارث بأن تنصب الخيام ليستريحوا الليل من وعثاء السفر. وحاول الحارث أن يعاشر عروسه معاشرة الأزواج ولكنها نهرته قائلة : « ما هذا ؟ أتريد أن تعاملني معاملة جارية تشترى أو سبية تؤسر في الحرب ؟ لن أسمح لك أن تقترب مني إلاّ بعد أن نحتفل بزواجنا بين قبيلتك وننحر الإبل والشياه للضيوف من كل القبائل » . فأمر الحارث بالرحيل وأسرع بالركب حتى وصلوا قبيلته وأسرع بدعوة الضيوف وأقام حفلاً كبيراً ونحر الإبل والشياه كما طلبت إليه عروسه آنفاً . ثم اقترب الحارث منها يريد ما وعدته ، ولكنها ردّته عنها وقالت موبخة : « كيف تجد وقتاً لمداعبة النساء، والعرب في الخارج تسيل دماؤهم في مذابح القتال بين ذبيان وعبس قبيلة أمي . أسرع بالخروج وحاول الإصلاح بين القبيلتين المتنازعتين ثم عد لزوجتك التي تنتظر عودتك على أحر من الجمر » .

فيركب الحارث إلى القبيلتين تواً ويقدم من ماله الخاص دية كبيرة يقبلها الطرفان ويعود السلام بعد قتال عنيف دام بينهما أربعين عاماً . لقد أحصى الحارث عدد القتلى في كلٍ من القبيلتين ووعد القبيلة التي زاد عدد قتلاها عن الأخرى بثلاثة آلاف جمل يدفعها لها من ماله خلال السنوات الثلاث القادمة كدية عن دم القتلى . وعاد الحارث محوطاً بالإجلال والإكبار من الجميع إلى عروسه لتتقبله بالأحضان ولينجب منها البنين والبنات .

ويسكت الراوي عن الكلام وتتصاعد من المستمعين كلمات الإعجاب . فقد صادف الحديث هوى في نفوسهم واتفق مع الصورة التي رسمتها مخيلتهم للمرأة العربية . وتمر السنون وتتعاقب الأجيال بعد وفاة الرسول الذي حطم أصنام الجاهلية ودعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبقي الناس في البلاط الأموي يتمتعون بسماع قصص الجاهلية ودور المرأة العربية في المجتمع، وما أحاط بها من بطولات . وظلت المرأة في الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية .

ألم تكن خديجة زوج النبي الأولى ، التي عاش معها أربعة وعشرين عاماً وأنجب منها ستة أطفال ، ارملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة في مجتمعها ؟ لقد كانت خديجة نموذجاً لشريفات العرب ، اجاز لها الرسول ان تستزيد من العلم والمعرفة كالرجل تماماً .

وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن احكام الدين . فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنال منهم تصريحاً لتدرّس هي بنفسها ما تعلمته ، فتصبح الاستاذة الشيخة . كما لمعت من بينهن اديبات وشاعرات، والناس لا ترى في ذلك غضاضة او خروجاً على التقاليد .

إن النساء في صدر الإسلام لم يكنّ مظلومات او مقيدات ، ولكن هل دام هذا طويلاً ؟ .

لقد هبّت على قصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال فغيرت الأوضاع؛ وقدم الحريم والحجاب مع الجاريات الفارسيات واليونانيات اللاتي كنّ محظيات للخلفاء وامهات لأولادهم. وكان ان حرمت المرأة العربية من مكانتها الرفيعة في المجتمع وقيدت حرياتها حين سيطرت على المجتمع العادات الفارسية القديمة.

والإسلام بريء من كل ما حدث ، والرسول لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد امر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء ، بأن يغضوا الطرف

وان يحافظوا على اعراضهم . وامر النساء بألاّ يظهرن من اجسادهن إلا ما لا بد من ظهوره ، والاّ يظهرن محاسن اجسادهن إلا في حضرة ازواجهن .

ولكن ، كيف تحدد عورة المرأة التي يجب الا يراها الغرباء ؟ .

لقد بدأ المفسرون يحددون عورة المرأة فاعتبروا وجهها عورة يجب ان تحجب ولم يسمحوا لها إلا باظهار يديها، وما بدا كبدعة لا ضرر منها. لم يلبث ان اصبح اجباراً يحتمه الدين والخلق . وشرعت القصور تعزل النساء في الحريم على غرار ما تعوده الفرس . وبدأ استيراد الخصيان لخدمتهن ، كما كانت عليه الحال في بيزنطة قديماً . واصبح حجب النساء عن المجتمع وعدم مغادرتهن لبيوتهن مظهراً من مظاهر الأبهة والثراء . وهكذا كتب على النساء أن يبقين سجينات منازلهن باسم الدين .

وساهم تعدد الزوجات في تهيئة الجو لتلك النكبة التي اصابت النساء على يد العباسيين . وكان تعدد الزوجات في الجاهلية ضرورة اقتضتها ظروف المعيشة والرغبة في العدد الكبير من الأولاد لتقوية مركز القبيلة ولتوطيد العلاقات بين مختلف القبائل بالمصاهرة . وبظهور الإسلام استمرت تلك الضرورة نتيجة لبدء الفتوح .

والواقع إن الفكرة اثبتت نجاحاً كبيراً . ففي معركة نشبت بين الأمويين والبربر قدّم البيت الأموي ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل. وفي عهد المأمون، كان البيت العباسي يزهو بأعضائه الذين بلغوا ثلاثة وثلاثين ألف فرد .

وبعد تثبيت دعائم الدولة اصبح تعدد الزوجات سبباً من أسباب فساد الدولة الإسلامية وانحدارها، خاصة بعد انخفاض مركز المرأة في المجتمع. فخلف أسوار الحريم قضى تعدد الزوجات على ما كان للنساء من حرية ومكانة رفيعة . وتلهف الناس على الفتيات الخليعات يَسلبنَ من شباب بغداد وتجارها نقودهم وسمعتهم بابتسامة ماكرة او متعة رخيصة ، كما كانت الحال في حانات الكوفة التي انشأها تجار الرقيق واستوردوا لها الساقطات ودربوهن على ابتزاز اموال الرجال

وكرامتهم .

ولكن هذه الأمراض الاجتماعية لم تنتشر إلاّ بين الطبقة العليا الملوثة التي جذبت إليها الأنظار بفجورها ، واهتم بها الأوروبيون يلوكون اليوم سيرتها ويحسبون أنها هي المجتمع العربي . وكلما تعمقنا في طبقات الشعب العربي وضحت الصورة الأصلية وقلّ تأثير النفوذ الفارسي . فالبدوية لم تعرف الحجاب قط ، ولم تطأ قدمها أرض الحريم ، ولم تكن ظروف المعيشة في البداوة ، حتى بين العامة في الحضر ، لتسمح بمثل ذلك ، بل لم تكن لتسمح بزوجات أربع كما سمح بذلك الدين .

فالإسلام قد قدّس الزواج وطالب بالعدل بين الزوجتين او الثلاث أو الأربع في المعاملة . « وإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة » . اليس هذا نصاً صريحاً يطلب فيه من المؤمنين ان يتزوجوا بواحدة فقط ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يعدل بين النساء ؟

والمشكلة لم تكن اقتصادية فحسب ، فمؤرخو العرب يذكرون ان العربي الأصيل المؤمن لم يكن يتخذ إلاّ زوجة واحدة يبقى مخلصاً لها وتبقى هي مخلصة له حتى يفرّق بينهما الموت .

وهكذا بقيت المرأة العربية كما كانت في الجاهلية وصدر الإسلام معتدة بنفسها وكرامتها طالما هي بعيدة عن تيارات المدينة . وبقيت البدوية في القرون الاسلامية الأولى اكثر حرية وكرامة من سيدات الطبقة الراقية في قصور دمشق . ولا عجب ان تكره البدوية حياة المدينة وتحن إلى حياة البادية . وقد سمع معاوية ذات يوم صوتاً حزيناً ينبعث من مخدع زوجته ميسون يردد الأبيات الآتية :

ولبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني ‏ ‏ ‏ احبُّ إليّ من لبس الشفوفِ
وأكلُ كُسَيْرة في حجر بيتي ‏ ‏ ‏ أحبُّ إليّ من اكل الرغيفِ

وخرق من بني عمي ضعيف   احبُ إليّ من علجٍ عنيفِ
وبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيهِ   احبُ إليّ من قصرٍ منيفِ

فما كان من معاوية إلاّ ان اخلى سبيلها . واعطت ابنة الصحراء للبريق والحرير ظهرها غير نادمة ، واسرعت لموطنها حيث للمرأة مكانتها واحترامها. مكانة عالية ، واحترام زائد لم تعرفه المرأة الشرقية فيما بعد والذي لم يكن له نظير إلاّ في الأندلس العربية . بل لقد فاقت مكانة المرأة في الأندلس كل هذا .

الفصل الثاني

« العالم كله مسجد كبير بُنيَ لي »

ازدهرت حضارة العرب في إسبانية وبلغت أوجها برغم انهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر أو الثقافة كما وجدوا في البلدان الأخرى التي فتحوها مثل مصر وسورية والعراق وفارس ، تلك البلدان التي مثّلت شعوبها دوراً كبيراً في مزج الحضارات الهلينية والبيزنطية والفارسية والهندية بالحضارة العربية .

وكان من المتوقع والمعقول ان تزدهر الحضارة العربية في مثل تلك البلدان أما في المغرب حيث البربر ، وفي إسبانية حيث القوط الغربيون المتأخرون ، فلم يكن ثمة ما يبشر بأي خير . ولم تكن هذه بالشعوب التي يتعلم منها القادمون من بلاد العرب او من سورية شيئاً يفيدهم . وبرغم هذا ، فقد استطاع العرب ان يقدموا للبشرية أكبر دليل على انهم اصحاب حضارة وأهل فكر ، وليسوا مجرد نَقَلَةٍ لحضارات الشعوب كحمار يحمل اسفاراً كما تنادي بذلك بعض النظريات التاريخية الخاطئة المغرضة . ففي الأندلس لم يجد العرب شيئاً بالمرة يتعلمونه ويهضمونه ليترجموه أو يقلدوه ثم يقدموه .

فالحضارة الأندلسية التي كانت اجمل وأعظم من ان تقارن بغيرها ، لم تكن قائمة على اساس فارسي أو إغريقي . لقد كانت عربية صرفة اكثر من الحضارة العربية في أي مكان آخر. وما إن انحسرت تلك الموجة الحضارية عن إسبانية حتى

هوت تلك البلاد في سكون مميت وفقر مدقع . فليس هناك من دليل أوضح من هذا على قدرة العرب على الخلق والابتكار .

وفي خلال مدة حكمهم التي دامت حوالي ٨٠٠ سنة خلقت الأسر العربية الحاكمة للأندلس حضارة زاهرة . وتسابق الأمويون في قرطبة وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو نصر في غرناطة في بناء صرح الحضارة الشامخ بينما كان القسم من البربر والمسيحيين الذين أبوا ان يتعربوا يخربون في كل مكان لم يصل إليه العرب، كما ان التأثيرات الاجنبية بدأت تتسرب إلى المراكز الحكومية في دولة العباسيين بعد إنهائهم للحكم الأموي .

وبقي الجيران على الجانب الآخر من البرانس قرنين وثلاثة وأربعة قرون يصمّون آذانهم ويغمضون عيونهم عن جنة العلوم والبناء والغناء والشعر والمرأة في الأندلس .

ورأوا في تلك الحضارة الزاهرة صورة قاتمة سوداء «للكفرة» من أصحاب محمد تضم السحرة وحلفاء الموت والشيطان. لقد كانوا، في الواقع ، يخشون نور المعرفة على عيونهم التي اعتادت الظلام . ولكن تلك اليد السحرية لم تلبث أن لمست الغرب برغم أنفه لتهزه من سباته العميق .

وبالقرب من قرطبة زرع الأمير العربي عبد الرحمن أول شجرة نخيل في الأندلس في حديقة قصره الذي بناه على نظام آبائه في سورية . وأصبحت تلك النخلة أماً لكل أشجار النخيل في اوروبة . وها هو عبد الرحمن يحدثها في إحدى أغانيه قائلاً :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : « شبيهي في التغرب والنوى   وطول ابتعادي عن بنيّ وعن أهلي »
نشأتِ بأرض انتِ فيها غريبة   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي .
سقتكِ غوادي المزنِ في المنتأى الذي   يسحُّ ويستمري السماكين بالوبلِ

ويعبّر عبد الرحمن سليل البيت الأموي واحد كبار شخصياته عن حنينه للوطن دائماً بمثل تلك الكلمات . لقد ولى الأدبار هارباً من النهاية الدامية التي لحقت بالبيت الأموي في دمشق وقضى خمس سنوات محفوفة بالأخطار في شمال إفريقية إلى ان تمكن ذلك الغريب الأعزل، معتمداً على شجاعته وفطنته وعزيمته التي لا تلين ، من ان يصبح سيداً مهيباً لعرب الأندلس المتنازعين .

وكما زرع عبد الرحمن شجيرات النخيل في الأندلس كذلك زرع فن البناء والموسيقى والشعر والحب ، وتعهدها حتى ازدهرت وخرجت تحمل رسالتها للغرب عبر الحدود .

وفي خلال حكمه الذي دام ٣٣ عاماً استطاع عبد الرحمن الأول أن يضع الأسس لأكثر الدول ازدهاراً في العصور الوسطى برغم أن عصره كان مليئاً بالحروب ليثبت دعائم دولته الفتية .

وأضاف خلفاء عبد الرحمن العظام على هذا الأساس أموراً كثيرة كما أتموا بنا المسجد الضخم الذي بدأ في بنائه في عاصمته قرطبة .

تُرى ، ألا يشير إنفاق مائة الف دينار ، اي ما يعادل خمسة ملايين من الماركات الألمانية ، لشراء كاتدرائية من المسيحيين في الأندلس ، إلى معانٍ كبيرة، خاصة في عصر لم يتورّع فيه عن إحراق المعابد وإفناء الصور والرسوم المقدّسة ؟ .

حقاً لقد حرق جنود طارق بن زياد ايام الفتح بعض الكنائس ، ولكن كاتدرائية فانسناس Vinzenz بقرطبة تركها المسلمون فرممها مسيحيو قرطبة وأدخلوا عليها عديداً من الاصلاحات ، وسمح لهم بأداء صلواتهم فيها ، كما أنشأ المسلمون مساجدهم المتواضعة في قرطبة حول المدينة .

ولكنّ تدفق المسلمين على قرطبة من المدينة المنورة وسورية وغيرها زاد عدد السكان في المدينة إلى درجة جعلت من الضرورة بناء مسجد كبير لهم .

واضطر عبد الرحمن إلى شراء كاتدرائية قرطبة من المسيحيين ودفع لهم مائة ألف دينار ثمناً لها لكي يرمموا بها بقية كنائسهم المهدمة . وكان من الممكن ان ينتقل المسلمون إلى الكاتدرائية بعد أن اشتروها او ان يعدلوا في بنائها كيف شاءوا كما فعل الفاتحون من قبل في دمشق وبيت المقدس . هكذا فعل الخليفة عبد الملك جد عبد الرحمن حين حوّل كنيسة العذراء التي بناها جستنيانوس في بيت المقدس إلى مسجد . وهكذا فعل ابنه الوليد بكنيسة القديس يوحنا في دمشق .

أمّا عبد الرحمن فإنه لم يرضَ ان يجعل من الكنيسة مسجداً ، ولم يكن ، وهو الواثق بنفسه ، في حاجة لمثل ذلك الاجراء . لقد هدّم الكنيسة التي دفع ثمنها غالياً وأمر ببناء مسجد جديد مكانها استخدمت في بنائه عُمد الكنيسة المزالة .

وسواء أقام الناس المساجد في المدن او في الخلاء للجند كمسجد ابن طولون في القاهرة او مسجد سيدي عقبة في القيروان ، فقد تشابهت جميعها تقريباً في الطراز عدا بعض منها كقبة الصخرة . وكان الطراز الشائع هو المسجد يتوسطه صحن مربع فيه نافورات ماء للوضوء ، وتحيط بالصحن أبهاء مسقّفة تحملها صفوف من العُمُد تنتهي في اتجاه القبلة بقاعة كبيرة ، وهذا الطراز هو طراز المصلّى الذي كانت تصلّي فيه قبائل المدينة يؤمها الرسول قبل بناء أول مسجد اسلامي .

ولم يعتمد عبد الرحمن على ايٍّ من اشكال البناء الغربية . فبرغم استخدامه لعُمُد الكنيسة او لمواد البناء الموجودة فقد صمّم على ان يكون المسجد اسلامي الطراز تماماً . وبرغم استخدامه للمهندسين والعمال من مختلف الاجناس ، فإنّ الطراز العربي الأصيل ظهر واضحاً جلياً . ولم يظهر هذا الاتجاه العربي فقط فيما يتعلق بالمحراب والقبلة او المنبر أو المئذنة مما يختص بشعائر الصلاة والاسلام ، بل تعداه إلى البناء بأكمله . ولم يكن المسجد تقليداً للكنيسة بالمرة ، حتى ولو

ارتفعت سقوفه فوق عُمُد ، كانت يوماً ما، تحمل سقف كنيسة. فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك ، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفياً ، وليس معنوياً، الى مملكة السماء التي يحكمها المسيح ، وإلى البيت المقدس الذى هبط من السماء إلى الأرض. وظلت الكنيسة ، تحمل بالنسبة إلى المؤمنين ، هذا المعنى على مرّ العصور منذ البدء في القرن الرابع ببناء الكاتدرائيات التي قلّدت بيت المقدس كمدينة أثرية في أقواس النصر و «البواكي». وقد سارت على هذا النهج الكنائس الرومانية وقلاع القياصرة بأبراجها وجدرانها الضخمة ومداخلها وأبوابها. وكذلك نهجت الكاتدرائيات القوطية نفس المنهج في أناقة أبنيتها وسحر أضوائها وأُبهتها السماوية فهي « مدينة أضواء سماوية شاعرية ».

أمّا المسجد فقد تحرّر من كل تلك الأفكار الشاعرية ، وكان هدفه بسيطاً واقعياً. فالعالم كله مسجد كبير بني لله ، ويفسر الرسول ذلك بقوله : « اينما تولوا وجوهكم فثمة وجه الله ». والمسلم كجده البدوي تماماً يرى في الصحراء المترامية الأطراف وجوده ، فهو يصلي لربّه فوق أية بقعة من الأرض يكون فيها. ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثّل دور الوسيط بينه وبين ربّه فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على ان يؤم المصلين في المسجد.

وعلاوة على تلك الصلوات يؤديها المسلم حيث شاء ، وجب على المؤمنين أن يؤدوا صلاة جامعة يوم الجمعة من كل أسبوع في المسجد. ولم تقتصر مهمة المسجد على تلك الصلاة مرة في الاسبوع فحسب ، بل تعدته إلى أغراض تخدم الدين والمجتمع كتعليم الأطفال والطلاّب ومباشرة أمور القضاء.

فالجامع هو الذي يجمع المسلمين. وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته ، كالكنيسة ، على بقية منازل الناس ومساكنهم. ولهذا لم

يهتم المسلمون كثيراً بمظهر المساجد الخارجي. فشكله الخارجي غير معقد تسيطر عليه الخطوط المستقيمة العادية . أما القبة فلا تعقيد فيها ولا زخرف . وجدران المسجد لا تختلف بالمرة عن جدران الحصون أو المصانع ، وهي تزخرف وتزين من الداخل فقط .

وأروقة المسجد لا تعرف رواقاً رئيسياً وآخر فرعياً أو جانبياً كما هي الحال في الكنائس ، وهي لا تعرف مذبحاً وتنكر كلّ ذلك إنكارها لتقديم طبقة مباركة كهنوتية على غيرها من الناس . فالقبلة ليست كالمذبح فهي لا تحمل أيّ معنى أو مضمون سوى تحديد اتجاه المصلين. والصلاة للجميع على قدم المساواة . فيقف العالم بجوار السقّاء وقائد الجيش بجوار الجندي . والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين يركع مع ماسح الاحذية فالكل سواسية كأسنان المشط . وقد كان هذا الأساس الديموقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيداً من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات .

ولعدم اهتمام العرب بالشكل الخارجي للمساجد ، وجهوا كلّ اهتمامهم لتزيينها من الداخل . والمساجد لا تعرف رقصات المعبد ولا التراتيل والصور والروائح المباركة ، وهي لا تقرّ البهرج ولا الأبهة ولا الألوان الزاهية كوسيلة للتأثير على المؤمن وجذبه إلى التأمل بالسماوات . وبينما الكاتدرائيات القوطية تمجد كلّ ما هو سماوي وتضع كلّ الفنون في خدمته فإننا نجد الإسلام لا يهتم بتلك المظاهر. إنها بيئة الصحراء القاحلة قد ربّت العربي على البساطة ، وحببت إليه الرياضيات . فالصحراء في تشابه اجزائها تبدو كوحدة متميزة تتكرر إلى ما لا نهاية دون أن تنتهي بعمق خاص .

والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعياً أو حسياً فهو بيت الله والله لا يحده زمان أو مكان ، لا يُرى ولا يتصور ولا يشبه البشر . واحد لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد .

وتمتع فن البناء العربي « Arabeska » بميزاته البسيطة وأشكاله الهندسية البديعة تلتفّ وتتكامل في ذاتها ؛ أساسها الوحدة المميزة تتكرر مراراً. لانهاية لها ولا بداية . وهي لا تحبّ الإسراف في الترف ولا البهرج الزائد ؛ كل شيء محدد الشكل تام الوضوح منظم مرتّب .

لقد تعمق جوته في دراسته للأفكار العربية بدرجة أن ما كتبه تقريظاً للشعر العربي يصلح تماماً لوصف الارابيسكا (فن النقوش العربية) ؛ ذلك لأنّ الفكر العربي وقواعده الاصيلة متشابهه في كلّ الفنون والآداب . ويقول جوته مقرظاً الشعر العربي :

انت لا نهاية لك وهذا هو سر عظمتك
وانت لا بداية لك وهذه هي ميزتك
فاغنيتك دوّارة كقبة السماء
ونهايتك وبدايتك متشابهتان
والوسط يقود إلى النهاية التي هي البداية نفسها
إنك لمتكامل .

وظلّ فن البناء العربي على قوته يصبغ ويشكّل ما وجد في البلاد المفتوحة من فنون ويؤثر على الفن الجرماني والفن الأوروبي حتى عصر النهضة .

واخذ العرب كذلك عن الشرق تزيين الابنية بالكتابات لأن الفن العربي قد اهتم بها واتخذ من سور القرآن والاحاديث النبوية مادة لتزيين وتجميل الحوائط والعُمُد في القصور والمساجد . وليس ثمة في القرآن نص صريح على تحريم الرسوم والصور* فيما عدا الآية : « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » – الآية ٩٤ – . كما انه ليس ثمة شيء يتعلق بهذا التحريم لا في القرآن ولا في

---

* التعليق في ص ٤٨٧ .

احاديث الرسول . وفيما بعد فسّر رجال الدين الرسوم بأنها محاولة لتقليد الخالق وهذا ما يحرمه الدين . ولما كان هذا التحريم ليس نصاً من نصوص الدين فإن الكثيرين لم يتقيدوا به .

فمنذ القرون الأولى للاسلام ظهرت الرسوم على جدران القصور وسقوفها . كما رسمت اللوحات الفنية ونحتت تماثيل الأسود تصب الماء في النافورات المرمرية . فيرى الخليفة من مخدعه في قصر الصخرة في قرطبة نافورة خضراء جميلة يرقص حولها اثنا عشر حيواناً وطيراً صنعت من الذهب الخالص هي :

أسد وغزال وتمساح وعقاب وحية ونسر وفيل وحمامة وباشق ودجاجة وديك وصقر .

ولقد أبدع الفنان رسم تلك الصور عن الصيد والطراد كما لو كانوا قد غمسوا فراشيهم في ضوء الشمس ورسموا بها تلك اللوحات الجميلة .

★ ★ ★

وزُينت القصور بالرسوم والتماثيل للطيور والحيوانات والنباتات والبشر أيضاً . وقد وجدت حتى في مسجد قرطبة رسوم لسور من القرآن تمثل قصة اصحاب الكهف وصوراً لغراب نوح . كما انتشرت رسوم الأسود والنسور .

وبفن البناء العربي تأثر الغرب في تزيينه للسقوف والأقبية والأركان والعمد المستديرة . ولم تعد العين لترى البناء نفسه من كثرة ما فيه من عقود وزينات . وحتى الحيطان لم تعد جرداء . ومثلت التأثيرات الفارسية في هذا دوراً كبيراً لا يستهان به . وكما اخذ الاسلام عن الفرس الأقواس المدببة العالية ، وأحلها مكانة مرموقة في فن البناء العربي ، كذلك أخذ الغرب عن العرب ذلك وسموه بالطراز القوطي .

وينتقل هذا الطراز الاسلامي الى اوروبة المسيحية من سامرّاء مقر الخليفة

على دجلة ومن جامع ابن طولون بالقاهرة عن طريق صقلية ومن صقلية الفاطمية والنورمـــانية الى بيزا والى كنيسة ديزيديروس Desidcrius بمونت كاسّينو . كما ساهم في نشره كهنة اسبانية وخاصة رئيس الدير هوغو فون كلوني .

وكان رئيس الدير هوجو قد زار كنيسة مونت كاسينو عام ١٠٨٣ م . وشاهد اقواسها العالية المدببة التي بناها Desidcrius دسيداريوس بمساعـــدة العمال الغربيين والمهندسين العرب فأعجب أيّما إعجاب ، وأمر كهنته بتعلم هذا الفن . وكلوني تقع جنوبي البرانس على الطريق المؤدي الى مقـبرة سانتياجو في الجزء المسيحي من اسبانية . وعلى طول هذا الطريق الذي يبدأ من بـــاريس ويعبره كل عام آلاف من الحجاج المسيحيين أقيمت الكنائس الرائعة على الطراز العربي ، واغلبها كان هدية من ملوك اسبانية غير المسلمين .

وعندما استردت الاندلس من المسلمين عين رئيس الأساقفة والكهنة من الفرنسيين، وقدّم امراء اسبانية المسيحيون ولاءهم لرئيس كنيسة كلوني وقدّموا له الجزية . ولم تكن الجزية التي دفعوها مجرد اموال بل شملت كذلك العديد من الهدايا العربية مما سباه المسيحيون عند طرد العرب . وبمساعدة ألفونس السادس المالية استطاع هوجر انيبني كنيسة ضخمة رائعة في كلوني ، وأمر بإقامة قداس على مذبح معين منها تذكاراً لألفونس الذي تبرع بالمال .

ولم تقتصر الأقواس العالية المدببة في الغرب على مجرد كونها أداة للتزيين كما كانت الحال عند العرب ، بل صارت في بيزا وكلوني ومونت كاسينو فكرة أساسية في البناء ، واصبحت هي الأساس الأصيل للفـــن القوطي . واصبحت الكاتدرائيات على الطراز القوطي بأقواسه العالية المدببة طراز العصر ،واحتلت مكانة لم تحتلها في يوم من الايام الاقواس الرومانية المستديرة .

ولم تقوم تلك الاقواس القوطية بمفردها ، بل جلبت معها من اسبانية أنواعاً أخرى من الاقواس اهمها الاقواس التي على شكل الزهرة ذات الورقات .وجلب

ذلك الطراز من الاقواس معه ما نقله العرب عن الساسانيين من نوافذ صغيرة مستديرة الشكل .

ومن تجديدات القرن التاسع ، في فن البناء ، أخذ الغرب فكرة العمود المكوّن من عُمُد صغيرة . ومن القاهرة عبر ايطالية انتقلت الشرفات الصغيرة لتستقر فوق سطوح الأبنية القوطية . كما أخذ الطراز القوطي عن الطراز العربي شكل المآذن بقاعدتها المربعة يعلوها جزء مُثمن الأضلاع يعلوه جزء مستدير. فبنوا على هذا الطراز أغلب ابراج الكنائس .

من هذا نرى أن الطراز القوطي الذي عمّ اوروبة كلها عربي الاصل تماماً . ومن يريد صحة هذا فعليه فقط ان ينظر إلى أيٍّ من كنائس هذا العصر التي لا تزال ماثلة حتى اليوم .

ومن يريد الحكم على هذا ، ينبغي له ألاّ ينظر الى الاحجار ومصادرها بل يجب عليه أن يلاحظ اقتباس الافكار وتطورها ، وسواء كان ذلك في فن البناء او في امور الفكر او الدين او الاقتصاد . ومثل هذا الاقتباس لا يمكن لشعب متطور ان يستغني عنه وهو لا يثبت العيب ، بل خلاف ذلك هو الصواب ، إذ انه يثبت حيوية الشعوب وقوتها على الابتكار والتطوير ، طالما هي لا تمّحي ولا تفني شخصيتها فيما تقتبس .

واذا كنا نقول ذلك عن الفن القوطي ، فان واجبنا كذلك يحتم علينا أن ننصف الحضارة الإسلامية بالمنطق نفسه .

ولكننا تعودنا ان نقيس بمقياسين ، سواء في العلم او في الفن . فنحن الغربيين حين نقيّم الحضارة الغربية ننظر بعين الاعتبار إلى منهجها وليس إلى مصدرها ، وحين نذكر الحضارة الغربية نقتصر على ما ينبع من الحضارتين الإغريقية والرومانية ونهمل ما عدا ذلك من المصادر الأخرى .

إننا ندعي أن فننا القوطي لا يحمل من الفن العربي إلا النزر اليسير ، وأن الفن الروماني ليس تطوراً للفنون الشرقية القديمة وفنون آسية الصغرى ، وان صور الحيوانات ، في الفن الجرماني ، ليست في الأصل فناً آسيوياً . ولا يمنعنا هذا من التمادي في الادعاء بأن الفن العربي ليس إلا تجميعاً للفنون البابلية والبيزنطية والفارسية . إلى متى نظل متمسكين بتلك الآراء الخاطئة ؟.

ومن ملتقى الفكر الاسلامي العربي يندفع تيار فني إلى انجلترا مباشرة ، فيظهر الفن العربي في القرن الرابع عشر بصورة واسعة خاصة فيما يتعلق بالنوافذ وتزيين الجدران . ويزدهر في انجلترا طراز تيودور Tudor Stil وخاصة قوس تيودور 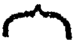 وقوس كيل 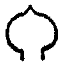 اللذان اشتقا عن الجامع الازهر بالقاهرة الذي اشتهر كذلك باقواس (بردعة الحمار) 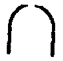 والاقواس ذات الجيوب 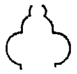

ومن الجزيرة البريطانية انتقل طراز تيودور الى الولايات الاميركية وأصبح طراز البناء الشهير للجامعات . ولقد لقي فن البناء العربي في صقلية عناية فائقة من قبل النورمان جعلته يبلغ أقصى درجات الازدهار ويعم إيطالية كلها بل كلّ مدينة كبيرة تاجرت مع العرب وعاملتهم .

ولم تكن البندقية فحسب ، هي التي ارتبطت بالعرب ارتباطاً كبيراً . فإن مدينة كبيزا بلغت ، نتيجة معاملاتها مع العرب ، شأناً كبيراً فأصبحت من أولى موانىء البحر المتوسط بعد ان كانت ميناء متواضعاً . وبعد ان اتحدت بيزا بأسطول جنوا لطرد العرب من سردينية قامت بمعاونة النورمان للاستيلاء على صقلية العربية . وفي عام ١٠٦٣ م . بدأت بيزا في بناء كاتدرائيتها الفضية مستعينة في ذلك بالكنوز التي حصلت عليها كغنيمة من العرب ، بعد سقوط بالرموز ، والبناء كله ينطق بأثر الفن العربي . وأخذت عن فن البناء العربي المزدهر في صقلية فكرة مزج المرمر الأسود بالأبيض في تزيين حنيات الأقواس،

وبدا الفن البورجندي كأنما يتخذ من الفن العربي نموذجاً له في التزيين والحواشي والشرفات والحيطان المرمرية والاقواس العربية المدببة وقاعـات العُمُد ومزج الالوان .

واتخذت ابراج كنائس عصر النهضة في ايطاليا شكلها عن المآذن الاسلامية ، كما استطاع اورن مهندس المباني الانجليزي أن يقتبس عنها اشكال الأبراج والقباب الشهيرة التي بناها . كما اتخذ عصر النهضة أشكال القواقع للزخرفة كما كان شائعـاً في المساجد والمآذن .

وكان للحروب الصليبية دورٌ هام في تطور نظام بناء الحصون وطرق الدفاع في المانية وبورجندية وفي بناء قصور الانجليز وتحصينات الفرنسيين . وكان أبرز تلك الطرق الدفاعية في الحصون الممرات المسقوفة التى تقلل من خطر أي هجوم ، والمزاغل البارزة التي تمكن من الحركة الجانبية مثلها مثل ابراج السور . وتلقّـف الغرب بسرور بالغ اختراعاً عربياً آخر من عصر الجاهلية وهو بناء نوع من الشرفات يُمكِن من خلال ثقوب منتظمة في قعره صب الزيت او القطران المغلي على اجساد الجنود المحاصرين للقلعة .

وأخذ فرسان الحروب الصليبية عن الشرق عادته في تغطية الأبراج بخوذ من الصخور ، ونشاهـد ذلك في حصن Laarne لآرنا في بلجيكا وحصن رودل في المانية . وحماسة فرسان الحروب الصليبية في فورمز « Warms » لكل ما هو شرقي ، غطت ابراج كنيسة القديس بولس بتلك الخوذ الحجرية ونحتت في داخلها رسماً لسفينة الحروب الصليبية . وبرغم عدم إمكان رؤية جمال تلك الخـوذ لشموخها عالياً وسط سماء دائمة التلبد بالغيوم فإنهم لم يكفوا عن تقليدها في بقية انحاء المانية .

ولم يبقَ الآن من الاعمال العربية العظيمة في اسبانية إلا النزر اليسير . ومن تلك الآثار الخالدة التي لا زالت تحتفظ بطابعهـا العربي قصر الحمراء ، تلك

الجوهرة الثمينة التي كانت قصراً للأمير في غرناطة . ولقد بقي قصر الحمراء ومن حوله عدد من قصور الأمراء حتى اليوم . كذلك تزهو اشبيلية بما تبقى فيها من الجيرالدا Ciralda التي كانت برجاً لرصد النجوم والأفلاك . ولم يكن لها درج للصعود بل كان الصاعد اليها يسير في طريق يرتفع به رويداً رويداً ، حتى ان الفارس كان يستطيع الوصول اليها وهو راكب فرسه ، وكانت واجهتها تلمع بالزجاج الملون وفيها الممرات تحيط بها العُمُد مما نراه في الفن القوطي .

وكان الجامع الكبير الذي بدأ عبد الرحمن الأول في بنائه في قرطبة من أهم المباني الفاخرة التي زهت بها الاندلس . ولكن ، بكل أسف ، فان الكنيسة القائمة مكانه اليوم لا تظهر شيئاً مما كان عليه من عظمة . لقد حوى هذا المسجد ١٤٠٠ عمود من أقواس الدائرة Ω . ويتدلى من السقف المصنوع من خشب الارز ٤٧٠٠ مصباح من الفضة لتضيء تسعة عشر رواقاً طولياً تتقاطع مع ثلاثة وثلاثين رواقاً عرضياً .

ولقد أتمّ الخليفة الورع هشام الاول اكبر ابناء عبد الرحمن البناء الذي بدأه والده ، والذي كان يحوي احد عشر رواقاً كما بنى المئذنة المشهورة . اما الحَكَم الاول فكان محباً للملذات ، ولم يهتم بالمسجد وأبقاه على حاله ولم يضف اليه شيئاً ، الى ان تعهده عبد الرحمن الثاني ، وكان محباً للفنون بعنايته ، فزاد من مساحة الأروقة وبنى له محراباً ثانياً . فقضى بأعماله هذه على بطالة كانت قد بدأت تتفشى بين العمال . وزيّن ابنه محمد الاول الجدران والأبواب وفصل ، بسور ، جزءاً من المسجد كمقصورة خاصة له . وبنى خليفته عبد الله ، وكان مشهوراً ببخله وطغيانه ، ممراً مسقوفاً يصل قصره المجاور للمسجد بالمقصورة . وخلفه عبد الرحمن الثالث ثم الحكم الثاني وهما اعظم حكام الاندلس ، فانتقلا بها من مجرد إمارة إلى ان اصبحت خلافة واسعة . ولقد بنيا مئذنة جديدة بعد ان حطمت الزلازل المئذنة القديمة . وزادا المسجد اتساعاً في اتجاه الجنوب ، وبنيا مقصورة

جديدة ومحرابا آخر . وأضاف المنصور اثناء وصايته على هشام الثاني ثمانية اروقة للمسجد من الجهة الشرقية مما استلزم هدم عدد من المنازل المجاورة دفع لأصحابها ، على عادة العرب ، تعويضات باهظة .

وهكذا صاحب ازدهار فن البناء دولة الامويين في اسبانية في طريق مجدها . ولم يقتصر اهتمامهم على فن البناء فحسب بل تعداه أيضاً الى الموسيقى .

تعليق : أوردت المؤلفة في الصفحات السابقة ، كلاما يوحي بأن الاسلام لم يحرم الصور والنحت . والصواب أن الاسلام حرم التماثيل بإجماع علماء الدين الاسلامي . أما الصور المسطحة فقد اختلفوا في حلها وحرمتها ، هذا بالنسبة لتصوير ذي الروح . أما الجماد ، كالبنات وغيره فتصويره حلال بالاجماع ، سواء بالنحت أو بالرسم .

الفصل الثالث

الحيــاة على نغمات الموسيقى

لقد أثار الرجل المسافر في كانون الاول (ديسمبر) عام ٨٢٢ م ،الى الاندلس على سفينة حملته من سبتة عبر مضيق جبل طارق، انتباه جميع المسافرين بشكله الغريب اللطيف . لقد كان يرتدي قبعة فروية فوق شعره المقصوص بشكل دائري ، تغطي جبهته حتى الحواجب ولا تترك من وجهه ظاهراً سوى أذنيه . ولقد اعجبهم فيه عثنونه المدبب المائل الى الحمرة ونظرات عيونه الوضّاءة كما جذبتهم اليه رائحة طيب نفاذة ذكية .

ولقد سافر الرجل معهم بنسائه الجميلات وأطفاله يملأون الجو صراخاً وصخباً . لم يكن ذلك المسافر بحاجة الى ان يترك بغداد عاصمة الشرق بنسائه وعياله ، فان كرم الرشيد وتكريمه للعلماء والفنانين كان قد بلغ حينذاك ذروته . ولكن الحقد والحسد أفسدا على زرياب فرصته هناك .

لقد اراد اسحق بن ابراهيم الموصلي ان ينال حظوته عند الرشيد بتقديمه لتلميذه زرياب . وكان اسحق قد بَزّ كل حانات الكوفة بمدرسته الموسيقية التي ضمت اجمل الجواري ، والتي كان يعلم فيها تلاميذه وتلميذاته على السواء اصول الموسيقى .

وكان الفتى الكردي زرياب ألمع تلاميذ مدرسته . فقد امتاز بقدرته الفائقة

في الموسيقى والجدل والفكاهة فضلاً عن لسان سليط ورأس مفكر .

وعندما سأله هارون الرشيد عن فنه في الغناء أجاب زرياب : « إنني استطيع الغناء تماماً كما يستطيعه الآخرون ولكنني استطيع شيئاً لا يقدر عليه غيري . ان فني الخاص لا يفهمه إلا من تبحر في فن الغناء مثل مولاي الخليفة . فان أذنتَ لي غنيت أمامكم ما لم يغنه احد من قبل » .

وهنا ناوله إسحق عوده ليعزف عليه ، ولكن زرياب تناول عود معلمه ونظر اليه كما ينظر الانسان لحذاء بالٍ ثم قال للخليفة : « إن شاء مولاي سماع أغنية من طراز ما يغني معلمي فسأعزف على عوده . وإن شاء مولاي معرفة نوع الغناء الذي ابتكرته فيجب ان اعزف على عودي الذي صنعته بيدي . »

وبإذن من هارون عزف زرياب على عوده الخاص وغنى قصيدة ألّفها هو في مدح الخليفة .

وسُرّ الخليفة ايما سرور ، وكان لا بد وان يزين بلاطه بذلك الصوت الشجي . وبلغ الغضب بمعلمه اسحق مبلغاً كبيراً لأنه قد أهانه في حضرة الخليفة واستصغر من شأنه فلم يكادا ينفردان بعد ان انصرفا من عند هارون الرشيد حتى صاح في زرياب : « لقد حاولت النيل مني عند الخليفة . وعليك الآن ان ترحل من هنا فأعطيك ما تشاء من مال وإلا فستكون في خطر على حياتك ومالك » .

وما إن ابدى الخليفة رغبته في رؤية زرياب مرة اخرى حتى رد عليه اسحق قائلاً : « ان زرياب مسكين تنتابه حالات جنونية فيدّعي انه لا مثيل له في العالم . لقد رحل ، لأن مولاي لم يعطِه ما يناسبه من الأجر . وليحمد مولاي الخليفة ربه انه تخلص من هذا المخلوق . . »

ولم يجد زرياب امامه منفذاً بعد هذا الحادث الذي حال بينه وبين الرشيد إلا ان يكتب للحَكَم في قرطبة وجاء رد الحكم يحمل سروره ورغبته في ان

تضم حدائق قصره مثل ذلك البلبل .

ولكن زرياب لم يكد يطأ ارض الاندلس حتى وافاه الجند بوفاة الحكم . ورأى زرياب سوء الحظ يطارده فعزم على العودة الى شمالي افريقية . ولكن رسول عبد الرحمن الثاني قدمَ اليه يدعوه لمقابلة الخليفة . ورأى زرياب في اهتمام الرسول به وفي الحصان المطهم الذي ينتظره بشائر خير تقترب فقبل الدعوة شاكراً .

... وبعد ان استراح زرياب ثلاثة ايام في قصر الامير من وعثاء السفر استقبله عبد الرحمن احسن استقبال . وكما يفعل كل سيد اصيل ، عرض على زرياب مرتباً شهرياً كبيراً عدا ما وعده به من الهدايا والمنح . وما ان انتهى من مسألة الأجر حتى طلب منه ان يغني امامه مقطوعة . وغنّى زرياب فأبدع وسر الخليفة سروراً عظيماً .

وحظي زرياب عند عبد الرحمن بمكانة عالية، فقد وجد في العشرة الآلاف من الأغنيات التي كانت ذاكرته تغنيها بألحانها اخصب مادة للحديث مع الأمير فضلاً عن علمه الواسع بالفلك والجغرافية . وكان زرياب يسحر سامعيه بما يحكيه عن البلدان وعادات سكانها . واعجب القوم بقدرته الفائقة على الفكاهة وأناقته فأصبح مثالاً يُحتذى . فما يفعله او يلبسه هو اليوم يقلده فيه الآلاف غداً . فعنه تعلّم الناس اناقة الملبس وتنويعه مع فصول السنة. وكانوا يلبسون الثياب الخفيفة القاتمة الالوان في الربيع والملابس البيضاء في الصيف والمعاطف والقبعات من الفرو في الشتاء .

وجدد زرياب في الاطعمة المعروفة وانتشرت وصفات جديدة ابتكرها هو كما ادخل الى اسبانيا خضروات لم تكن شائعة . واصبح زرياب نجم المجتمع بلا منازع .

وعرف الناس مكانة زرياب المرموقة لدى عبد الرحمن فلجأوا اليه بأمانيهم

ليوصلها إلى أذن الأمير الذي بالغ في إكرامه وأنشأ له مدرسة للموسيقى ليعلم فيها العالم المتحضر عملياً ونظرياً فن الغناء واستعمال أدوات الموسيقى .

والعرب منذ القديم شعب يحب الغناء ، تصحبهم الموسيقى من المهد الى اللحد . عبروا عنه ملء مشاعرهم بالغناء والموسيقى في عملهم ولهوهم ، في سرورهم وآلامهم ، في حبهم وحروبهم ، في لذاتهم وثأرهم ، في حزنهم وأفراحهم .

فقد عرفوا المغنين والمغنيات قبل الإسلام ، وكانت المغنية ضرورية في بيوت الأثرياء احتلت نفس المكانة التي احتلها البيانو في القرن التاسع عشر أو التي يحتلها جهاز الراديو في بيوتنا اليوم .

ولم يكن للموسيقى العربية تلك الرتابة الغريبة على اسماعنا . فلم تبدأ تلك الأغاني على وتيرة واحدة إلا بعد تخريب بغداد على يد المغول . وهنا بدأ نظام الربع نغمة وهو ليس في الأصل بعربي .

فالالحان العربية ، على النقيض من هذا تماماً ، غنية ممتعة ، شأنها في ذلك شأن كل فنون الزينة عند العرب في البناء وغيره . واستخدم العرب حتى القرن الثالث عشر السلم الموسيقي الذي وضعه فيثاغوروس ، والظاهر أن هذا السلم ساميّ الاصل دخلت عليه تأثيرات فارسية وبيزنطية . وما كان لهذا السلم المستورد أن يحلّ محل الموسيقى العربية وانما طُعّم بجذور عربية لينبت نبتاً جديداً .

وكان طابع الموسيقى العربية المميز هو الإيقاع المنتظم. والايقاع ليس طابعاً ضرورياً لكل أنواع الموسيقى ، كما قد يتبادر الى الأذهان . فموسيقى الأغاني عند الرومان والإغريق لم يكن طابعها الإيقاع بل قسمت تماماً كأشعارهم تبعاً للطول والقصر . ولم يكن الإيقاع طابع موسيقى الكنائس المتتابعة اوائل العصور الوسطى بل ولم تكن تقسم حسب الطول والقصر . فالايقاع شرقي أصيل وهو الذي أدى الى تنظيم حقول النغم . والكندي فيلسوف العرب هو اول من

وصف ذلك في منتصف القرن التاسع .

وعن طريق المغنين الدائمي الترحال ، والسبايا من نساء الاندلس بدأت النظريات العربية الاسبانية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . كما ورث الغرب عن العرب زخرفة الالحان .

وبقي العرب لموسيقاهم أوفياء ، وكان حبهم لموسيقى الغناء اكبر من حبهم للموسيقى الآلية . وبرغم هذا فإن اوروبة مدينة للعرب بالكثير من الآلات الموسيقية ، خاصة بعد ما قدمت لها بيزنطية الأرغن والسنطور والهارب .

وعندما يقف قائد الجوقة الموسيقية اليوم (المايسترو) ليعزف سيمفونية لبروكْنز Brucknes او لهندْميت Hindmith فعليه أن يذكر أن الآلات المرصوصة امامه اغلبها عربي الاصل . وردت الى اوروبة محكمة الصنع عبر إسبانية تحمل معها اسماءها للعالم الغربي فمن الآلات الوترية : العود والماندولا والماندولينا والبندورا .

ومن الآلات الوترية ذات القوس : الربابة والربك Rebec والربيبة .

ومن آلات النفخ : الناي الصغير والناي الخشبي ذو المبسم ، والنفير Trompete والتنبول Tymbol والبوق Horn والهورن .

ومن الطبول : الطبل والطبلة والصنوج والنقارة .

وقد صمم الفارابي ، وهو ايضاً من علماء الموسيقى العرب ، في النصف الاول من القرن العاشر **القانون** ، والقانون الذي هو اصل البيانو فيما بعد . وصمّم الكثيرون غيره ، ومنهم زرياب عدداً آخر من الآلات الموسيقية ، وكان هذا هو السبب الذي دعا زرياب لأن يحتقر شأن عود معلمه ويصمم على العزف على عوده الذي صمّمه بنفسه وأضاف إليه وتراً خامساً .

وبينما كان العازفون في الغرب يعزفون على الهارب والسيتار والسنطور معتمدين على السماع فقط ، كان الطَّلَبَة في مدرسة زرياب يعزفون بإتقان على العود والجيتار بالعَفْق على الدساتين لتحديد درجة كل نغمة ؛ ولهذا لقيت الموسيقى العربية في الشرق رواجاً كبيراً وخاصة العود منها . وقاد العرب الغرب الى الموسيقى المتعددة الأصوات (الهرموني)بالعزف على اكثر من وتر. واثرت موسيقى الخصيان وطبقات اصواتهم الحادة على الموسيقى الاوروبية عن طريق القالب الفني الوارد من الاندلس في الفترة ما بين القرنين الثامن والثاني عشر .

وعلى الرغم من أن الموسيقى العربية ارتكزت على أسس إغريقية ، فإن العرب ، دون ما نظر إلى شهرة مؤلفيها وأسمائهم الطنانة ، قد وضعوها موضع الاختبار وصححوها أو زادوا عليها وجملوها .

وظهر بين العرب صف طويل من الموسيقيين . وإنه لمن دواعي الأسف ألاّ يترجم من اعمالهم إلا القليل . وحتى أن هذا الكنز اليسير الذي ترجم ، اختير جزافاً ، فهو لا يمثل انتاجهم الفني تمثيلاً صادقاً .

وللعرب فضل كبير على إلهام الموسيقيين الغربيين التالين كثيراً من الحانهم :

Gundisalvus , Vincent de Beauvais , Johanns Aegidius , Robert Kilwardly , Ramon Sull , Simon Tunstede , Roger Bacon and Adam Von Fulda

ولقد بقي ما كتبه ابن سينا والفارابي مرجعاً للموسيقيين حتى القرن السابع عشر . ومنها تعلم الغرب العلاقة بين النغمة ٥ : ٤ وهي مسافة الثالثة الكبيرة و ٦ : ٥ للثالثة الصغيرة .

وتطوروا من ذلك الى النغمة الهرمونية التي تأنس لها الآذان . واهتم الكونت هرمانوس كونتراكوس بمؤلفات الكندي الموسيقية ونقل عنه كتابة

النوتة الموسيقية ، وهو يعتبر الكندي من أئمة علماء الموسيقى . اما المقاطع الصولفائية :

فا (Fa) مي (Mi) ري (Re) دو (Do) سي (Si) لا (La) صول (Sol) التي يقال ان الموسيقي الايطالي جيد فون أرينزو قد أخذها عام ١٠٢٦ م . عن نشيد يوحنا . فمن المحتمل جداً ان تكون مأخوذة عن الاحرف العربية .

دال راء ميم فاء صاد لام سين

التي نجدها مع غيرها في مقطوعات من الموسيقى اللاتينية في القرن الحادي عشر .

ولنعد الآن ثانية إلى زرياب الذي عاش في بلاط سيده عاشقاً الفنون في الاندلس يتمتع بمكانة عالية . لقد جلبت عليه تلك الحظوة حسد الكثيرين ، وفي مقدمتهم يحيى بن الحكم المعروف ، لجماله ، بالغزال . وكان الغزال شاعراً لامعاً من شعراء الحَكَم الاول ، ولكنه كان قد صمم على أن يحمي مركزه الذي ناله في القصر ، حتى ولو كان هذا المنافس زرياب نفسه . ولم يكن هناك مفر من حدوث النزاع بين الغزال والبلبل القادم من بغداد . ولم تلبث أن اتسعت شقة الخلاف بينهما واتخذت شكلاً خطيراً . وليحسم عبد الرحمن النزاع بعث بالغزال الى القسطنطينية . وهناك نال الغزال الأنيق اللبق حظوته بين رجال البلاط وسيداته وخاصة لدى القيصرة التي تمنت ان تبقيه دواماً في بلاطها .

وعاد الغزال الى قرطبة بعد ذلك النجاح منتفخ الأوداج ليلتقي ثانية بخصمه ، وليبدأ النزاع بينهما أفظع مما كان . فما كان من عبد الرحمن إلا ان ارسله مبعوثاً له لدى ملك النورمان الذي كان عبد الرحمن يرغب في مصالحته . وهناك وجد الغزال متنفساً لشيطان شعره في عديد من اغاني الغزل الشجية ألقاها في حضرة ملكة النورمان ونسي فيها صراع قرطبة .

وكان غياب الغزال عن قرطبة فرصة أتاحت لزرياب ان يوطد مركزه وأن ينسي القوم ذلك الغزال الشارد . ولكن الغزال ما كاد يعود الى قرطبة حتى بدأ

حرباً لا هوادة فيها ضد زرياب . وهجا زرياب بقصيدة لاذعة جعلته موضع السخرية . فما كان من عبد الرحمن إلا ان طرده من بلاده .

ولم يجد الغزال أمامه من طريق سوى ذلك السبيل المؤدي إلى درة الشرق بغداد . فسلكه برغم عدم تقدير الناس هناك للقادمين من الاندلس . ولكن الغزال تمكن بلباقته من ان ينال في بغداد حظوته مثلما كتب لزرياب النجاح في قرطبة .

الفصل الرابع

زينة الدنيا

عندما يذكر العربي كلمة الأندلس، وحينما يحلم بجنة الله في أرضه، لا بُدّ له من أن يتذكر فترة حكم عبد الرحمن الاكبر من ٩١٢ – ٩٦١ م . لقد وهب الاندلس ، في شخص عبد الرحمن الثالث ، مثالاً طيباً لما يجب أن يكون عليه الحاكم .

لقد خلَق عبد الرحمن في الخمسين عاماً التي حكمها من الأمة المنقسمة على نفسها دينياً وجنسياً ، شعباً متحداً قاد العالم في طريق التقدم والرقي .

ولم تستطع الخلافات السياسية ولا الصراع الداخلي بين المتحررين والمتحفظين في الداخل من أن يمنع الحضارة المزدهرة أو يعوق تقدمها .

واستمر مستوى المعيشة في الارتفاع ، بفضل المجهود الكبير الذي بذل في التعمير وريّ الاراضي . وعرفت عين العرب الخبيرة قيمة الكنوز التي يمكن اكتسابها من ارض الاندلس لو احسن الانتفاع فيها . فحفروا الآبار واختطوا السواقي التي تراوح محيط عجلاتها بين عشرين وثلاثين متراً . وتلقوا مياه الجبال المتساقطة في احواض كبيرة بلغت مساحة بعضها خمسة كيلومترات مربعة تختزن المياه لوقت الحاجة تخرج في قنوات ضخمة توزعها على الحقول حسب الحاجة . وهكذا عمروا مرتفعات وسفوح جبالٍ ما كان احد يظن أنه يمكن أن يستفاد

منها في الزراعة لجفافها الدائم . وعلموا المزارعين طرق زراعة ورعاية التفاح والخوخ واللوز والمشمش والبرتقال والكستناء والموز والنخيل والبطيخ . كما اهتموا اهتماماً خاصاً بالقطن وقصب السكر وغيرها من النباتات والأشجار التي ما زالت حتى اليوم تمثّل جزءاً هاماً من صادرات إسبانية . وما فتئت حتى اليوم اسماء كثيرة من الأدوات في الحقل الاسباني تحمل اسماء عربية . ولم يترك العرب شبراً من الأرض الا واستثمروه .

وبفضل كل تلك الجهود في الزراعة كانت الأرض ، زمن عبد الرحمن الثالث ، تنتج ثلاثة او اربعة مواسم كل عام . واهتم الشعب العربي خاصة بتربية الحيوان وهو الذي ألِفَ طوال حياته الإبل والخيل . وكان العرب اول من أجرى التجارب ومارس التفريخ الصناعي مما نعرفه نحن اليوم في القرن العشرين .

كما اهتم العرب بالمناجم التي ظلت آلاف السنين لا تُمس منذ استغلها الفينيقيون القدماء . واستخرج العرب منها كميات هائلة من الحديد الخام والنحاس والزئبق. وبدأت صناعات عدة تنتشر في جميع انحاء البلاد مما لم يكن للغرب فيها أية دراية . واصبح كل اندلسي يركب بغلته مختالاً وقد اراحه الخير العميم من عناء السير الشاق على الأقدام . وجذبت الأجور العالية في الأندلس آلافاً من العرب من جنود وزراع وصناع وتجار لينعموا بذلك الرخاء وليأكلوا ما طاب لهم من خضر وفاكهة وبقول بأثمان زهيدة . وزاد عدد السكان في الجزء العربي من إسبانية عام ٩٥٠ م على ٣٠ مليون نسمة . وانتشرت حول قرطبة آلاف من القرى وقد عمها جميعاً رخاء وازدهار .

ذلك ان الأندلس منذ فصلها الأمويون عن دار الخلافة ببغداد لم تعد ترسل للخليفة العباسي مالاً من دخل الضرائب والمكوس ، واستقلت بميزانيتها الضخمة لرفاهية اهلها . وكان للنظم الإدارية الدقيقة الممتازة التي وضعها عبد الرحمن الأكبر الفضل في تخفيض المصروفات التي تنفقها الدولة على شؤونها وتسليح جيشها الذي وصفه رسول القيصر أوتو الاكبر بأنه احسن الجيوش تنظيما وتسليحاً.

وقد ارتفعت مصروفات الدولة كلهـــا ، الأمر الذي حدا بعبدالرحمن ان يدّخر الثلث الثاني من إيراد الدولة واستغـــل الثلث الباقي في تشييد الجسور والمساجد وشق الطرق والقنوات مما قضى على البطالة ، وبقي على مر التاريخ ، أكبر شاهد على عظمته . وفي ذلك يقول عبدالرحمن نفسه :

إن الأمير المتطلع إلى المجد لا بد له من ان يبني مـا يبقى بعد موته شاهداً على عظمته . فلا زالت الاهرامـات ، على مر السنين ، تتحدث بعظمة بانيها . فالبناء الاصيل يسجّل اسم صاحبه في التاريخ .

وكانت مدينة الزهراء التي اسسها عبد الرحمن بالقرب من قرطبة بحدائقها الغنـــاء وقصورها الفاخرة المزينـــة بالذهب والمرمر والبـــلور وخشب الأبنوس والجواهر النادرة أكبر أثرٍ تركه من بعده ، يحكي قصة أمجـــاده وعظمة بلاده .

والزهراء كانت جارية لعبد الرحمن ، أحبها حباً شديداً . وكانت قد تركت عند وفاتها ، ثروة كبيرة*. اوصت بانفاقها في دفع فدية من بقي من المسلمين في الأسر عند الفرنجة . ولما فشلت مفاوضات عبدالرحمن مع الفرنجة لتحقيق رغبة حبيبته الراحلة انفق ثروتها على بناء تلك المدينة، وأطلق عليها اسم جاريته الحبيبة ليخلد ذكراها العزيزة . وظل عشرة آلاف عامل يبنون في تلك المدينة الرائعـة مدة خمسين عاماً متواصلة . وكانت مبانيها افخر مـــا عرفه ذلك العصر . ويروي عربي ان قصر الخليفة فيها « كان تحفة فنية رائعة اجمـــع كل من شاهدها من القادمين من مختلف البلدان على انهم لم يشاهـدوا في حياتهم اروع منها .. »

واحتذى سراة القوم حذو خليفتهم فأنشأوا آلاف القصور في كل انحاء البلاد كما أقاموا العديد من الملاهي والحدائق العامة حيث يستظل الناس تحت اشجار الزيتون والنخيل والعنب والسرو .

وفي المنطقة الواقعة ما بين سيرا نفادا وسيرا مورينا وُجدَ اثنا عشر ألف

---

* أنظر التعليق ص ٥٠٢.

بلدة منها ستة عواصم وثمانون مدينة كبيرة وثلثمائة مدينة صغيرة .

وبرغم هذا ظلت قرطبة سيدة المدن . وكانت بضواحيها الثماني والعشرين في عصر عبد الرحمن حول منتصف القرن العاشر أكبر مدن أوروبة كلها . وعلاوة على تلك القصور حوت قرطبة ١١٣،٠٠٠ منزل و٦٠٠ مسجد و٣٠٠ حمام و٨٠ مدرسة و١٧ مدرسة عليا و ٢٠ مكتبة عامة فيها عشرات الآلاف من الكتب . كان ذلك حال قرطبة في وقت لم يتجاوز فيه تعداد أي من المدن الأوروبية ٣٠ الف نسمة إذا استثنينا القسطنطينية . ولم يكن في هذه المدن أقليم أوروبي يملك مدرسة عليا أو مستشفى؛ كما ندر فيها وجود المكتبات العامة او الحمامات . ولم تعرف أوروبة آنذاك الشوارع المرصوفة بل كانت شوارعها ملأى بالقاذورات والوحل .

وبينما « جريدة كولونيا الالمانية » تصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز في عددها الصادر يوم ٢٨ مارس ١٨١٩ م ، بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الالهي « كانت شوارع قرطبة حوالي عام ٩٥٠م . تزدان بثمانين ألف متجر وتضاء ليلا بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل وتباشر فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران».

ومضى على ذلك قرنان من الزمان قبل أن تتخذ باريس عام ١١٨٥ م . من قرطبة مثالاً لها فترصف شوارعها ، وتنظفها . ومضى قرن آخر قبل أن تحذو بقية المدن الاوروبية حذو باريس . ومما لا شك فيه أن تلك الأمثلة العربية الحية كانت مثار إعجاب الزوار المسيحين للاندلس وأنهم قد نقلوها إلى بلادهم عبر البرانس .

وتسجل الراهبة الشاعرة هروزفيتا وهي في صومعتها بدير جاندرزهايم Gandersheim بسكسونيا ، إعجابها بقرطبة فتقول في اغنية جميلة :

« قرطبة المدينة الشابة هي زينة الدنيا .قرطبة شهيرة بجمالها فخورة بقوتها.

قرطبة هي التي حوت كل شيء تزهو به المدن ».

وجذبت بلاد الأندلس ، في أوج ازدهارها آلافاً من اليهود والمسيحيين إليها . ويذكر ابن الحجازي أن الطلبة من كل أنحاء الدنيا تدفقوا على بلاد الأندلس ، وعلى قرطبة بالذات ليتعلموا فيها ، خاصة أيام حكم الامويين بين القرنين الثامن والحادي عشر .

ولا شك أنّ الحركة العلمية في الاندلس اعتمدت بادىء ذي بدء على علوم الإغريق ومجهودات علماء بغداد والمشرق الإسلامي. ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكرياً . ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل أمثال الفيلسوف الكبير ابن رشد وابن زهر وابن طفيل الذي ترجمت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الاوروبية وابن باجة وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والفيلسوف العالمي ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع Soziologie والعالم الصوفي ابن عربي وابن سبعين (١) وغيرهم من الأعلام .

وكان للحَكَمَ الثاني أكبر الفضل في بدء تلك الحركة العلمية ، فقد اهتم اهتماماً كبيراً بتثقيف شعبه . وإذا كان ابوه عبد الرحمن قد اهتم بالسياسة والاقتصاد فقد جعل الحَكَمَ كلّ هدفه السير بالأندلس قدماً في طريق العلم والمعرفة ، ليتبوأ أعلى مكانة بين الامم المتحضرة . ولا تعني أنّ أسلاف الحَكَمَ لم يهتموا بالحركة العلمية ؛ لقد كانوا هم الذين جعلوا من كل مسجد مدرسة وأنشأوا في كل حيّ داراً للكتب وزودوها بمئات الألوف من الكتب التي جعلوها في متناول الجميع . ولكننا نعني أنّ الحَكَم قد بلغ الذروة بما قدّمه للعلم والعلماء ؛ لقد أنشأ على سبيل المثال سبعاً وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها أبناء الفقراء مجاناً ودفع من ماله الخاص أجور معلميها. كما ساهم بنفسه في كلّ نواحي النشاط العلمي والأدبي في قرطبة . واستغلّ الثروات الضخمة التي تركها له أبوه في الانفاق على الأبحاث العلمية وشراء الكتب . وانتشر رجاله في كلّ مراكز الثقافة الاسلامية

يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ويدفعون أغلى الاثمان بغية الحصول عليها ، بل وكانوا يصادقون تجار الكتب في كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور . وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلفيها أو ناشريها لتصدر في الأندلس قبل أن ترى النور في البصرة أو الموصل . فقد كان الحكم يجد متعة كبيرة في أن يكون أول قارىء لما يصدر من الأبحاث الجديدة .

وحكى القوم الكثير عن حب الحكم الجم للكتب ، فيقال إنه قد قرأ الاربعمئة ألف كتاب التي حوتها مكتبة قصره وأنه قد علق عليها جميعاً . بل وبعث بتعليقاته لمؤلفيها شخصياً . والواقع أنّ الحكم كان حجة في الأدب والتاريخ وجد فيه علماء عصره زميلا كفياً وراعياً كريماً ، فوفدوا إليه زرافات ووحداناً عبر البحر والصحراء .

وذخر بلاط الحكم بالعلماء والأدباء من كافة انحاء العلم الاسلامي بل والمسيحي ايضاً . ففي خلال فترة ولايته للعهد ، ألّف الأسقف جودمار الجيروني Godmar Von Gerona كتاباً بالعربية عن تاريخ الفرنجه . كما ألّف ربيع بن سعيد الأسقف كتاباً عن العلوم الطبيعية باللغة العربية ترجمه جرارد الكريموني Gerhard Von Cremona إلى اللاتينية . ولم يكن ربيع بن سعيد هذا إلا اسقف قرطبة ريكيداموندوس الذي بعثه عبد الرحمن الثالث عام ٩٥٥م كمندوب عنه للقيصر اوتو الأكبر .

ولم يكن الحكم الثاني هو حاكم الأندلس الوحيد الذي اهتم بالعلم كلّ ذلك الاهتمام ، فقد شاركه ذلك المجد عدد كبير من الامراء . فالمظفرّ ملك بطليوس اخرج مائة مجلة تحوي كل علوم عصره . والمقتدر ملك سرقسطة كان فيلسوفاً وعالماً فذّاً في الفلك والرياضيات . وتنافس الأمراء على الكتب والعلماء ولم يكن احد ليتولى ايّ منصب هام من مناصب الدولة دون ان يكون قد اثبت حبّه

وولعه بالعلم والكتب .

وانهارت دولة الامويين بالأندلس عام ١٠٣١ م . وانتهت خلافة قرطبة ، وبرغم هذا ، فقد بقي الامراء الجدد في اشبيلية وغرناطة في صراع دائم وتنافس شديد يحيون الآداب والعلوم والفنون .

وكان للشعر ، الذي هو للعربي بمثابة الماء والهواء ، حظ كبير في الاندلس وكان الامراء أنفسهم شعراء ممتازين .

---

* وهمت المؤلفة في أن الجارية التي تركت المال هي الزهراء ، والواقع أن جارية أخرى هي التي تركت « مالاً كثيراً » فأمر الناصر أن يفك به أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الافرنج أسيراً فلم يوجد . فقالت له جاريته الزهراء – وكان يحبها حباً شديداً – : « اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي .. الخ » .

انظر نفح الطيب للمقري ، طبعة عبد الحميد ٢ : ٦٥

الفصل الخامس

شعب من الشعراء

كان ذلك في مساء يوم من أيام الصيف الحارّة وقد خرج أهل اشبيلية يستنشقون نسمة لطيفة ويملأون ساحل النهر بضوضائهم . ولم يكن أحد لينتبه لفتاة تتستر بالظلام لتتبع عن كثب شابين يسيران الهوينا . ولم يكن أحد ليتنبه لهذين الشابين وهما يحثّان الخطو في ملابس عادية وقد شغلهما حديث ذو شجون أنساهما ما خلفهما وما حولهما . ولم يدر بمخيلة أحد من الناس أن هذين الشابين هما ابو القاسم محمد ولي العهد وصديقه الشاعر ابن عمار .

لقد كان أبو القاسم يجد سروراً كبيراً حين يتخفى في زي ابناء الشعب فيندمج بهم . ولم يكن يحلو له ذلك إلا في صحبة صديقه الوفي ابن عمار . ولم يكن ابن عمار اميراً ذا حسب ونسب بل كان شاباً فقيراً مغامراً ، كل بضاعته أبيات من الشعر يرتجلها بقدرة خارقة . وكان هذا هو ما حبّب فيه ولي العهد وهو نفسه شاعر ممتاز يهوى الأدب ويشغف به .

وكانت هوايتهما المفضلة هي ان ينظم أحدهما بيتاً من الشعر فيرد عليه الثاني ببيت آخر بالوزن والقافية نفسيهما او ان يقول احدهما صدراً فيجيز صديقه له البيت .

وفي تلك الأمسية من اماسي الصيف الحارة وبينما هما يسيرا الهوينا على

شاطىء النهر بدأ الأمير ينظم مطلع بيت الشعر ويطلب من ابن عمار ان يجيز فقال :

« نسج الريح على الماء زرد »

ثم وجه كلامه لابن عمار قائلاً : « أجز » .

ولكن ابن عمار أبطأ في الرد عليه ولم تسعفه قريحته ولا نَجَدَهُ شيطان شعره . وسادت فترة من الصمت الحائر قطعها صوت ملائكي جميل انبعث من خلفهما ليكمل لهما بيت الشعر الذي حار ابن عمار في إكماله، وكان ما جاءهما :

« اي درع لقتال لو جمد »

وبهت الشابان اللذان لم يشعرا بتلك الفتاة تتبعهما عن كثب إلاّ في تلك اللحظة التي تكلمت فيها .

وما كاد الأمير يلتفت اليها ويراها عن قرب حتى سحره جمالها الأخّاذ فدعى غلامه الذي تركه على مبعدة وامره بأن يذهب بالفتاة الجميلة إلى قصره . وعاد هو بأسرع ما يمكن للقياها . وفي القصر استقبلها الأمير باشاً وأخبرته ، في حديثها الطليّ ، بأنها تدعى اعتماد ولكنهم يسمونها الرميكية لإنها جارية رميك ، ترعى شؤون بغالهم وتشرف على مرعاها وإطعامها .

ولمس الامير في الفتاة ، خلال حديثه معها ، ذكاء وفطنة وسعة اطلاع ، وكلما زاد اليها تطلعاً زادت في عينيه جمالاً وبهاء . ولم يتروّ الامير لحظة في أن يخضع لسلطان الهوى ، فأعتقها وتزوجها .

ولما كان حب اعتماد قد ملك عليه قلبه فقد تسمى في ذلك اليوم بالمعتمد تيمناً باسمها . وأصبح ، كشاعر ، علماً بين ملوك العرب وخلفائهم .

ولقد ظلّ حبهما الذي بدأ بنظم بيت من الشعر مضرب الامثال ما دامت بهما الحياة . (٢)

لقد قام الشعر بدور كبير في حياة اولئك القوم . فصداقة الامير بابن عمار بدأت مثلاً بقصيدة من الشعر :

أدرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى　　والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد اهدى لنا كافوره　　لما استرد الليلُ منا العنبرا

وانقذت إحدى القصائد التي نظمها ابو القاسم ، حياته حين غضب عليه المعتضد ملك اشبيلية ورمى به في السجن فراح ينتظر الحكم بإعدامه ، لانه باهماله قد أفنى جيشه وخسر المعركة . وبرغم قسوة الملك وشدته فقد لان قلبه ، لشعر أبي القاسم ، وأطلق سراحه .

وجيء يوماً إلى المنصور بموظف شاب اختلس اموال الدولة . وسأله المنصور: « كيف سولت لك نفسك سرقة اموال الخليفة ؟ » وأجاب الشاب بحماقة : « القدر اقوى من الإرادة والفقر يغلب الفضيلة » . فغضب المنصور وامر بأن يكبل بالسلاسل ويزج به في السجن . ولكن ذاكرة الفتى اسعفته بأبيات من الشعر استدرّ بها عطف الخليفة المتيّم بالشعر فأمر باطلاق سراحه من قيوده وكانت تلك الأبيات هي الثمن الذي دفعه الفتى للتخلص من الأغلال للخليفة الذي كان يصطحب معه حتى في حروبه اربعين شاعراً من شعراء قصره .

وما ان سمع الفتى امرَ فكّ اغلاله حتى ارتجل ابياتاً يشكر فيها الخليفة ويتمنى ان تكون الجنة مقره .

وهنا امر الخليفة باطلاق سراح الفتى نهائياً ، وعدم تنفيذ اية عقوبة فيه ، وإعفائه من اعادة ما سرقه .

وحتى عامة الناس سلب الشعر لبهم . فيحكى ان رجلاً اسمه عبد الوهاب ، خرج مع صديق له من مالقة بغية التنزه سيراً على الأقدام . وفي الطريق ارتجل الصديق ابياتاً من الشعر ، ما ان سمعها عبد الوهاب حتى صاح صيحة

الاعجاب وخرّ مغشياً عليه من الانفعال ، ولما عاد إلى نفسه اعتذر لصاحبه بأن الشعر الجيد والوجه الجميل يخرجانه دائماً من إهابه فلا يستطيع ان يملك زمام نفسه .

وكانت اشعار ابن الخطيب هي سبيله الوحيد لاحتلال اعلى مكانة عند الأمير . وابن الخطيب هو الطبيب الفيلسوف الذي شرح للغرب وسائل مكافحة الطاعون وطرق العدوى . واشتهر ابن الخطيب بأشعاره واسلوبه الممتاز في كتابة رسائل الدولة لحكام البلاد الأخرى . ولقد قدّم لسيده ملك غرناطة اكبر الخدمات برسالتيه اللتين بعث بهما إلى سلطان مراكش واستدر بهما عطف السلطان ودموع رجال بلاطه فبعثوا لملك غرناطة بالمعونة المطلوبة التي أنقذت عرشه وبلاده .

واستطاعت القصيدة الرائعة دائماً ان تحقق المعجزات لدى شعب جعل من الشعر لغة التخاطب ، فأجاده الفلاح إجادة المتعلمين ، ونظمته الأميرات والخادمات على حد سواء ، وانسابت روائع القصائد من شفاه الجميع دون مشقة او جهد ، صياد السمك يتغنى بالأشعار والعامل البسيط يشغل وقت فراغه بنظم الشعر ، والفلاح يرتجله وهو يسير خلف محراثه .

ويخرج أبو بكر بن المنخل للتنزه مع ابنه الصغير ذات مساء بوادٍ ، ويسمعان نقيق الضفادع ، وجعل ابو بكر يقول لابنه : أجز :

تنقّ ضفادع الوادي

فقال ابنه :

بصوت غير معتادِ

فقال الشيخ :

كأنّ نقيق مقولها

فقال ابنه :

بنو الملاّح في الوادي

فلما أحست الضفادع بها صمتت ، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم

فقال ابنه :

إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ :

فلا غوثٌ لملهوف

فقال ابنه :

ولا غيث لمرتاد !

قصص العرب ١ : ٤١٣ .

وبين هذا الشعب الذي ألِفَ أطفاله نظم الشعر ، يصعب علينا اليوم أن نتحدث عن شعرائهم فالكل شاعر يقرض الشعر ويرتجله. وجميع الملوك والوزراء ورجال الدولة والبلاد ورجال السيف والقلم قد نظموا الشعر وتفننوا به .

وحين نتحدث عن شعب من الشعراء ، لا بدّ لنا ان نذكر الشعب العربي قبل الاسلام والشعب العربي في الأندلس ، فإنه – هنا وهناك – جعل من الشعر المرتجل لغة ثانية للتفاهم والمعاملة ، أعانهم على ذلك سهولة اللغة العربية في الوزن والقافية .

وتمتاز اللغة العربية خاصة واللغات السامية عامة ، عن اللغات الاندوجرمانية بأن اصل كلّ كلمة يتكون دائماً من عدد من الحروف الساكنة ، عددها في الغالب ثلاثة . والحروف الساكنة تبقى غالباً ولا تتغير . أما الحروف المتحركة فهي التي تتغير تبعاً للمعنى وخضوعاً لقواعد اللغة . وهي تدخل على جميع الحروف الساكنة في الكلمات المختلفة بطريقة واحدة تقريباً مما أوجد في اللغة عدداً لا يحصى من الكلمات تختلف في حروفها الساكنة وتتفق جميعاً في الحروف المتحركة فهي كلمات يسهل استخدامها كقافية للشعر وتسهّل وزنه . ومن هنا كان الوزن والقافية هما طابع الشعر العربي .

وقد سيطر هذا الطابع العربي المميز على الشعر في العالم وطغى على الطابع الإغريقي واللاتيني والجرماني . وبرغم أن اللغات الجرمانية ، خاصة الالمانية ، يصعب استخدامها في القافية فقد اتخذت الطابع العربي طابعاً لها ونبذت الأصول الجرمانية والإغريقية حتى صارت غريبة علينا اليوم .

كيف حدث هذا ؟ ولماذا لا ننظم نحن الالمان أشعارنا الآن كما فعل الإغريق والرومان؟ لقد ظلّ الشعر الديني والدنيوي زمناً طويلا يخرج في ثياب لاتينية . ولم يكد الشعب يبدأ بنظم القصائد الغنائية حتى ترك النُظُم الإغريقية والرومانية واتخذ الطابع السامي نظاماً لشعره .

لقد جذبته اليه ، الحاجة إلى إيقاع موسيقي يتفق مع الشعر الغنائي . ولو لم يفعل الشعب هذا لما وصلت القصائد الغنائية عند جوته وغيره من الشعراء المبرزين إلى ما وصلت إليه من شهرة عالمية .

ويحق لنا الآن أن نتسائل ، كيف شق الوزن والقافية طريقها ليصبحا طابعاً للاشعار العالمية ؟

إن أوّل التأثيرات الشرقية قد وردت إلى الغرب عبر بيزنطية في صلوات اليهود في القرن الأول الميلادي وفي القصائد الدينية للكنيسة الرومانية الشرقية . وحمل رهبان مصر وسورية معهم إلى بيزنطية وأديرة الغرب الطابع العربي الذي عاش غريباً إلى جوار الطابع الإغريقي الروماني . وظلت القافية لا تراعي مدة خمسة قرون كاملة ولم تتخذ شكلاً واضحاً في الأشعار الا في القرن الحادي عشر .

أمّا الوزن فقد ظهر في الشعر لأوّل مرة حوالي عام ٨٦٠ م . في الشعر الديني الذي نظمه اوتفريد . ولكن ذلك لم يكتب له الانتشار .

وأتت الموجة الثانية من القصائد الغنائية التي نظمها عرب الصحراء .

والشعر العربي ظهر فجأة حوالي عام ٥٠٠ م . في صورة فنية كاملة متميزة ولا ندري نحن اليوم مصدر تلك الحركة الادبية المفاجئة . على انه من المؤكد أنّ اللغة نفسها بكلماتها المنغمة قد مهّدت السبيل لذلك . وبينما بقيت القافية في الأشعار السورية ميزة لبعض الأفراد ، نجدها قد أصبحت طابعاً مميزاً للشعر العربي يستكمل فيها بيت الشعر أوزانه ويتتهى بها كل بيت في القصيدة مهما كان عدد أبياتها .

وهكذا أصبحت القصيدة العربية تزخر بالصور الحية والعواطف الجياشة تتوالى كالموج من مئات الابيات بالوزن والقافية ذاتها . ومن أجمل أمثلة ذلك الشعر ما كتبه امرؤ القيس الذي عاش قبل محمد بخمسين عاماً حيث يقول :

١) ديمةٌ هطلاءُ ، فيها وَطَفٌ   طَبَقُ الارض تحرّى وتدُرْ
٢) فترى الورد ، اذا ما أشجذت   وتواريه ، اذا ما تعتكرْ ،
٣) وترى الضبّ خفيفاً ماهراً   ثانياً برثنه ، ما ينعفرْ ،
٤) وترى الشجراء في ريّقها ،   كرؤوس قُطعت فيها خُمُر
٥) ساعةً ، ثمّ انتحاها وابلٌ   ساقط الاكناف ، واهٍ ، منهمِرْ
٦) راح تمريه الصَبا ، ثم انتحى   فيه شؤبوبُ جنوب منفجرْ
٧) لجّ حتى ضاق ، عن آذيّه ،   عرضُ خيمٍ ، فخفاقٍ ، مُبلسرْ
٨) قد غدا يحملني في انفهِ   لاحق الأطلين محبوكٌ مُمَرْ

وظل الشعر العربي يلتزم القافية حتى خرجت على ذلك مدارس جديدة كان في طليعتها ابو نواس وشعراء الامويين في قرطبة في نهاية القرن التاسع الميلادي ، وخرج إلى الوجود شعر غنائي جميل مختلف القوافي ، وساهم في هذا النوع من الشعر الفردوسي وعمر الخيام في إيران .

وما لبثت أن انتشرت هذه القصائد من قرطبة إلى قرى القوقاز الهندية

ومن نيسابور حتى النيجر ونهر الكنج .

وتميّز ذلك النوع الجديد بتقسيم القصيدة إلى مقاطع لكل مقطع قافية مختلفة . ولم تلبث أوروبة أن رحبت بهذا النوع من الشعر . فأخذ الشعراء الغنائيون Minnesanger عن الأوزان والقوا في العربية وعن كلّ طابع مميز للشعر الاندلسي . ولعل أكبر دليل على ذلك هو ما كتبه Juan Ruiz من أشعار لمحبوبته وما كتبه شعراء بلاط الملك ألفونس . وما زالت ترانيم عيد الميلاد تحمل حتى اليوم ، ذلك الطابع العربي .

وأثّر طابع الشعر العربي على إيطالية تأثيراً أكبر ونشاهد ذلك واضحاً في أشعار فرنسيس الاسيزي (Franz Von Assisi) ودانتي (Dantes) وفراجاكا باناداتودي (Fra Jacapane da Todi) وحتى لورنزو دي مديتشي (Lorenzo de Medici) وميكيافيللي (Machiaveli) قد نظموا على أسس لأوزان العربية . كما بقي ذلك الأثر العربي أوضح ما يكون في صقلية وتوسكانا (Toscana) والبندقية .

وبرغم اتساع رقعة الدولة الإسلامية فقد حافظ الجميع على نظم الأشعار بأسلوب البادية ولغتها ، وأرسل الناس أولادهم إلى اولئك البدو في الصحراء ليتعلموا اللغه العربية السليمة وقرض الشعر . وبرغم اختلاط البدو الرحّل في البلدان المفتوحة بسكان تلك البلاد فقد ظلوا محافظين على طابعهم البدوي ولم يغيروه .

ويتميز الشعر العربي بالعواطف والمشاعر الحية التي تتكامل حباتها كعقد من اللؤلؤ . واللغة العربية الزاخرة بألفاظها ذات النغم الجميل تساعد البدوي الساذج على صياغة أرقى المشاعر البشرية في قالب جذاب . والبدوي ، بحكم ظروفه وبيئته ، صبور نافذ البصيرة ، ولغته العربية هي لغة غنائية حافلة بالتعابير الذاتية المتأتية عن انطباعات ومشاعر متماسكة تماسك اللآلىء في عقد جميل ؛

لذلك نرى ، أن النزعة الغنائية تسيطر على الشعر العربي سيطرة تامة ، كما هي الحال عندنا في أوروبة هذه الايام حيث اندثرت الملاحم . .

ومن ناحية أخرى ، فإنّ اللغة العربية لغة مطواعة في الفاظها إلى درجة نجدها فيها تدعو إلى نظم العواطف والمشاعر شعراً . وإنه لمدهش حقاً ، أن نرى البدوي الساذج ، والمحارب الباسل يتمتعان بمفردات قادرة على التعبير عن أدق المشاعر والأحاسيس الانسانية . فثروة العربية كانت تقدم للشاعر تعابير شتى عن اشياء وحاجات من جميع الزوايا والانحاء. وهنا تكمن الملاحظة الدقيقة الصبورة لابن الصحراء التي كانت تلقط تعابير وجهٍ ما ، او تدخل إلى اعماق نظرة ما ، او ترى اثراً فوق الرمال فتصفه ، أو ينال سمعها صرخة في الليل فتغنيها بما فيها من لون ونسيم ورنين ؛ وهذه هي الغبطة في الوصول إلى تعبير دقيق يصف حالة معينة تبتعد بكل صفاتها عن الحالات العامة ، فتؤكد ، بكلمات مقتضبة ، ظلالها الخاصة . وفي هذا ، لعمري ، صعوبة تصل حدّ المستحيل ، وأجواء غريبة نمت فيها هذه الكلمات فوصفت الأوضاع الحياتية بصدقٍ وإخلاص .

وهاك نماذج من الشنفري ، لعلها تعطينا الصورة الواضحة عن قوّة التصوير بلغة الصحراء ، حيث كانت الضباع والذئاب رفيقة هذا الانسان :

أديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أميتَهُ   وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأذْهَلُ
وأستفُّ تُربَ الارضِ كيلا يرَى له   عليّ من الطَولِ امرؤٌ متطوّلُ
ولولا اجتنابُ الذأمِ لمْ يُلفَ مشربٌ   يُعاشُ بـه إلاّ لديَ ومأكلُ
ولكنّ نفساً مُرّةً لا تُقيمُ بي   على الضيْمِ إلاّ ريثما أتحوّلُ
وأطوي على الخمْصِ الحوايا كما انطوتْ   خيوطةُ ماريٍّ تُغار وتُفتَلُ
وأغدو على القوت الزهيدِ كما غدا   أزلُّ تهاداه التنائفُ أطْحَلُ
غدا طاوياً يعارضُ الريحَ هافياً   يخوتُ بأذنابِ الشعابِ ويعْسلُ
فلما لواه القوتُ من حيثُ أمّهُ   دعا فأجابَتْهُ نظائرُ نُحّلُ

مهَلْهلَةٌ شِيبُ الوجـــوه كأنها   قداحٌ بكفي ياسرٍ تَتَقَلْقَلُ
أو الخشرمُ المبعوثُ حَثْحَثَتَ دبره   محابيـضُ أرداهُنَّ سامٍ مُعَسِّلُ
مُهَرَّتَةٌ فـوهٌ كـأنَّ شدوقَـها   شقوقُ العصيِّ كالحــاتٌ وبُسَّلُ
فضــجَّ وضجت بالبراح كأنهــا   وايّاهُ نُوحٌ فوقَ علياءَ ثُكّلُ
وأغضى وأغضتْ واتّسى واتّستْ بهِ   مراميلُ عزّاها وعزّتْهُ مُرمِلُ
شكا وشكتْ ثم ارعوى بعد وارعوتْ   ولَلصّبرُ إنْ لم ينفعِ الشكوُ أجملُ
وفاءَ وفـاءتْ بادراتٍ وكلهـا   على نكظٍ ممـا يكاتمُ مُجمِلُ
وتشربُ أسآري القطا الكدر بعدما   سرَتْ قرَبًا أحناؤها تتَصلصلُ
همَمْتُ وهمّت وابتدرنا وأسدلتْ   وشمّرَ مـني فارطٌ مُتَمهّلُ
فوليت عنها وهي تكبو لعِقْرِهِ   يباشرهُ منهـا ذقونٌ وحَوْصَلُ
كأنَّ وغاهـا حُجرَتيـهِ وحوله   أضاميمُ من سفْرِ القبـائلِ نُزَّلُ
توافـينَ من شتى اليـه فضمّها   كما ضمَّ أذْوادَ الاصاريمَ مَنْهَلُ
وآلفُ وَجْهَ الارضِ عندَ افتراشِها   بأهـدأُ تنبيهٍ سناسنُ قُحّلُ...

لقد ضمّ بعضُهم هذه القصيدة إلى المعلقات التي اعتُبرت من أقدم القصائد ، والتي نال أصحابها جوائز وعطايا لما تضمنت من معانٍ وصورٍ سامية ؛ وإلاّ ، كيف استطاع النثر الذي أتى به محمد ﷺ الذي أتى مبشراً ، فسيطر على ذاك الانسان الشاعر ودخل إلى أعماقه :

« اذا الشمسُ كورّتْ ، واذا النجومُ انكدرت ، واذا الجبال سُيّرتْ ، واذا العِشار عُطلت ، واذا الوحوش حُشِرَت ، واذا البحار سُجّرت ، واذا النفوس زُوّجت ، واذا الموؤودة سُئلت ، بأيّ ذنبٍ قُتِلت ؟ واذا الصحفُ نُشرتْ ، واذا السماء كُشطتْ ، واذا الجحيم سُعّرتْ ، واذا الجنةُ ازلفتْ ، علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ ، فلا أقسمُ بالخنّسِ ، الجوار الكنّس ، والليل اذا عسعس ، والصبحِ اذا تنفسَ ، انه لقول رسولٍ كريم ، ذي قوّةٍ عند ذي

العرش مكين ، مطاع ثمّ امين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وماهو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون؟ إنْ هو إلاّ ذكرٌ للعالمين ، لمن شاء منكم أنْ يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين . « سورة التكوير » .

***

وثمّة شعر كثير وصف به العرب أحبَّ الحيوانات الى قلوبهم ، كما نرى وصف الجواد في الأبيات الآتية :

على الأينِ جياشٍ ، كأنّ سراتَه   على الضمر والتعداءِ سرحةُ مَرْقَبِ
ويخطو على صُمٍّ صِلابٍ كأنها   حجارةُ غيلٍ وارساتٌ بطُحلبِ
له أذنان تعرف العتقَ فيهما   كسامعتي مذعورةٍ وسطَ ربربِ
إذا ما جرى شأوين ، وابتلَّ عطفُه   تقول : هزيزُ الريحِ مرّت بأثأبِ

أو وصف وادٍ لحمدة بنت زياد المؤدب قالت :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ   سقاهُ مضاعف الغيثِ العميمِ
حللنا دوحَه فحنا علينا   حنوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمءٍ زلالاً   ألذّ من المدامةِ للنديم
يصدُّ الشمسَ أنى واجهتنا   فيحجبها ويأذن للنسيمِ
يروعُ حصاه حاليةَ العذارى   فتلمس جانبَ العِقدِ النظيمِ

إن موضوعات هذا الشعر لا يحصيها عد ، كالنفس الانسانية تماماً ؛ ففيها المشاعر كلها من حزن عميق وشك مجنون وكره شديد ، كما فيها الألم الموجع والحب البعيد . وها هو ذا الشاعر ابن خفاجة يتذكر أيام شبابه فيقول :

فأذكرنا ليلةً باللوى   وعهداً لعصر الصبا أطربا
وماءً بوادي الغضا سلسلا   ومرتعاً بالحمى معشبا

وما كان أعطر تلك الصبَـا   وأندى معاطـف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضـةً   ورشفـة ذاك اللمى مشربا

وها هو المعتمد بن عباد يصف لنا حلماً له :

إني رأيتكِ في المنام ضجيعتي   وكأنَّ ساعدَك الوثيرَ وسادي
وكأنمـا عانقتني وشكوتِ مـا   أشكوه من وجدي وطول سهادي
وكأنني قبلتُ ثغرك والطـلى   والوجنتـين ونلتُ منك مرادي
وهواكِ لولا أنَّ طيفك زائرٌ   في القلب لي ما ذقتُ طعمَ رقادي

وأما ابن زيدون فيخيل إلينا انه قال هـذه الأبيات في محبوبته ولاّدة وهو سجين :

وأعجبُ كيف يغلبني عـدوٌّ   رضاكِ عليه من أمضى سلاحِ
ولمـا اجْتَلتُكِ لي اختلاساً   اكفُّ الدهرِ للحَيْنِ المُتاحِ
رأيتُ الشمسَ تَطلعُ من نقابٍ   وغصنَ البانِ يَرْفُلُ من وشاحِ
فلو أستطيعُ طرتُ اليكَ شوقاً   وكيف يطيرُ مقصوصَ الجناحِ

وبعد هذا ننتقل إلى مقاطع شعرية أخرى ، كأني بها تتنبأ عن مصير المعتمد ابن عبّاد .

يقول ابن حمديس :

فاشربِ الراحَ ولا تخـلُ يداً   من يـد اللهْو غُدوّاً ورواحِ

ويقول ابن زيدون :

وادرْ ذكريَ كأساً   ما امتطَتْ كفَّك كاسُ
واغتنمْ صفوَ الليالي   انما العيش اختلاسُ
وعسى ان يسمحَ الدهرُ   فقد طـال الشّماسُ

لقد ارتقى المعتمد، زوج اعتماد او الرميكة ، العرش بعد ابيه ليحكم ، طيلة

اثنين وعشرين عاماً ، مملكة مزدهرة على الرغم من تلبّد الجو السياسي بالغيوم، ولكم كان حب الأمراء لهذا العربي ضعيفاً ، لأنه كان حسب شهادة ابن خلكان⁽٣⁾ فيه ، نقلاً عن كتاب « لمح الملح » إنه « أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه » . وفيات الأعيان ٤ : ١١٥

إن كل هذه الصفات حدت بمعظم الامراء الآخرين ان يحسدوه. ومن المعروف ، أنه كان معاصراً لهنري الرابع ، وغريغوريوس السابع ، وفيلهلم الفاتح والنبيل روجر الاول الصقلي . في قصر المعتمد عاش الطبيب ابو العلاء ابن زُهر ، وهو ثالث سلالة الاطباء الاشبيليين المتحدرة من القبيلة العربية « اياد » . وقد عُرف بعنايته بالفلسفة وثقافته الواسعة . وكان يحرص دوماً أن يكتب وصفاته الطبية على قطع من الورق لا تتسع الا للوصفة فقط اشتراها من تاجر عراقي إلتقاه هناك ؛ كما عُرف عنه أنه كان يكتب الوصفة من دون أن يرجع الى الكتاب . ولعلّ الكتاب المعني ههنا هو كتاب « القانون » لابن سينا الذي وصل إلى الاندلس وشاع أمره بين اطبائها . وكان طبيب المعتمد هذا هو والد الفيلسوف والطبيب الطائر الشهرة ابن زُهر الذي عرفه الغرب باسم Avenzoar وجداً لطبيب آخر برع كذلك في عالم الشعر .

لقد ذهب حفيد ابن زُهر إلى مراكش ليعمل في خدمة القصر هناك . ويُروى ، أن السلطان قد اطّلع ، بطريق الصدفة ، على شعر من نظم طبيبه يصف فيه حنينه الى اهله وبلده ، فتأثر السلطان كثيراً ، وأمر ، سرّاً ، باستقدام عائلة الطبيب الى مراكش ، بعد أن رفع له راتبه .

* * *

كذلك لجأ ابن زيدون ، وهو احد كبار الشعراء العرب ، الى قصر بني عبّاد في إشبيلية . وكما فعل المعتمد في قصيدته باعتداد ، كذلك فعل ابن زيدون

---

* التعليق في ص ٥٢٤ .

باسم ولده الوليد ، فأقـــام له نصباً من الحب ؛ وكان هذا الابن يعادل السعادة والتعاسة بل الألم في حياته ، فحمل هذا الألم في نفسه كطابع محرق على جبينه ، إذ سمّى نفسه : ابا الوليد ابن زيدون .

انتمى ابن زيدون إلى أشهر عائلات قرطبة ؛ وتعلّق بامرأة قررت مصيره ، هي الشاعرة ولادّة أميرة الأمويين الباهرة الجمال التي سجد عند قدميها الرجال. وأراد له حظه السّيىء أن يكرن غريمه في هذا الحب الوزير الأول أبو عامر بن عبدون ، فكاد له، واتهمه ونسب إليه محاولة القيـــام بثورة على السلطان. لقد كانت الرسالة التي بعث بها ابن زيدون ، يهجو فيهـا خصمه نصراً أدبياً اضحك القوم ، لما في هذه الرسالة من هجاء مقذع ناجح جعل من خصمه مهزلة القوم ، ومادةً غزيرة استغلهّا غريمه ، كما كانت أيضاً سبباً في إحلال غضب اصحاب الشأن عليه وسجنه . وحاول الشاعر عبثـــاً ان يرفع الحيف الذي نزل به ، بالتوسل إلى السلطان ؛ واخيراً لجأ إلى الفرار ، وظل مختبئاً سنوات عديدة ، بيد أن شوقه لولادّة دفعه مرّة ثانيـة إلى الاقتراب من قرطبة . وفي أطلال الزهراء – قصر الامويين العظيم – التي وقعت فريسة في ايدي البربر ينهبونها ، وحيث كان « البوم ينعق فيها ، وفيها اشباح مفزعة » تبعث الخوف في اوصاله؛ من هذا الطلل بالذات بعث ابن زيدون بآهاته الملأى بالشوق والحنين إلى محبوبته التي انساها عالمُها الشاعرَ الذي كانت بالنسبة اليه عالمه بأجمعه . لقد ملأ هـذا الحب حياته كلها ، ووسمها بميسم خاص، وزودها بدفق من المشاعر والاحلام ، صاغها الشاعر في قصائد « كان لها من القوة » – كما قالت العرب – « ما لم يكن للسحر قط ، وكان لها من السمو ، ما لم يكن للنجوم . » وبعد ضياع طويل ، حط به الترحال في قصر ملوك اشبيلية ، حيث قدّم للمعتمد لدى احتلاله قرطبة خدمات جليلة ...

لقد انضم الى رهط الشعراء في قرطبة شاعرا صقلية اللذان هربا من سيطرة النورمان فيها ، ابو العرب ، وابن حمديس . وفي هذا الجمع من النجوم الكبيرة

والصغيرة ، كان الشاعر المعتمد المليك الشمسَ ذاتها التي جذبت بأشعتها كلّ من حولها وظللته . أجل لقد كان المعتمد شاعراً غنائياً شهيراً خضع لحب رميكة خضوعاً أعمى – وكما يُروى – وعلى عادة شعراء الغنائية العرب ، جعل منه عبداً للحسناء Amata « القمر المشعّ » ، ومرغريتا ، المتقلبة الأهواء ، وتغنى فيها بشعره العذب الجميل .

وبقي هكذا الى أن نُكب في آخر أيامه بنفسه وأبنائه وعرشه ، ونفي الى سجن اغمات في افريقية حيث كبّل بالسلاسل والقيود بعد مجد وعز في قصره بأشبيلية ، وفي هذا يقول :

فيما مضى كنتَ بالاعيادِ مسرورا   فساءَك العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِك في الأطمار جائعةً   يغزلن للناسِ ما يملكنَ قِطْميرا
برزنَ نحوك للتسليم خاشعةً   ابصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ   كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدّ إلاّ تشكّى الجدْبَ ظاهرهُ   وليس الاّ مع الأنفاس ممطورا
أفطرتَ في العيد لاعادتْ مساءته   فكان فِطرُك للأكبادِ تفطيرا
قد كان دهرُكَ إن تأمره مُمتثلاً   فردّك الدهرُ منهياً ومأمورا
من باتَ بعدك في مُلكٍ يُسَرُّ به   فإنما بات بالاحلام مغرورا

وبعد مرور مائتي سنة من موت المعتمد ، انطلق ابن الخطيب وحيداً من مراكش حتى وصل أغمات ، ولما وصل القبر الذي ضمّ بين جنبيه المعتمد الشاعر ومحبوبته قال شعراً مؤثراً ينمّ عن تقدير وحب عظيمين للشاعر .

وقد رثاه ايضاً ابن عبد الصمد في يوم عيد بعد أن طوّف بقبره فقال :

ملكَ الملوكِ أسامعٌ فأنادي   أم قد عدتك عن السماعِ عوادي
لما خلتْ منكَ القصورُ ولم تكن   فيها كما قد كنت في الاعيادِ
أقبلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً   واتخذْتُ قبرَك موضعَ الإنشادِ
قد كنتُ احسبُ أن تبددَ ادمعي   نيران حزن أضرمتْ بفؤادي .

الفصل السادس

سلطان الحب

اعتماد

ا غائبة الشخص عن ناظري وحاضرة في صميمِ الفؤادِ
ع ليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدرِ السهادِ
ت ملكتِ منيَ صعب المرام وصادفتِ ودّيَ سهلَ القيادِ
م راديَ لقياك في كل حينٍ فياليتَ انيَ أُعْطى مرادي
ا قيمي على العهد ما بيننا ولا تستحيلي لطولِ البعادِ
د سستُ اسمك الحلو في طيّ شعري
وألّفتُ فيه حروف « اعتمادِ »

أرسل المعتمد تلك الأبيات ، التي تُكونّ حروفها ألأولى اسم زوجته « اعتماد » إليها . وذيلها بهذه الكلمات « سأراك قريباً إن شاء الله وشاء ابن عمار » .

ويرى صديقه ابن عمار ضاحكاً ما كتبه المعتمد لزوجته ، فيجيبه : إنّ مشيئتي كانت وما زالت دائماً تحقق رغباتك . إن كنتَ تريد العودة الآن فاركب مركباً شراعياً أو امتطِ صهوة جوادك وستجدني خلفك . وحين تصل إلى القصر اتركني أذهب إلى بيتي ثم هروِلْ إليها سريعاً دون أن تضيع وقتاً حتى

في خلع سيفك وارم بنفسك تحت أقدامها . . .

ولقد تكلم ابن عمار حقاً . فالخليفة الشجاع الذي تأتمر بأمره الملايين قد صار عبداً لجمال زوجته . لقد سحره جمالها وذكاؤها وقدرتها على ارتجال الشعر برغم أنها لم تتلق أيّ تعليم .

وفي أحد أيام شباط (فبراير) دخل عليها في حجرتها فإذا بها تطل من النافذة والدموع تنحدر من مآقيها . ولما سألها عما بها أجابته متدلّهة : ألا ترى الثلجَ على تلك الاشجار البعيدة يكسوها بثوب أبيض جميل . وأنت لم تفكر مرة واحدة في أن تجلب لي هذا المنظر الساحر أو ان تسافر معي إلى بلد جميل بثلوجه ومناظره . وضحك المعتمد ولاطفها وجفف دموعها ووعدها بما طلبت وأمر في الحال أن تزرع بالقرب من نافذتها أشجار اللوز لتنعم حبيبته بمرأى أزهارها البيض ، « ابتسامة الربيع الأولى على شفتي الكون » لتعوض بها عن مرأى الثلج .

وذات مرة ، تملّك اعتماداً حزن شديد حين رأت نساء من العامة يغصن بأقدامهن في الوحل مرحات يعددنه لصنع قوالب من الطوب ، وقالت لزوجها متحسرة : « إني تعسة ، أعيش مسجونة في هذا القصر ولا أستطيع أن أغوص بأقدامي العارية في الوحل كهؤلاء النسوة » .

وضحك زوجها عالياً وأمر بإحضار كمية كبيرة من القرفة والمسك والطيب ورش عليها ماء الورد ثم عاد إلى زوجته ليخبرها انّ العجينة تنتظرها لتغوص فيها بأقدامها العارية عابثة .

لقد احبّ الرجل فيها تلك النزوات ووجد متعته في الارتماء تحت اقدامها . وماذا يهم إن كانت هي قد تربت بين الأطلال بينما هو تربى بين القصور . إنّ الحب لا يعرف تلك الفوارق . ألم يقل الحَكمَ الأول حوالي عام ٨٠٠ م . وهو من أقسى وأعنف أمراء الاندلس : « إني اخضع واطيع غزلان قصوري كسجين مكبل بالأغلال » .

فسلطان الحب قد جعل منه عبداً للجمال وهو الملك الجبار . وهارون الرشيد نفسه وهو من أعظم حكام المسلمين يقول : « حبيباتي الثلاث يملكن عليّ نفسي ويسكنّ قلبي ، كل الناس تطيعني ، وهنّ لا يطعنني ، وإنما أنا الذي أطيعهن . إنّ قوة الحب قد جعلتهن أقوى مني . »

ولم يكن ذلك المسلك خيالاً لشاعر أو تزويقاً في الكلام . إنما كان حقيقة ملموسة عاشها الناس وقدروها قدرهـا . فالخضوع للمرأة والخضوع لله كانا من صفات القوم التي تعارفوا عليها .

فالعربي الذي شعر بحقارته أمام جبروت الصحراء المترامية الأطراف شعر بقوة الله وقدرته . وبطاعته وخضوعه لله كان يأمـــل في رحمته وهو الرحمن الرحيم . ولهذا ترى المؤمنين ركّعاً سجّداً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . وعُرِفَ المؤمنون ذوو الإيمان بتواضعهم ، فكلهم عبد الله .

وأعطت هذه العقيدة شعر العرب الديني طابعـاً خاصاً انعكس كذلك في أشعارهم الغنائية . فقد كانوا في جاهليتهم يتلمسون رضا الآلهة ، وهم بَعْدَ الإسلام يطمعون في رحمة الله ، وأصبح تعبيرهم عن الطاعة والخضوع منهجاً لنظمهم في الأمور الدينية والحب على حد سواء. وعرف العرب الحب نقياً عفيفاً . فهو حب عذري يشبه ، إلى حد كبير ، الحب الأفلاطوني عند الإغريق . ومن أول أمثلة ذلك الحب العذري يروي لنـا تاريخ العرب قبل الإسلام قصة جميل وبثينة اللذين لم يستطيعا التغلب على عداء قومهما . ولكنّ حبّهما يحطم كلّ زمان ومكان ويبقى خالداً لا يقضي عليه الموت نفسه .

كما يحكي التاريخ عن حب الحارث بن عوف سيد قبيلة مرة لبهيسة المتكبرة التي وضعته تحت الاختبار عدة مرات لتمتحن مدى حبّه لها والتي لم تعطِه نفسها كزوجة إلاّ بعد أن برهن على تدلهه في حبها .

وتقدم ذلك الحب العذري من الصحراء ليدخل قصور الخلفاء . فعباس بن

الاحنف في بلاط هارون الرشيد عام ٨٠٠ م . لا يختلف كثيراً عن جميل بثينة . فبرغم أنّ محبوبته جارية في قصر الخليفــة فهي ، بجمالها ، في أشعاره ، ملكة متوجة وهو يقدرها لعفتها ، سواء رضيت عنه أو غضبت عليه . فهو عبد الله في تدينه ، عبد للجمال في حبه .

وحبّه لها وخضوعه لا يقللان من شأنه كرجل ، بل هما يرفعانه درجات ودرجات. ومرت تلك النغمة من الصحراء إلى الأندلس ولقيت ترحيباً كبيراً . فابن حزم يعتبر الخضوع للحب مفخرة والتذلل للحبيبة شرفاً كبيراً .

وابن حزم (٩٩٣ – ١٠٦٢ م) هو رائد فن الغزل والحب ، برغم انه من عائلة قوطية دخلت الاسلام بعد احتلال المسلمين للاندلس . وقد شغل ابن حزم أرفع مناصب الدولة في بلاط قرطبة وعاش عربياً صرفاً بل وادعى انه ينتسب إلى الامويين في دمشق ؛ وكان ابن حزم شاعراً وفيلسوفاً كبيراً . وفي كتابه الشهير عن الحب المعروف « بطوق الحمامة » يقول ، سنة ١٠٢٠ م ، افكاراً قريبة الشبه من افكار دانتي. فحبه لمحبوبته هو وسيلة من وسائل حبه لله:

أمِن عالم الاملاك انتَ ام انسيّ   أبنْ لي: فقد ازرى بتمييزي العِيُّ
أرى هيئة إنسية غير أنــه   إذا أُعمل التفكير ، فالجرمُ علويُّ
تبارك من سوّى مذاهب خلقِهِ   على أنك النورُ الانيقُ الطبيعيّ

* * *

تهْ أحتملْ واستطلْ أصبر وعزّ أهنْ   وولّ أُقبِلْ وقلْ أسمعْ ومرْ أُطِعِ

هذا هو ما كان يقوله ابن زيدون لحبيبته ولاّدة التي ظل طوال حياته عبداً مخلصاً لها .

ويبدو الشبه كبيراً بين دانتي وبين ابن عربي[٤] (١١٦٥ – ١٢٤٠ م) . فقد أخذ دانتي عنه تشبيهاته بعد ما يقرب من مائتي عام . فكلما ارتفع حب دانتي الشاعر الايطالي لبياتريس به إلى الجنة درجات ودرجات نجد ابن عربي أيضاً يقول نفس الاوصاف في محبوبته .

فبياتريس عند دانتي هي نيسام عند ابن عربي الذي يعلق على أحد كتب اشعاره قائلاً : « لقد جعلت مني (نظام) ملهماً لكل ما كتبته في هذا الكتاب من قصائد فهي كلّ أملي ورجائي . وكل اسم ذكرته في قصائدي قصدتها به ، وكلّ منزل حننت إليه هو منزلها . وبرغم ان اغلب اشعاري ديني يتحدث عن النور الآلهي فهي تفهم كلّ ما أعنيه وحياتنا الاخرى تفضل حياتنا الراهنة ». وهكذا اضطر ابن عربي كما اضطر دانتي فيما بعد ، أن يعلق على أشعاره الصوفية التي غنّاها في حب نيسام ليظهر طهارة حبهّما على عكس ما ادعاه حساده .

وتمتعت المرأة العربية ، علاوة على ذلك التقديس ، بمكانة عالية في المجتمع برغم وجود نظام الحريم في القصور . وخرجت نساء الأندلس بنشاطهن إلى الحياة العامة ، سواء في ذلك سيدات المجتمع الراقي أو بنات الطبقات الفقيرة والجاريات . فكان منهن الشاعرات والباحثات في العلوم ، وتلقين العلم تماماً كالرجال . وسجل لهنّ تاريخ الأندلس صفحات من المجد فكانت هند تقرض الشعر وتعزف على العود وتغني بصوت شجي. وسائر القوم يتغنون بأشعار حفصة وقصة حبهّا للشاعر ابي جعفر . وتغني إحدى الجاريات أمام المنصور ؛ وهي تعلم أن الخليفة متيّم بحبها . ولا تخجل برغم هذا من أن تتغنى بحبها لوزيره.. وتلاحظ الجارية غضب الخليفة وغيرته عليها فترتجل بيتاً في حبه هو ، تنقذ به نفسها .

ويحكي ابن بسام الشنتريني في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » عن الشاعرة ولّادة فيقول : « كانت في نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها ، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. يمشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلوّ نصاب،

وكرم أنساب وطهارة أثواب » .

الذخيرة : القسم ١ ، المجلد ١ ، ص ٣٧٦

وفي ضوء تلك النجوم انتشر شعر الغزل وخرج من الأندلس عبر الحدود إلى الغرب لنصبح فناً عالمياً . ومن أمثلة شعر الغزل الأندلسي الذي هو صورة من شعر الغزل العربي عامة ما كتبه ابن الفارض في محبوبته :

تِهْ دلالاً فأنت أهلٌ بذاكا   وتحكّمْ ، فالحسن قد أعطاكا
ولكَ الامرُ فاقضِ ما أنت قاضٍ   فعليّ الجمالُ قد ولاّكا

ولم يكن الغرب يعرف مثل تلك النغمة في الحبّ . ولم يكن أحد من شعراء الغرب ليعبّر عن حبّه في ذلك الاسلوب . ولم يكن أحد منهم ليقذف بنفسه تحت اقدام محبوبته يتلمس رضاها . ولم يعرف Anakreon ولا Theokrit ولا Sappho ولا Platon ذلك النوع من الحب ولا ذلك الأسلوب في الغزل . ولم يعرف الجرمان الذين جعلوا المرأة في مكانة مساوية للرجل وقدروا شخصيتها أيضاً ، هذا الأسلوب العربي في الحب والغزل .

ويتساءل الكثيرون كيف بدأ الدوق فيلهلم التاسع في جنوبي فرنسة وغيره من الشعراء والمغنين في نعت انفسهم بالخدم والعبيد امام محبوباتهم وفي اشعارهم وأغانيهم . وكيف رفعوا المرأة إلى تلك المكانة العالية وركعوا أمامها ساجدين ؟ وكيف اصبحت المرأة ، التي كانت اقل شأناً من الرجل في ظل تعاليم الكنيسة ، لأول مرة كائناً مقدساً يتوسل إليها الرجل كما يتوسل إلى الله . ؟ حتى الأشعار الدينية التي كانت قبل ذلك تصف مريم أم المسيح بخادمة الرب وبالفتاة الذليلة قد جعلت منها الآن السيدة الكريمة والحبيبة العزيزة .

وغزا ذلك الأسلوب الغزلي كلَّ فرنسة وإيطالية وصقلية والنمسا والمانية . وكما قلدوا العرب في اسلوبهم وطريقتهم ، كذلك اخذوا عادة عباس بن الاحنف في عدم ذكر اسم محبوبته في قصائده الغزلية والاستعاضة عن ذلك بأيّ اسم

آخر وكان هذا الاسم في الغالب اسم رجل .

على أنّ ما كان عند العرب حبّاً حقيقياً وشعوراً عميقاً أصيلاً قد أصبح في الغرب مجرد أسلوب للشعراء في أشعارهم لا ينبع عن إيمان عميق بما يتغنون به . فما يذكره شاعر الغرب من خضوع لهوى الحب واستعدادٍ لتنفيذ كلّ ما تأمر به المحبوبة لم يكن اكثر من أسلوب يجذب به الفارس رضاء السيدة . وقد نشرت تعليمات أو قيد ذلك الأسلوب في معاملة النساء بين الناس وظلّ ذلك جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الأوربية حتى يومنا هذا .

– ومنذ أن تعرف بورداخ على مصدر شعر الغزل الأوروبي، فالكثيرون يحاولون جاهدين إرجاع مصدره لغير العرب برغم أنّ كلّ الدلائل تشير بوضوح عن قدومه من الأندلس عابراً نفس الطرق التي عبرتها مختلف الثقافات الغربية والتي كانت الأندلس بموقعها السياسي والجغرافي أكبر مورد لها .

---

* وهمت المؤلفة في ذلك : والصواب ما ذكره ابن أبي أصيبعة ، قال: « وفي زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا إلى المغرب ، قال ابن جميع المصري في كتاب « التصريح بالمكنون في تنقيح القانون» إن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب، قد بولغ في تحسينها فأتحف بها لأبي العلاء بن زهر تقرباً إليه ، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك ، فلما تأمله ذمه واطرحه ، ولم يدخله خزانة كتبه ، وجعل يقطع من طرره (حاشيته) ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى » .

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥١٧ – ٥١٨

إتماماً للفائدة نذكر فيما يلي عدداً من اسماء الأماكن الأندلسية والفرنجيـــة وما يقابلها في الاسبانية :

أبّذة	Ubeda	إلبيرة	Elvira
ابره	Ebro	أمايا	Amaya
أربونة	Narbona	أوبيط ، أوبيت	Oviedo
أرجونة	Arjona	أوريولة	Orihuela
أسجة ، استجة	Ecija	باجه	Beja
أرشذونة	Archidona	البحيرة	Lago
أرغون	Aragon	برباط	Barbate
أركش	Arcos	برشلونة	Barcelona
أرملة	Armilla	برغش	Burgos
استرقة ، استورقة	Astorga	بطليوس	Badajoz
الاشبونة ، اشبونة	Lisboa, Lisbona	بلنسية	Valencia
اشبيلية	Sevilla	بلاط الشهداء	Calzada de los Martires
اقليم البحيرة	Lago de la Janda	بنبلونة	pamplona
أقوة برطورة	Acua Bortora	بورديل	Bordeaux
ألبة	Alava	تاجه	Tago

تدمير	Todmir
تطيلة	Tudela
جبل طارق	Gibraltar
الجزيرة الخضراء	Algeciras
جزيرة شقر	La isla del Jucar
جزيرة طريف	Tarifa.Traducta Julia
جيان	Jaen
جليقية ، جلّقية	Galicia
دانية	Denia
دويره (الوادي الجوفي)	Duero
رندة	Ronda
رودنة	Rondano
رية	Rayya, Regio
الزلاقة	Sagrajas
سرقسطة	Zaragoza
سيرقوسه	Siracusa
سمورة ، صمورة	Zamora
شانت ياقب	Santiago
شذونة	Sidonia
شريش	Jerez
شقندة	Secunda
شقر	Jucar
شقورة	Segura
شلب	Silbes
شلطيش	Saltés
شلير	Sierra Nevada
شنتبرية	Santaver
شنترين	Santarem
شنتمرية	Santa Maria
شنيل	Genil, Xenil
شوذر	Jodar
الصخرة	Sierra
طرسيل	Tarcil
طرش	Torrox
طرسونة	Tarazona
طرطوشة	Tortosa
طركونة	Tarragona
طشانة	Tocina
طلبيرة	Talavera
طلمنكة	Talamanca
طليطلة	Toledo
غرناطة ، أغرناطة	Granada
فج طارق	Desfiladero de Tarik
قادس	Cadiz
قرطاجنة افريقية	Cartago
قرطاجنة الجزيرة	Carteia
قرطاجنة الخلفاء	Cartagena
قرطبة	Cordova
قرمونة	Carmona

قرقشونة	Carcasson
قسطلة دراج	Cacella
قشتالة	Castilla
قلمرية	Coimbra
قلعة ايوب	Calatayub
قلعة رباح	Calatrava
قلنبيرة	Colomera
قلهرّة	Calahorra
قورية ، كورية	Coria
لاردة	Lérida
لبلة	Niebla
لقنت	Alicante
لك	Lugo
لوذون	Lyon
لورقة ، لورقي	Lorqni. Lorca
لوشة	Loja
ليون	Léon
ماردة	Mérida
مالقة	Malaga
المائدة	Almeida
مجريط	Madrid
المدور	Almodovar. Almudafar

مدينة سالم	Medinaceli
مدينة شذونة	Medina Sidonia
مرسية	Murcia
المرية	Almeria
مضيق الجزيرة	Angostura Algeciras
المنكب	Almun (i) écar
منورقة	Minorca
مورور	Moron
ميورقة	Mallorca. Majorca
نبارّة	Navarre
النهر الكبير = الوادي الكبير	
وادي انه	Guadiana
وادي ايره	Guadaira
وادي البحر	Gudarranqua
وادي الحجارة	Guadalajara
وادي الرمل	Guadarrama
وادي سليط	Guazalate
الوادي الكبير	Guadalquivir
وادي لكه ، بكه	Guadalete
وشقة	Huesca
يابرة	Evora
يابسة	Ibiza

الفصل السابع

دروب التسرب إلى الغرب

لم يكن غريباً أن يلعب الملك ألفونس السادس ، ملك ليون وقشطالة لعبة الشطرنج وقد عرف عنه ابن عمار وزير المعتمد وصديقه قدرته الفائقة في تلك اللعبة . أما أن يهزم ذلك الملك ابن عمار في تلك اللعبة كما ادعى الكثيرون ، فذلك هو المحال . وكان ابن عمار واثقاً من قدرته على هزيمة الملك ألفونس في تلك اللعبة الفنية بدرجة أنه وعد بإعطائه مدينة إشبيلية مكافأة له إن هو هزمه .

وخسر ألفونس في لعبه مع ابن عمار . وأنقذت دولة المعتمد دون حرب ، وبقيت إشبيلية المسلمين ، وعاد ابن عمار من معسكر الاعداء فخوراً وَخَلْفَهُ خدمه وأتباعه يحملون عنه رقعة الشطرنج .

إنّ عادات العرب وألعابهم قد سرت بين الجيران من المسيحيين . وإذا حاول المسيحيون التباعد عن المسلمين بعد احتلالهم للأندلس فان ذلك لم يدم أكثر من بضع سنوات تحطمت بعدها جبهة المسيحيين ضد الإسلام . لقد قضى النزاع الداخلي الناشب بين الأمراء المسيحيين على كل تعصب ضد المسلمين . فهذا أمير مسيحي يطلب مساعدة المسلمين ضد أمير مسيحي آخر يهدد أمارته . وذاك يطلب عون المسلمين على استرداد ما سلب منه ، وثالث يطلب مساعدة

المسلمين ضد ابن عمه الذي سلبه عرشه . ولن نستطيع أن ننسى اليوم الذى قدم فيه الملك Sancho سانشة ملك ليون Léon إلى قرطبة وتوجه إلى قصر الصخرة ، وما إن مَثَل بين يدي عبد الرحمن حتى خرّ جاثياً عند قدمي الخليفة يرجوه أن يمده بعون وأن يأمر طبيباً من أطبائه المهرة بعلاجه من مرض شديد كان يلح عليه ولا يجد له شفاء .

ويشفى سانشه من مرضه وسمنته ويطرد Ordogno IV سالب العرش فيلجأ هذا الأخير مرتدياً زيّ الأعراب يطلب عون الحَكَم الثاني . وقبل أن يدخل على الحَكَم الثاني يلتقي بعبدالله بن قاسم أسقف اشبيلية وبالوليد قاضي المسيحيين بقرطبة فيعلّمانه آداب السلوك في حضرة الخليفة . وكان الأسقف والقاضي يلبسان زيّاً عربياً ويحملان اسمين عربيين ويتلوان كغيرهما من المسيحيين الانجيل باللغة العربية . وكان يوحنا أسقف إشبيلية قد ترجمه إلى لغة القرآن.

وقبل ذلك بمائة عام تقريباً كتب الفارو أسقف قرطبة حينئذ : « كثيرون من أبناء ديني يقرأون أشعار العرب وأساطيرهم ، ويدرسون ما كتبه علماء الدين وفلاسفة المسلمين ، لا ليخرجوا عن دينهم وإنما ليتعلموا كيف يكتبون اللغة العربية مستخدمين الأساليب البلاغية . أين نجد اليوم مسيحياً عادياً يقرأ النصوص المقدسة باللغة اللاتينية ؟ من منكم يدرس اليوم الكتاب المقدس أو ما قاله الرسل ؟ إن كلّ الشباب النابه منصرف الآن إلى تعلم اللغة والأدب العربيين ، فهم يقرأون ويدرسون بحماسة بالغة الكتب العربية ويدفعون أموالهم في اقتناء المكتبات ويتحدثون في كلّ مكان بأن الأدب العربي جدير بالدراسة والاهتمام . واذا حدثهم أحد عن الكتب المسيحية أجابوه بلا اكتراث : «بأنّ هذه الكتب تافهة لا تستحق اهتمامهم » . يا للهول ، لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية . بينما تجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم » .

وما كان الأسباني ليملك أن يفعل غير ما فعل. فقد سحره جمال تلك النهضة وروعتها فلم يجد أمامه سبيلا سوى الاندماج فيها والمساهمة في إحيائها ليضمن لنفسه البقاء . وكان أثر الإسلام على كل ناحية فكرية أو مادية في تلك البلاد هو الأساس الذي قامت عليه حضارة إسبانية . ويذكر اوردجنو إنّ عظمة الامويين بالأندلس قد سحرته فرجع إلى وطنه بعد أن وضع شخصه ورجاله وعتاده تحت تصرف حاكم المسلمين .وشهد التاريخ جيوشاً مسيحية تحارب تحت قيادة خليفة المسلمين . وفي عام ١٠١٠ م . فَقَدَ ثلاثة من الأساقفة حياتهم في إحدى المواقع دفاعاً عن الخليفة . وشهدت خلافة المنصور عدداً كبيراً من الفرسان عبروا جبال البرانس ليحاربوا تحت لوائه . كما حفلت قصوره بعدد من أبناء الملوك احتفظ بهم كرهائن لديه وعلّمهم الموسيقى والغناء والشعر والأدب العربي . وحمل أبناء الأمراء العرب عاداتهم ومعارفهم وأغانيهم إلى قلاع شمالي إسبانية حيث عاش بعضهم في قصور الأمراء المسيحيين كرهائن . ومن أمثلة ذلك ما تمّ بين ابن عمار والكونت ريموند برينار الثاني في برشلونة من اتفاقهما ضد أمير مرسية على ان يعطي ريموند للمسلمين ابن أخيه وان يأخذ عنده الصبي رشيد ابن الخليفة المعتمد كرهينة لديه لضمانة تنفيذ الاتفاق .

ولاعب الشطرنج الشهير الملك ألفونس السادس قد تعلّم فنون هوايته تلك بين العرب حين طرده أخوه عن العرش والبلاد معاً ، فلجأ إلى العرب الذين أكرموا وفادته وملكوا عليه نفسه . لقد عامله يحيى بن مأمون ملك طليطلة كأحد أبنائه وأبقاه لديه عدة سنوات في قصر خاص به ، زوده بكل وسائل الراحة ووضعه تحت تصرفه .

ولما استطاع ملك قشطالة بعد كفاح دام استمرّ مدة خمس سنوات ان يحتل طليطلة سمّى نفسه ملك رعايا الديانتين ، ولم يلبث ان تأثر بالحضارة العربية حتى انه اتخذ لنفسه زوجة منهم بعد وفاة زوجته . ولم تكن الزوجة الجديدة إلا سعيدة ابنة المعتمد* من زوجته الرميكية (اعتماد) . وقَدِمت الزوجة العربية

---

* التعليق في ص ٥٣٦ .

الشابة إلى زوجها تحمل إليه عدة مدن أُخرى أهداها إليها أبوها الخليفة وتحمل فضلاً عن ذلك ثقافة قومها وعاداتهم وتقاليدهم العربية . وأنجبت الملكة العربية للملك بالاضافة إلى زوجاته الست وخليلاته العديدات ، وريث عرشه . ولكن سانشه الصغير وريث العرش ، لم يطل به العمر ، فمات وهو في الحادية عشرة من عمره في إحدى المعارك ضد البربر اعداء أبيه وأعداء جده المعتمد . وزوّج ألفونس بناته العديدات لأمراء فرنسيين وبورجنديين كما زوّج ابنته الفيرا للملك روجر الثاني الصقلي . وهكذا كان التزاوج وسيلة لنشر الثقافة الإسبانية .

وكان الزواج بين سكان إسبانية الشمالية وأهل الأندلس أمراً يحدث كلّ يوم ، ليس بين الأمراء وعلية القوم فحسب ، بل بين العامة من الناس أيضاً . فهذا شاعر إسباني يتزوّج مغنيةً عربية ويتبعها إلى وطنها غرناطة ويدخل في الإسلام ثم يقع في حب شقيقتها فيتزوجها هي الأخرى ، ثم يعود الى قشطالة بعد ثلاثة عشر عاماً بزوجته وحفنة من الأطفال يتحدثون العربية ويترنمون بالاغاني والقصائد الكثيرة التي نظمها هو بالعربية مراعياً الوزن والقافية .

وتعددت المسالك التي سلكتها حضارة الاندلس في طريقها للغرب . فعمل كثيرون من العرب كمربين لأطفال الملوك أو كأطباء أو كتبة في بلاطهم في برشلونة ولشبونة وبرغش ، كما هاجر كثير من المسيحيين المتعربين إلى قشطالة وأرغون وأرجونة بعد ان أن هاجم المرابطون والموحدون من إفريقية بلاد الأندلس . فكانت أُلوفهم حملة مشاعلِ الثقافة والأدب الاندلسي ، وصاروا بسلوكهم ومظهرهم الحسن مثالاً يحتذى. كما عمل الأسرى من المسلمين أيضاً على نقل الحضارة العربية لأمراء شمال إسبانية .

ولم تكن بلدان شمال اسبانية على صلة بالأندلس في الجنوب فحسب بل كانت أيضاً على صلة دائمة ببلدان أوروبة سياسياً وتجارياً . ولم تكن البرانس لتمنع تلك الصلات ، ومن هنا وجدت الحضارة العربية الاندلسية طريقها الى الغرب .

وعندما احتل الفونس السادس طليطلة عام ١٠٨٥ م. ساهم معه في الاستيلاء على المدينة العربية وحصارها فرسان ألمان وإيطاليون وفرنسيون ؛ بل ان اول أسقف لها كان فرنسياً حضر بكهنته من كلوني واندمج الجميع بسكان المدينة العربية وظلت مدرسة المدينة التي أسسها ريموند بمجموعاتها الهائلة من الكتب العربية تجذب آلاف الأوروبيين من مختلف البلدان إليها .

وعندما حوصرت لشبونة عام ١١٤٧ م . واحتُلّت دخلها جنود من الانجليز والالمان والفرنسيين وعيّنوا عليها اسقفاً انجليزياً . واحتل الملك ألفونس المدينة ووزع الاسلاب على جنوده من مختلف البلدان الاوروبية .

وقد حمل مشعل الحضارة العربية عبر الاندلس ألوف من الاسرى الأوروبيين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرها من مراكز الثقافة الاندلسية . كما مثّل تجار ليون وجنوا والبندقية ونورمبرج دور الوسيط بين المدن الاوروبية والمدن الاندلسية .

واحتكت ملايين الحجاج من المسيحيين الاوروبيين في طريقهم الى سنتياجو بالتجار العرب والحجاج المسيحيين القادمين من شمال الاندلس . كما ساهم سيل الفرسان والتجار ورجال الدين المتدفقين سنوياً من اوروبة على اسبانية في نقل أسس الحضارة الاندلسية الى بلادهم .

وحمل اليهود من تجار وأطباء ومتعلمين ثقافة العرب الى بلدان الغرب كما اشتركوا في اعمال الترجمة بمدينة طليطلة ونقلوا عن العربية عدداً كبيراً من القصص والاساطير والملاحم .

واحتفظ الملوك والامراء وعلية القوم من المسيحيين في قصورهم بالجواري من الأسرى وعشقوا آلاتهن الموسيقية وأغانيهن ورقصاتهن . ويحكي احد المسافرين الالمان انّ كونتاً من اصدقائه في برغش كان يمتلك في قصره « نساء رائعات الجمال يتزيّن ويلبسن الملابس العربية ولهن سلوك خاص في الحركة والأكل والشرب.

وكلهن يُجدن الرقص والغناء الاندلسي» ويكتب سكرتير دوق آخر في مذكرات سيده : « وكلهن ذوات بشرة سمراء وعيونهن مكحلة . وهن يأكلن ويشربن بأدب ويحيين سيدي ببشاشة ؛ وهنّ ، عامةً ، صديقات محبات للألمان » .

واهتم السادة في الغرب اهتماماً كبيراً بالجاريات العربيات . وحدث في عام ١٠٦٤ م ، انْ قدِم مندوب البابا الكسندر الثاني بجيش من الفرنسيين والبورجنديين والنورمانيين إلى مركز دفاعي على الحدود العربية الاندلسية اسمه Barbastro ، ولما رأى العرب عدم جدوى مقاومتهم استسلموا بعد ان حصلوا على كلمة شرف بالسماح لهم بالانسحاب من الموقع دون ان يلحق بهم ايُّ اذى . ولم يكد الجنود يغادرون مواقعهم الدفاعية حتى انقض عليهم المسيحيون وقتلوهم عن آخرهم ثم استداروا إلى أهل البلدة وأعملوا فيهم السيف تذبيحاً حتى قتلوا منهم ستة آلاف ، تعفنت جثثهم في بركة من الدماء . وحمل مندوب البابا مزهواً معه الى رومة اكثر من الف امرأة عربية كأسرى.

وحمل الأمراء الآخرون بعد تلك المذبحة البشرية آلافاً من النساء والفتيات العربيات معهم الى قصورهم في نورماندي وبورجنديا والبروفانس. وكان على رأس هؤلاء الأمراء فيلهلم الثامن دوق أكيتانيا وكونت بواتييه . وفيلهلم الثامن هذا هو والد انيتز زوجة الملك الفونس السادس الذي تزوج بعد وفاتها بسعيدة ابنة الخليفة المعتمد .

وخلف فيلهلم الثامن عام ١٠٧١ م . ابنه فيلهلم التاسع الذي تزوج أميرة إسبانية من أرغون والذي اشتهر في التاريخ كأول تروبادور عرفه الغرب .

والتروبادور شاعر غنائي اشتق اسمه من الكلمة العربية « طرب » وهو ينظم أغانيه على النظام العربي الذي وضعه الشاعر الغنائي العربي ابن قزمان .

وابن قزمان هو شاعر البلاط الكبير في بطليوس الذي قسا عليه الدهر وأصبح مغنياً متجولاً يصحب قرداً ويسير في الشوارع يستجدي الناس .

ولقد اندمج فيلهلم التاسع في قصر أبيه بثات الجاريات والمغنيات اللواتي أحضرهن والده الدوق من الاندلس عام ١٠٦٤ م ، بعد المذبحة الاليمة ، واخذ عنهن اصول فن الغناء العربي. وانتشرت المستعمرات الإسلامية في غربي أوروبة خاصة في جنوبي فرنسة وغربي جبال الألب. واستمرت الامدادات العربية تصل اليها من اسبانية وافريقية . وقيل ان الطفل اللقيط الذي وجد أمام باب أحد الاديرة عام ٩٤٥ م ، وارتقى عرش البابوية عام ٩٩٩م . باسم سيلفستروس الثاني ما هو الا طفل عربي .

وتزوج فريدريك الثاني في المرة الاولى من أميرة اسبانية من أرغون أيضاً. وقدمت الاميرة كونستنزا ومعها وصيفاتها من سيدات المجتمع الاسباني وبصحبتها جماعة من الفرسان بقيادة أخيها الفونس القادم من البروفانس في جنوبي فرنسة. ومع الاميرة تدفق سيل من التأثيرات العربية الاسبانية على صقلية التي كانت هي نفسها مهداً للحضارة العربية الاصيلة — تعرف الحب العذري ، وأشعار الغزل تقال في الفتاة العادية وليس فقط في سيدات النبلاء كما شاع في فرنسة الجنوبية .

وتدرّب القيصر واولاده مع مجموعة من الشعراء على نظم الشعر الغنائي. وبدأوا ، تماماً كما حدث في جنوبي فرنسة وألمانية ، في نظم أشعارهم بلغة البلاد. وكان ما أنتجوه هو البذرة الأولى التي أنبتت فيما بعد الأدب الايطالي الكلاسي : ويقول في ذلك بترارك : « وفي زمن قصير شاع ذلك النوع من الشعر ، الذي ولد بصقلية ، في كلّ إيطالية وتعداها » ويقول دانتي Danté : « ولذلك يسمى كل ما نظمه أجدادنا من أشعار بلغة البلاد بالشعر الصقلي » .

لقد تأثر الشاعران الايطاليان دانتي (٦) وبترارك (٧) بالاشعار العربية ، بترارك عن غير عمد ودانتي لاهتمامه الشخصي بالأشعار العربية والتصوف والفلسفة الأندلسية وابن رشد . وبينما نجد في أشعار بترارك تأثيرات عربية غير مباشرة نجد أثر ابن عربي ومؤلفاته واضحة وضوحاً تاماً في اشعار دانتي .

وفي الوقت نفسه وَفَد إلى المانية ووسط أوروبة تيّار جديد من جنوبي

فرنسة ظهر على شكل أشعار غنائية تتناول المرأة. وكانت تلك الأشعار في ذلك الوقت اشبه ما تكون بثورة على اوضاع غريبة جعلت من المرأة كائناً أدنى مكانة من الرجل ، بل إن وجهها هو أداة من ادوات الشيطان للتغرير بالناس . فهي مرتبطة في الأذهان بالإثم والخطيئة وهي التي تحول بين العبد والرب وتنحرف بالناس عن الطريق السويّ .

وانتهت سيادة العرب على إسبانية عام ١٤٩٢ م . في الثاني من يناير عندما رفع الكردينال بدرو جونزاليس D. Pedro Gonzales de Mendoza الصليب على قصر الحمراء (الهمبرا) .

وبانتهاء تلك السيادة العربية انتهت أعظم حضارة عرفتها اوروبة في القرون الوسطى وانتهى عصر عظيم نعمت فيه اسبانية بالرخاء والخير العميم فارتفعت صناعاتها واستغلت مواردها وزاد عدد سكانها وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون بدرجة لم تعرف لها من قبل مثيلاً .

وراعت السلطات المسيحية الجديدة التي استردت الأندلس من العرب شروط الصلح لمدة ثماني سنوات . وكان رئيس الأساقفة تالافيرا يعجب بالحضارة العربية ويكنّ للعرب كلّ تقدير واحترام . وكان دائماً يردد قوله : « إن العربي تنقصه العقيدة المسيحية ، أما الاسباني فتنقصه لكي يصبح مسيحياً حقاً الأفعال الحميدة التي يفعلها العربي »

وانتقلت الحال في عصر رئيس الاساقفة خوان كسيانيز الذي خلف تالافيرا المتسامح .فلم يلبث المسلمون ان لاقوا أهوالاً أفظع من ان توصف، سببها التعصب الديني الأعمى . وأصبح السجن والتعذيب والحرق وسط النيران هي عقوبات من يمارس شعائر الإسلام أو ينطق لغتهم ، او يتغنى بأشعارهم . وأصبحت زيارة الحمّام جريمة . وما تبقى من الكتب والمخطوطات العربية ، والذي لم يسلب أو ينهب تَجمَعَهُ رجال الأسقف بمنتهى العناية ليوقدوا فيه النار . وهكذا حرقت يد التعصب مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الاندلس وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون .

* وقعت المؤلفة في الخطأ الذي يقع فيه أكثر المؤرخين الأجانب ، من أن المعتمد بن عباد قد زوّج ابنته سعيدة لألفونس السادس ، والحقيقة أن ألفونس السادس كان قد تزوج من « زائدة » أو أنها كانت حظيته ، وهي المسلمة المتنصرة التي كانت زوجة الفتح بن المعتمد ابن عباد. للاستزادة راجع كتاب دول الطوائف ص ٣٢٣ - ٣٢٧ لمحمد عبد الله عنان وكتاب عصر المرابطين والموحدين ص ٦٢ للمؤلف نفسه .

خاتمة

« من يعرف نفسه ويعرف الآخرين
لا بد له ان يعترف هنا ايضاً
ان الشرق والغرب لا ينفصلان »

« وتدفقت جموع العرب المتوحشين بوجوههم السوداء وخيلهم الكثيبة فوق أرض إسبانية التي تركها أهلها فزعاً . وانثنت الارض المآ تحت وقع سنابك خيولهم التي خربت الحقول وهدمت المنازل ولم تترك نبتاً ولا زرعاً » .

هذا هو النص الذي يقرأه اليوم أطفال المدارس في الغرب عن فتح المسلمين للأندلس. وما كان يمكن أن يحدث لبلدان الغرب لو لم يهزم شارل مارتل العرب وينقذ أوروبة المسيحية من « شرورهم ». والواقع أن مثل تلك الجمل قد ألفناها في الغرب وتعلمناها حتى حسبناها حقائق لا تقبل الشك تماماً كاعتقادنا بأن العرب ليسوا بأصحاب حضارة إنما هم مجرد وسطاء نقلوا الينا حضارة الأغريق .

هل فكر شارل حين هاجم المسلمين بجنوده أن يكون كما يدّعي بعضهم منقذاً للغرب ؟ الحقيقة أن شارل لم يخطر بباله شيء من هذا ، بل لقد ذهل حين أُخبِرَ في الصبح بعد معركة غير فاصلة ان المسلمين قد انسحبوا. ولم يحتفل شعب شارل به قط كمنتصر على العرب ، وإنمّا احتفلوا به بوصفه قد أحرز النصر على القبائل الالمانية : (Sachsen, Friezen, Alemannen) وسموه لذلك بشارل ذي المطرقة. ولم يعد خلفاؤه معاركه عند بواتييه وافينيون ونيم ومرسيلية ونربونة أيّ اهتمام يذكر .

وعندما اراد القيصر لودفيج المتدين Ludvig der Fromme ان يسجل أمجاد اجداده على جدران قصره في مدينة انجلهايم لم يجد في اعمال جده الكبير شارل مارتل ما يستحق التسجيل سوى انتصاره على القبائل .

ولم تر الكنيسة في أعمال شارل مارتل وانتصاره في بواتيه أية بطولة او حماية للمسيحية من ايّ نوع كان، بل رأت في ذلك لعنة من الله تحل عليه كسارق لأموال الكنيسة استباح أموال الاديرة لتسليح واعداد جنده الذين اشتركوا معه في القتال . ولهذا وجد قبره بعد مماته خالياً لأن الشيطان حمله ليقذف به في الجحيم مكفراً عن آثامه .

ألا نبالغ نحن اليوم في تصوير ما حدث عند بواتيه ؟ إن مؤرخاً بلجيكياً يرى أن ما حدث لم يكن له من نتيجة سوى منع اتساع رقعة دولة العرب في الاندلس ، وإنّ أحداً ، في عام ٧٣٢ م ، لم يكن يفرق بين سيادة المسلمين والمسيحيين اكثر من تفريقه بين سيادة رومة وسيادة القيصر . ففي العام ذاته ٧٣٢ م . أرسل البابا غرغوريوس الثالث رجلاً سورياً يدعى بونيفاسيوس إلى المانية فأخضع مقاطعتي التورنجر والهاسن لنفوذ البابا . وفي عام ٧٣٨ م . وبينما شارل مارتل مشغول بصراعه مع العرب من جديد انتهز Bonifatius تلك الفرصة وأخضع بافاريا أيضاً للكرسي البابوي ونشر نظام رومة الكنسي في المانية .

هذه هي الحقائق الثابتة . أمّا ماذا كان يمكن ان يحدث للغرب لو لم يقف زحف المسلمين ؟ فهذا سؤال لا يستطيع التاريخ ان يجيب عليه لأنه لم يحدث فعلاً . والتاريخ لا يخمن ولا يفترض الافتراضات ليبني عليها نتائج لم يكتب لها الوجود .

وبرغم هذا فإن المؤرخين لا زالوا يرددون هذا السؤال ويجيبون عليه إجابة الواثق من صواب رأيه دون أن يملك دليلاً واحداً يثبت به ما يدّعيه . فليس ثمّة كتاب تاريخ في الغرب إلا وذكر شيئاً عن فضل شارل مارتل في الدفاع عن المسيحية أو حماية الغرب أو المحافظة على المدنية الغربية من الزوال .

أوليس من العجيب ان نتساءل لماذا نفسّر كما يحلو لنا ، والعرب قد احتلوا

فعلا جزءاً من أوروبة هو الاندلس ؟ فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون ان شارل مارتل قد حماها ، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود !! لقد حوّلوا الاندلس في مائتي عام حكموها من بلد جدب فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب يقدّس العلم والفن والادب ، قدّم لأوروبة سبل الحضارة وقادها في طريق النور .

إن التاريخ لا يهتم بماذا كان يمكن ان يحدث ، لو ان هذا قد حدث او لو ان ذاك لم يحدث . إنّ التاريخ أعمق وأدق من ان يسبح في الخيال ، فواجبه الأول هو الاهتمام بالحقائق .

فكل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبة في ذلك العصر كان مصدرها البلدان الإسلامية .

كما أوجد الاسلام باستيلائه على بلدان البحر الابيض المتوسط ، وضعاً سياسياً جديداً أدّى إلى نقل مركز الثقل في الغرب من البحر المتوسط إلى المانية فأصبح الراين هو المنظم للسياسة الأوروبية.

وكان ردّ الجرمان غير المباشر على ذلك التوسع الإسلامي هو تكوين الجيوش من الفرسان وتأسيس المنظمات الدينية لفرسانهم والتفكير بالحروب الصليبية ضد فلسطين .

ولقد كان ظهور الاسلام وتوسعه عاملا أنقذ الكنيسة من الانحدار ، وأرغمها على إعداد نفسها لمواجهة تلك القوى المعادية دينياً وفكرياً ومادياً .

ولعل أكبر دليل على هذا هو أنّ الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الاسلام ولم يواجهه .ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً . واستيقظ الفكر الأوروبي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنىً وجمالاً وأوفر صحةً وسعادةً .

والعداء الديني والتعصب الأعمى كانا اسوأ قائد للشعوب حرماها من الحياة والازدهار . ولئن كان التقارب بين الشرق والغرب ، في فترات متباعدة ، قد أدى إلى نقل الحضارة العربية إلى اوروبة لتبدأ نهضة الغرب ، فإنّ التنازع الدائم بينهما قد مثّل هو الآخر دوره في شحذ الهمم وخلق الحضارة الغربية إلى حيّز أوروبة والبشر جميعاً .

حواشي الكتاب السابع

١) هم فلاسفة وعلماء عرب من الاندلس وشمالي إفريقية ، حملوا لواء الفلسفة العربية خلال القرون الوسطى ، وكان لهم أثر بالغ على الحياة الفكرية في اوروبة ، واهمهم ابن طفيل صاحب القصة الفلسفية الشهيرة « حي بن يقظان » وابن رشد الملقب عن حق « بشارح أرسطو » و « بالمعلّم الثاني » ، وابن خلدون الذي وضع أسس علم الاجتماع الحديث كما يقرّ بذلك كل محب للحقيقة .

٢) وثمّة رواية أخرى تقول: إن ابن عمّار ركب البحر مع المعتمد بن عبّاد، فمرت الريح وزردت صفحة الماء . فقال المعتمد لابن عمّار أجر :

« صَنَعَ الريحُ من الماء زردْ .

ولما عجز الوزير عن ايجاز البيت ، قالت غسالة كانت قربهما ، وهي اعتماد :

ايّ درع لقتال لو جمد » !

فأعجب بها المعتمد إعجاباً شديداً ، وزاده في ذلك جمال وجهها فضمها الى جواريه .

٣) **ابن خلكان**(١٢١١ – ١٢٨١ م) مؤرخ وقاضٍ ومدرّس ، تعلّم في حلب ودمشق والقاهرة ، ومن مؤلفاته : « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ، ويعتبر من أهم المصادر في التراجم ، وفي تاريخ الآداب العربية .

٤) **ابن عربي** : محيي الدين ابن – الاندلسي . (١١٦٥ – ١٢٤٠) ولد في مرسية (الاندلس) وتوفي في دمشق . صوفي اقام ٣٠ عاماً في اشبيلية ثم رحل إلى الشرق . كان ظاهرياً في العبارات باطنياً في الاعتقادات . اتخذ دليلاً لحياته النور في قلبه لا في الشريعة . رُمي بالزندقة . من مؤلفاته : « الفتوحات المكيّة » .

٥) **ابن الفارض** : عمر ابن الفارض (١١٨٠ – ١٢٣٤ م) ولد في القاهرة وتوفي فيها. شاعر متنسك، نظم الشعر متغزلاً بالله تعالى مستعملاً رموز الألفاظ الغرامية .

٦) **دانتي ألياري** : Dante Alighieri : (١٢٦٦ – ١٣٢١ م) اعظم شعراء إيطالية ومن رجالات الادب العالمي خلّد اسمه بملحمته الشعرية «الملهاة الالهية : La Divina Comedia .

٧) **بترارك** : Pétarrque (١٣٠٤ – ١٣٧٤ م) شاعر إيطالي ولد في اريزو . وهو مؤرخ وفلكي وباحث عن المخطوطات القديمة . ويعتبر بترارك من اعظم من نظم باللغة الايطالية ، لذلك يضعه المؤرخون بين أركان النهضة في إيطالية .

مقارنة تاريخية

العالم الغربي	العالم العربي
٥٢٤ م موت بويثيوس Boetius	حوالي ٥٠٠ م امرؤ القيس، من اصحاب المعلقات
٥٢٦ م موت تيودريش الكبير	
٥٢٩ م إغلاق مدرسة الفلاسفة في أثينة	« ٧٥٠ م مولد النبي العربي محمد
٥٣٤ م نهاية حكم الفاندال في افريقية	
٥٦٨ م تأسيس مملكة اللومبارديين	
	٦٢٢ م هجرة الرسول الى المدينة
	٦٣٢ م وفاة النبي
	٦٣٨ م فتح البلاد المقدسة
	٦٤٢ م فتح مصر وتأسيس مسجد عمرو في القاهرة
منذ ٦٥٠م نجم الكارولنجيين يتألق صعوداً	
	٦٦١ – ٧٥٠ م الامويون في دمشق
	٦٦٢ م سرفروس يحسب بتسعة ارقام هندية

٦٨٧–٧١٤ ببين الاوسط Pippin	٦٨٧ م بدء عصر الترجمة من اليونانية الى العربية
	٧١١ م فتح اسبانية حتى جبال البيرنيه
٧٣٢ معركتا تور وبواتيه	٧٣٠ م بدء العمل في بناء مسجد في القيروان
	٧٦٠ – ١٢٥٨ م العباسيون في بغداد
٧٦٧– ٨١٤ شارلمان الكبير	٧٥٦ – ١٠٣١ م حكم الامويين في قرطبة
	٧٧٦ م تبني الارقام الهندية العشرة
	٧٨٦ م بدء العمل في بناء مسجد قرطبة
	٧٨٩ م بناء العقود المنكسرة في الرملة
	٧٨٦ – ٨٠٩ م الخليفة هارون الرشيد الشعر العربي في عصره الذهبي
	٧٩٤ م اولى مطاحن الورق في بغداد
٨٠١ م احتلال مارك الاسباني	٨٠٣ – ٨٧٣ م الفلكي محمد بن موسى
	٨٠٩ – ٨٧٧ م حنين بن إسحاق ، طبيب ومترجم بارز
	٨١٣ – ٨٣٣ م الخليفة المأمون ، العلم العربي في عصره الذهبي
	٨٢٥ م زرياب يؤسس مدرسة الموسيقى في قرطبة

٨٤٠ م موت لويس القديس

٨٤٣ م تقسيم الانـــبراطورية حسب معاهدة فردان

٨٤٣ – ٩١١ م حكم الكارولنجيين

٨٧١ – ٩٠١ م الفرد الكبير Alfred من فساكس Wessex

٩١٩ – ٩٣٦ م الملك هاينريش (هنري) الأول

٩٣٦ – ٩٧٣ م الانبراطور اوتوالكبير

٩٤٥ م مولد جربرت فون اورياليك

٩٥٥ م الانتصار على الهنغاريـــين في مقاطعة الـ Lechfeld

٨٣٠ م « بيت الحكمة » في بغداد

٨٣١ م احتلال العرب لبلرمو Palermo

٨٣٦ – ٩٠١ م ثابت بن قرة « اقليدوس عربي »

٨٤٠ م احتلال جنوبي ايطالية

حوالي ٨٤٠ م وفاة العـــالم الرياضي الخوارزمي

٨٥٠ – ٩٢٥ م الرازي: طبيب وكيمائي وفيلسوف

٨٧٦ م بدء العمل في بناء مسجد ابن طولون في القاهرة

٨٧٧ – ٩١٨ م البتاني: اعظم عالم فلكي ومؤسس علم المثلثات

٨٨٠ م ابن فرناس يبني أول طائرة

٩١٢–٩٦١ م الخليفة عبد الرحمن الثالث في قرطبة

٩٣١ م ادخال نظام الامتحانات للاطباء في بغداد

٩٨٢ م هزيمة الملك اوتو الثاني امام عرب صقلية في جنوبي ايطالية

٩٩٩ - ١٠٠٣ م جربرت يصبح البابا سلفستروس الثاني

١٩٢٠ - ١٠٨٧ م قسطنطين الأفريقي ينقل الكتب الطبية العربية الى اللاتينية

١٠٦٠ م النورمانيون يبدأون باحتلال صقلية

١٠٦٣ م البابا الاسكندر الثاني يأمر بتجريد حملة صليبية ضدالعرب في اسبانية

٩٦٥ - ١٠٣٩ م ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبي

٩٨٠ - ١٠٣٧ م ابن سينا : طبيب وفيلسوف وعالم فيزياء وفلك ومؤسس علم الجيولوجية (طبقات الأرض)

٩٨٨ م ابن النديم يصدر « الفهرست »

٩٩٤ م وفاة علي بن العباس . اول موسوعة طبية في العلم

٩٩٤ - ١٠٦٤ م ابن حزم ، نظريات في الحب والدين

٩٩٥ م دار العلم في القاهرة

١٠٠٠ م الخليفة المقتدر بالله يأمر بضرورة تحجب المرأة

حوالى ١٠٠٠ م علي بن عيسى ، اكبر طبيب للعيون حتى القرن الثامن عشر

١٠١٧ م مؤلف البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة)

١٠٢٠ م موت الفردوسي

١٠٢٣ م وفاة ابي القاسم ، ابي الجراحة الاوروبية

١٠٣١ م مملكة قرطبة تتجزأ الى دويلات

١٠٣٨-١١٢٣م عمر الخيام ، شاعر ورياضي

١٠٦٩ - ١٠٩٥ م الملك المعتمد

١٠٦٤ م حمام الدم في بارباسترو Barbastro	١٠٧١ م وفاة الشاعر ابن زيدون
١٠٧١–١١٢٧ م النبيل فليهلم التاسع، أول شعراء الاغاني	
١٠٨٣ م هوجو فون كلوني يزور كنيسة مونتي كاسينو	١٠٧١ م السلاجقة يحتلون القدس
١٠٨٤ م روبرت جيزكارد يأخذ غرغوريوس السابع الى مونتي كاسينو	
١٠٩٠ م أول وثيقة مكتوبة على الورق في صقلية	
١٠٩٦–١٢٩١ م الحملات الصليبية	١٠٩٥ – ١١٨٨ الامير اسامة بن منقذ
١٠٩٨–١١٨٩ م هيلد غاردفون بانغن	
١٠٩٩ م احتلال القدس	
١١٣٠ م تتويج روجر الثاني	١١٢٦ – ١١٩٨ م الفيلسوف ابن رشد
١١٤٣ م ترجمة كتاب الحساب للخوارزمي	
١١٥٠ م الصليبيون يأخذون عن العرب تقليد الرموز	
١١٥٢–١١٩٠ م فريدريك الأول بارباروسا	١١٥٤ م وصف الارض للادريسي
	١١٦٥ – ١٢٤٠ م الصوفيون وابن عربي موحو دانتي
	١١٧١ م صلاح الدين يتغلب على الفاطميين
١١٨٦ م هاينرش (هنري) السادس يتزوج كونستنزا ابنة روجر الثاني	

١١٨٧ م وفـــاة جيرارد الكريموني ، مترجم الآثار العربية

١١٩٣ – ١١٨٠ م البرت الكبير

١١٩٤ مولد فردريك الثاني

١٢٠٠ ليوناردو البيزاوي يدخـــل استعمال الطرق الحسابية العربية

١٢١٤ – ١٢٩٢ روجر باكون

١٢١٥ – ١٢٥٠ الانبراطور فردريك الثاني

١٢١٨ – ١٢٢١ هوجو من لوكا ، يتعلم التعقيم والتخدير على ايدي العرب

١٢٢٥ – ١٢٧٤ توما الاكويني

١٢٢٩ معاهدة الصلح في يافا

١٢٣١ فردريك الثاني يصدر القوانين

١٢٤٨ لويس التاسع الفرنسي امـــام دمياط

١٢٦٩ بطرس الماريكوري Maricourt » يكتب Epistolae de Magnete

١٣٢٠ فلافيو غيويا Flavio Gioja يخترع ادعاءً البوصلة

١١٩٧ – ١٢٤٨ ابن البيطار اكبر عالم نبات في العصور الوسطى

١٢٠١–١٢٧٤ العالم الرياضي نصير الدين الطوسي

١٢٠٢ – ١٢٧٠ مؤرخ الطب ابن ابي اصيبعة

١٢١٠ – ابن النفيس، مكتشف الدورة الدموية الصغيرة

١٢١٨ – ١٢٣٨ السلطان الكامل ، صديق فردريك الثاني

١٢٢٧ موت جنكيز خان

١٢٣٢ – ١٤٩٢ بنو نصر في غرناطة . بناء « الحمراء »

١٢٥٤ – ١٥١٧ عهد المماليك في مصر

١٢٥٨ المغول يهدمون بغداد

١٢٧٠ العرب يصنعون المدافع لقبلاي خان

١٢٨٨ – ١٣٢٦ عثمان الأول يؤسس الانبراطورية العثمانية

١٣٢١ موت دانتي

١٣٢٤ بارتولدسفارتس Schwarz يخترع ادعاءً البارود

١٣٤٦ معركة كراسي Crécy

١٣٤٨ الطاعون الأسود

١٣٤٨ أول جامعة المانية في براغ

١٣٨٩ أول مطحنة ورق في اوروبة

١٤٥٢–١٥١٩ ليوناردو دافانشي

١٤٧٣–١٥٤٣ كوبرنيكس

١٤٩٢ اكتشاف اميركة

١٥٠٠ مستشفى استراسبورغ يعين طبيباً فيه لأول مرة

١٥٥٣ ميخائيل سرفتيوس اول من ادعى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، يحرق حياً في جنيف.

١٣٢٥ ابن بطوطة يبدأ رحلته حول العالم

١٣٢٥ معركة بازا Baza، أول مدافع عربية في اوروبة .

١٣٣٢–١٤٠٦ ابن خلدون موجد علم الاجتماع والمؤرخ والفيلسوف

١٣٤٨ ابن الخطيب، ونظريته عن العدوى

١٣٨٩ موت الشاعر حافظ

١٤٥٣ احتلال القسطنطينية . نهاية الانبراطورية الرومانية الشرقية

١٤٩٢ احتلال غرناطة . نهاية الحكم العربي في اسبانية

١٥١٧ العثمانيون يحتلون سورية ومصر

جدول ببعض الكلمات الالمانية

المأخوذة عن العربية أو الفارسية

- A -

الحبش ـ الحبشة	Abessinien
أمير البحر (قائد الاسطول)	Admiral
الانبيق (جزء من آلة التقطير)	Alambik
الفطرس (طائر بحري)	Albatros
الخيمياء (الكيمياء القديمة)	Alchemie
الدهيد (سائل لا لون له رائحته نفاذة خانقة)	Aldehyd
حلبي (قماش منسوب إلى حلب)	Aleppin
الجبر	Algebra
الخوارزمية (طريقة حسابية)	Algorithmus
الحنظل	Alhandal
العضادة أو الإداد	Alhidade
الكنيس (معبد اليهود)	Alkakandschi
ملح القلي (البوتاس)	Alkalde - Alkali
الحنّاء (صبغة للشعر)	Alkanna
القرْمِز	Alkermes
الكحول (مفردها كحل)	Alkohol
القرآن	Alkoran
القبة	Alkoven
المجسطي (كتاب إغريقي لبطليموس)	Almagest
المُناخ (التقويم)	Almanach
المقنطرات	Almuqantarat
أُلوّة (عود الند)	Aloe
ألْبكَة (ضرب من الحيوانات المجترة عديمة القرون)	Alpaka
الأثال أو الأنال (إناء كالبوتقة لا قعر له)	Aludel
الملغم (معدن زئبقي)	Amalgam

العنبر	Amber - ambra
تميمة (خرزة رقطاء تعلق بالعنق تحفظ من العين وتدفع الخطوب)	Amulett
النيل (مادة الصباغ من نبات النيل)	Anilin
البرقوق (المشمش)	Aprikose
التزين على الطريقة العربية	Arabeske
عرق التمر (مشروب مسكر)	Arrak
دار صناعة (حصر معناها في صنع المراكب الحربية)	Arsenal
أرضي شوكي (الخرشوف ، نبات أرضي)	Artischoke
عسكري	Askari
حشاشين (وهم هنا بمعنى القتلة)	Assassine
أطلس (نوع من القماش)	Atlas
زعرور	Azarolapfel
السَمت أو السموت (للشمس)	Azimut
لازورد(اللون الأزرق السماوي)	Azur

- B -

نسيج بغدادي	Baldachin
بلسم	Balsam
الموز (من كلمة بنان أي إصبع)	Banane
البرد (أو البردة ، نوع من الثياب)	Barde
قطيفة البرّقان	Barchent
البروك (اسلوب معيّن في البناء)	Barock
الباز (طائر للصيد)	Beize
لبان جاوي	Benzin
البرُوَاق (نبات من فصيلة الزنبقيات)	Berberitze
قطيفة البرّقان	Berkan
بادِزَهَر (متبلور ، تنسب اليه قوى ترياقية غريبة)	Bezoar
بذْلة (ما لا يصان من الثياب ويستعمل كل يوم)	Bluse
حبوب البن (القهوة)	Bohna
بورق (ملح الصاغة)	Borax - Borat
نبات أبو عرق	Borretsch - Borrago
قطيفة البرقان	Buckeram

- C -

قهوة	Cafe
ملح القلي (البوتاسا)	Calium
رياح الخمسين	Chamsin
الشفّاف (قماش)	Chiffon
السيّد	Cid

- D -

الدمقس(قماش منسوب إلى دمشق)	Damast
يوشي الدمقس	Damaszieren
لعبة الداما	Dame - Spiel
ديوان (للجلوس)	Diwan
ديوان (جمرك)	Douane
عطارة روائح	Droge
محل عطارة وروائح	Drogenie
ترجمان	Drutzelmann
دُرّة	Durra

- E -

عدن (فردوس)	Eden
الأكسير	Elixier
المعيَّن (شكل هندسي	Elmuahin
المنحرف(شكل هندسي)	Elmuharifa

- F -

فقير	Fakir
فتى مرجانة(السراب)	Eata Morgana
فلاّحة	Fellache
فلوكه (قارب صغير)	Feluke
فندق	Fondako

- G -

القبالة (نوع من الضرائب)	Gabelle
أنيق (تحريف للكلمة ، وهو الذي يلبس خلعاً أنيقة	Galant
عاشق	Galan
أناقة	Galanterie
خلنجان (من توابل الهند والصين)	Galgant
طباق	Gamaschen
جانبي - ناحيتي (في لعب الشطرنج)	Gambit
قيراط (للوزن)	Garat
شعر الغزل	Gasel
غزيّ (قماش من صنع غزه)	Gaze
غزال	Gazelle
جريدة	Gazette
جبل طارق	Gibraltar
جبس	Gips- Gyps
زرافة	Giraffe
قيثار	Gittarre
نبات الحلفا	Halfagras - Alfagras
القمار (من كلمة زهر في الاصل	Hasard

الحشيش	Haschisch
العوارية (عطل في بضاعة المراكب)	Havarie - Haferie
الحنّاء	Henna

-I-

تحريف كلمة زنجبيل	Ingwea
الترصيع بالجواهر والاحجار الكريمة	Intarsia
معروض (منشور)	Trade

-J-

ياسمين	Jasmin
جبّة	Joappe -Joppchen - Jumper
جلاّب (مشروب مرطب)	Julep
ُجبّة	Jupon

-K-

كباب	Kabab
َحبل	Kahel
كافر	Kaffer
قهوة	Kaffee
َجلفَط (السفينة)	Kalfatern
الذي يجلفط السفينة	Kalfaterer
قلي (بوتاسيوم)	Kalium
َجمَل	Kamel
زهرة الكاميليا	Kamelie
جملي (قماش يصنع من وبر الجمل)	Kamelott
الكافور	Kampfer
يقند الفواكه (يسكّرها)	Kandieren
القند (عسل قصب السكر بعد تجمده)	Kandis
قيراط	Karat
الكروياء	Karbe - Karve
قرمزي (أحمر قاني)	Karmin - Karmesin
قصيدة	Kasside
القطون (قماش قطني)	Kat (t)un
قوّاس	Kawasse
القفّة	Koffer
القلقثار (اكسيد الحديد)	Kolkothar
القندي (صانع الحلوى)	Konditor
القطن	Koton
يوشي بالقطن	Kotonisieren
الكبابة (من التوابل)	Kubebe
كمّون	Kummel
قبّة	Kuppel

-L-

لازَوَرْد	Lasur
يطلي بالازرق	Lasieren
ليموناده، ليمون	Limonade - limone
لوف الاستحمام	Luffaschwamm
مخزن	Magazin
مقامة	Makama
مراكشي (نوع من القماش صنع مراكش)	Maroquin
مسخرة (وجه مستعار) (قناع).	Maske -maskerae
يمسّد	Massieren
مصطبة	Mastaba
مات في الشطرنج)	Matt;mattpoetzen
مسكين	Mespuin
المخيّر (قماش من شعر الماعز)	Mohair
مخاطرة	Mohatra
الموّار (نوع من القماش)	Moiré
مخـّة (نوع قهوة)	Mokka
موسمية (الرياح الموسمية)	Monsun
المسك	Moschus
مومياء	Mumie
الموصلي (قماش من صنع الموصل)	Musseline
المرّ	Myrrhe

-N-

نائب (بمعنى غني)	Nabob
النظير (للموضع)	Nadir
النطرون	Natron

-O-

الأقـّة	Okka
نارنج (بمعنى برتقالة)	Orange

-P-

ببغاء	Papagei
اللارنج	Pomeanze
قنطرة المسلمين (في انجادين بسويسرا)	Pontresine

-R-

راحة (راحة اليد)	Rakete
مضرب الكرة (من كلمة	Rakett

راحة اليد)	
جنس من (كلمة رأس)	Rasse
غزوة	Razzia
رهج الفار	Realgar
المخاطرة والمغامرة (من كلمة رِزء بمعنى الخسارة)	Risiko

-S-

سفان السمك	Safan
سفر — رحلة	Safari
الزعفران	Safran
صقر	Sake falke
ريح السموم	Samum
شرقي (مسلم من طائفة الاسماعيلية)	Sarazene
شطرنج	Schach
الصك	Scheck
شربات	Scherbet
سمسار	Sensal
سمسرة	Sensalie
شراب (حلو الطعم)	Sirup
زمرد	Smaragd
صُفّة (مقعد مظلل في جوار جامع)	Sofa
شربات (مثلّجة)	Sorbet
اسبانخ	Spinat
سُمّاق (مادة لدبغ الجلود)	Sumach baum

-T-

طلسم	Talisman
الطلق (بودرة)	Talk
تمر هندي	Tamarinde
تعرفة أو تعريفة	Tarif
طاسة	Tasse-Tatze
طاقية (قبّعة)	Tocke
شاعر مغني (من كلمة طروب)	Troubadour
ترجمان	Trutschelmann

-Z-

زملوط (قماش من وبر الجمل	Zamlott
سخين (أكلة من اللحم)	Zechine
سَمْت	Zenit
زبيب	Zibebe
سكّر	Zucker
سكّر القند	Zucherkand

جدول بأسماء كواكب عربية الأصل

-A-

آخر النهر	Acarnar
الاكليل الشمالي	Achleis chemali
العناق	Alamac
البُغاث	Albajoth
الخابور	Alchabor
الدبران	Albebaran
الجبار	Algebar
الجدي	Algedi
الجانب	Algenib
الغميصاء	Algomeiza
الغول	Algol
الغراب	Algorab
العبور	Alhabor
القُرّ	Alkor
الفرد	Alphard
الفرس	Alpherath
الفرس	Alpheraz
الفتى	Alpheta
الطائر	Altair
العناق	Amak
الرِ دف	Aridid
الردف	Arioph
الشراع	Ascheree
الطير	Atair
الثور	Ataur
العيوق	Ayuk

-B-

بطن الحوت	Baten - kaitos
بنات نعش	Beneth nasch
بيت الجوز أو إبط الجوزاء	Beteigeuse

-D-	
Denab	الذنب
Denebola	ذنب العلى
Dubhe	الدّبة
-E-	
Etalnin	التنين
-F-	
Farcadin	الفرقدان
Fomalhaut	فم الحوت
-K-	
Kalbehasit	قلب الأسد
Kalbelazguar	الكلب الأزور
Kalbolacrab	قلب العقرب
Kochab	الكوكب
-M-	
Markab	المركب
-R-	
Rasalgue	رأس الجو
Rasalgethi	رأس الجدي
Rasalgeuse	رأس الجوزاء
Rigel	رجل الجوزاء
-S-	
Scheat	الساعد
-W-	
Wega	النسر الواقع

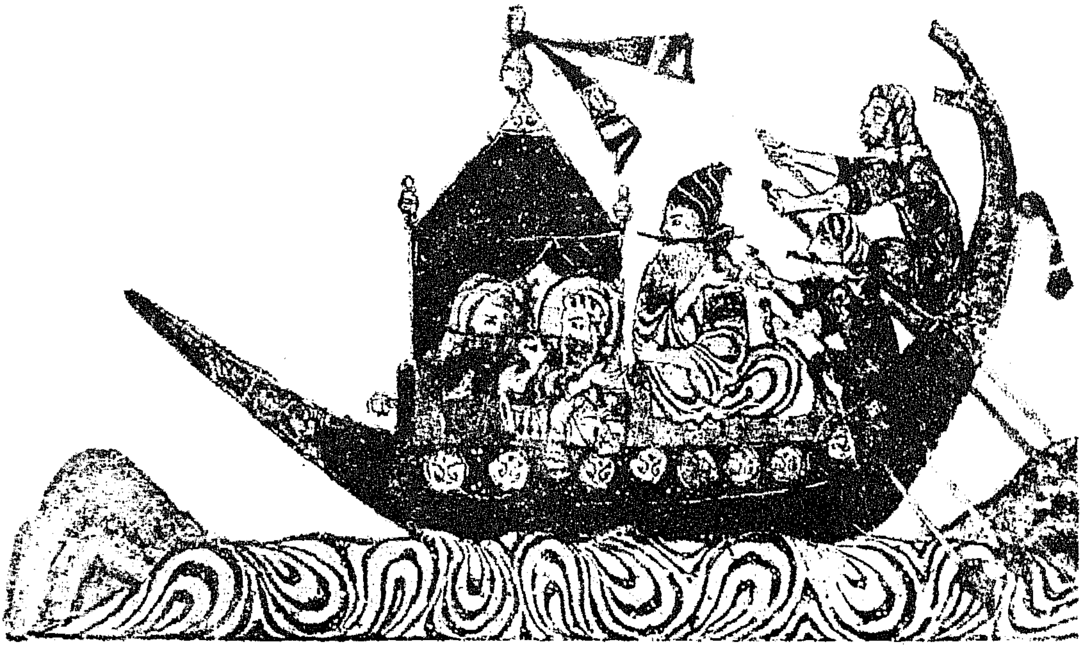

السفن العربية

العرب رجال ترحال وإبحار ، وهنا نرى انموذجين للسفن العربية .

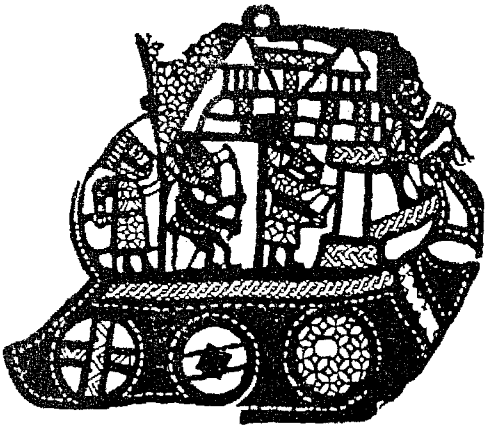

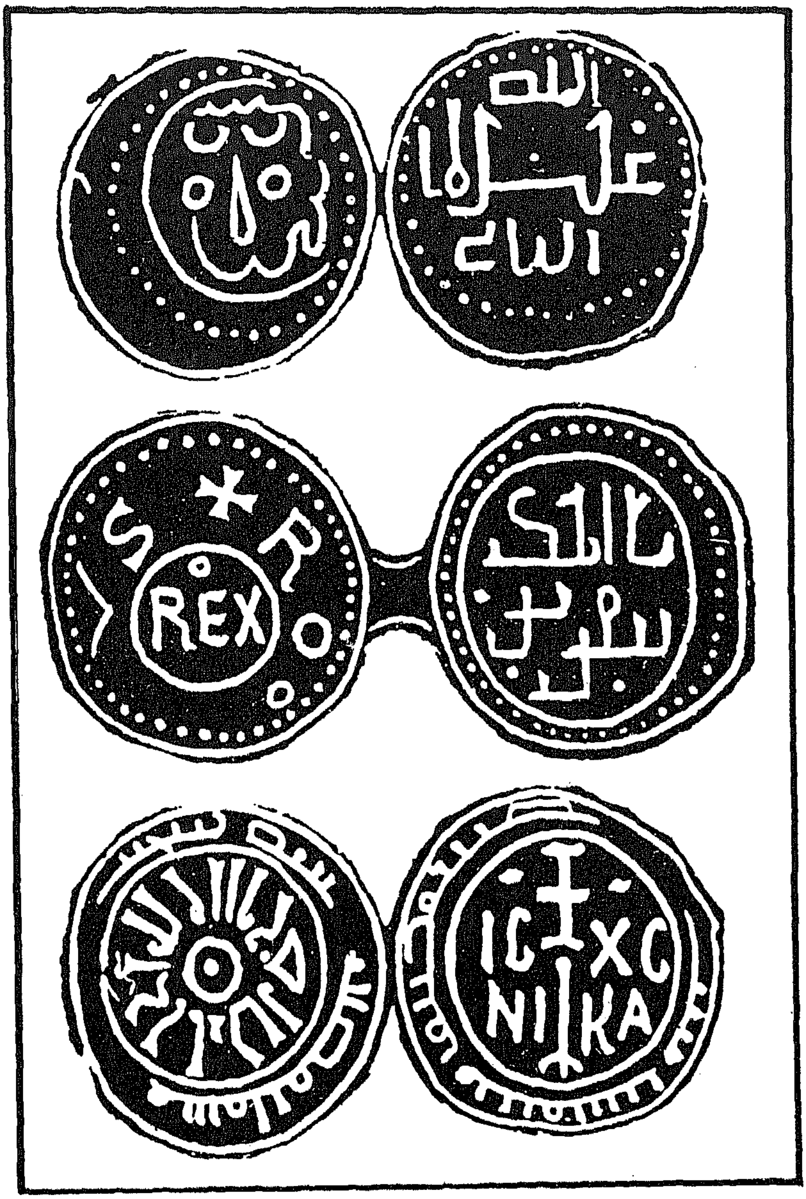
R
REX
IC XC
NI KA

نقود عربية

قطع نقدية من صقلية وعليها احرف عربية .

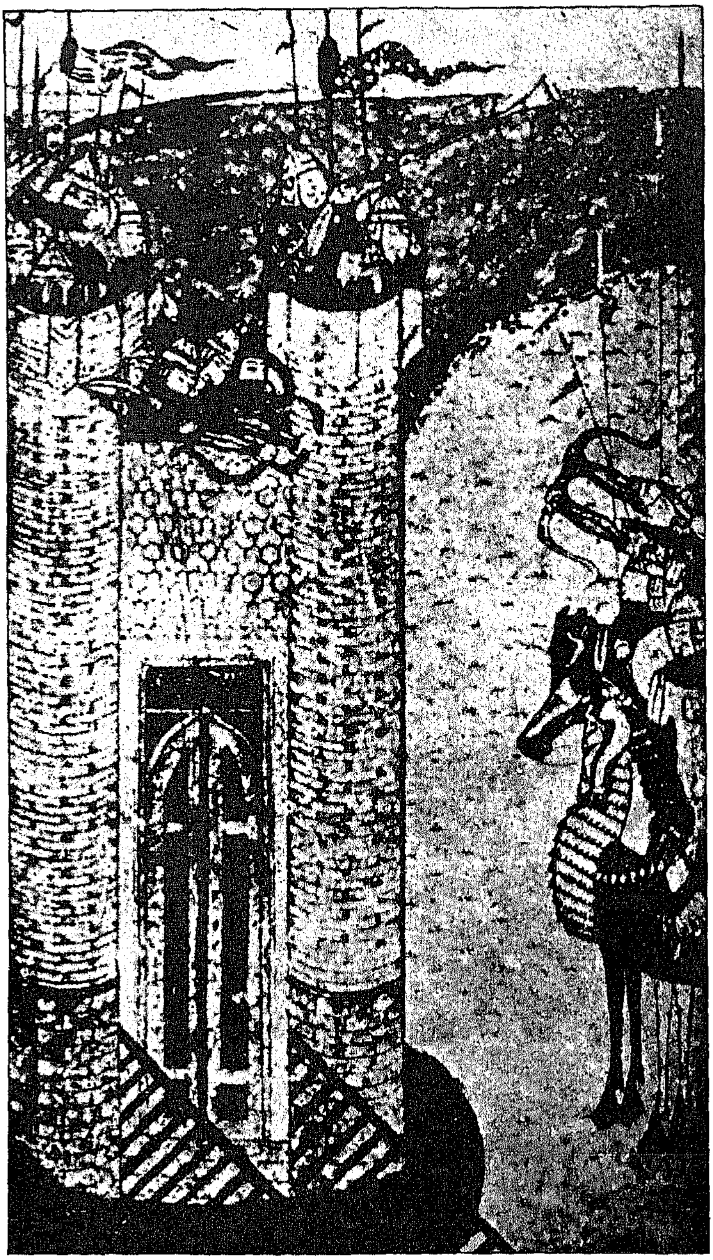

حصار قلعة الموت

فرسان هولاكو: يحاصرون قلعة الأمير الألموتي Von Alamut الذي عمل بنصيحة فلكيه نصير الدين الطوسي وشهر السلاح في وجه الغازي المغولي فقضى في المعركة ، في الوقت الذي ارتقى فيه الفلكي سلم المجد وعين وزيراً .

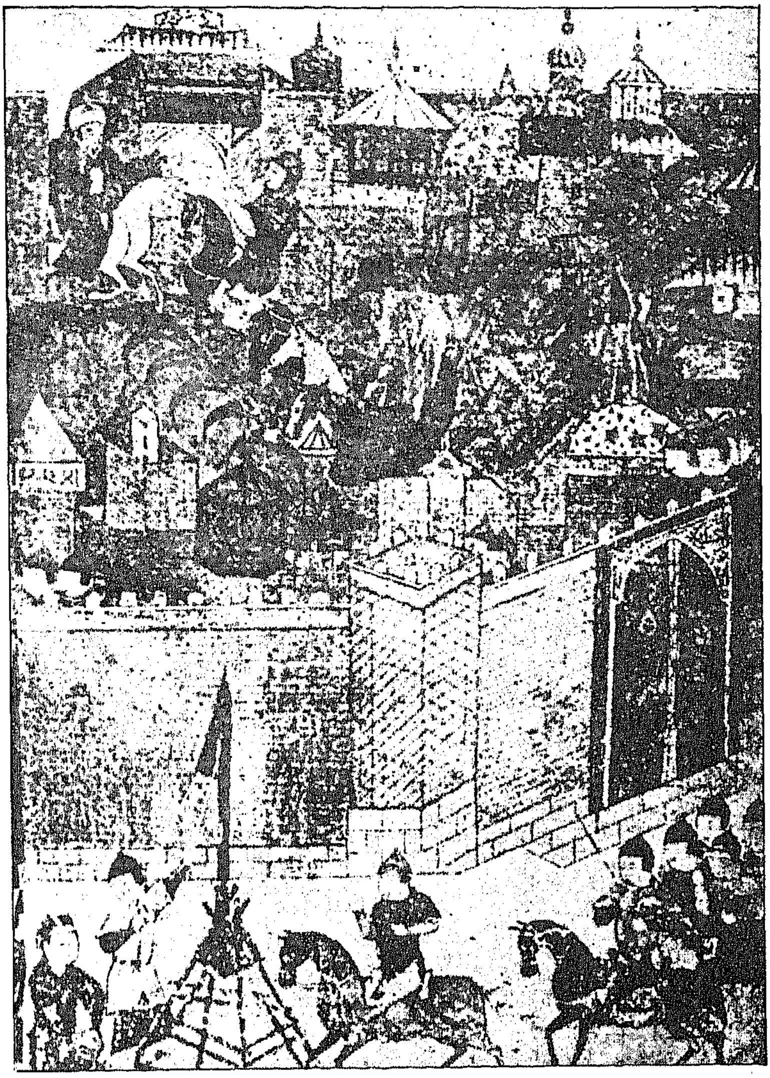

هولاكو في بغداد

جحافل هولاكو ، حفيد جنكيز خان الشهير ، تزحف في طول البلاد وعرضها مخلفة الخراب والدمار وراءها ، حتى وصلت الى بغداد ، عاصمة الدنيا ، فأحالتها انقاضاً...وسعى « الطوسي » الى جمع كل الكتب والمجلدات المصادرة من مكتباتها المحروقة وجلبها الى مرصده في « مراغه » .

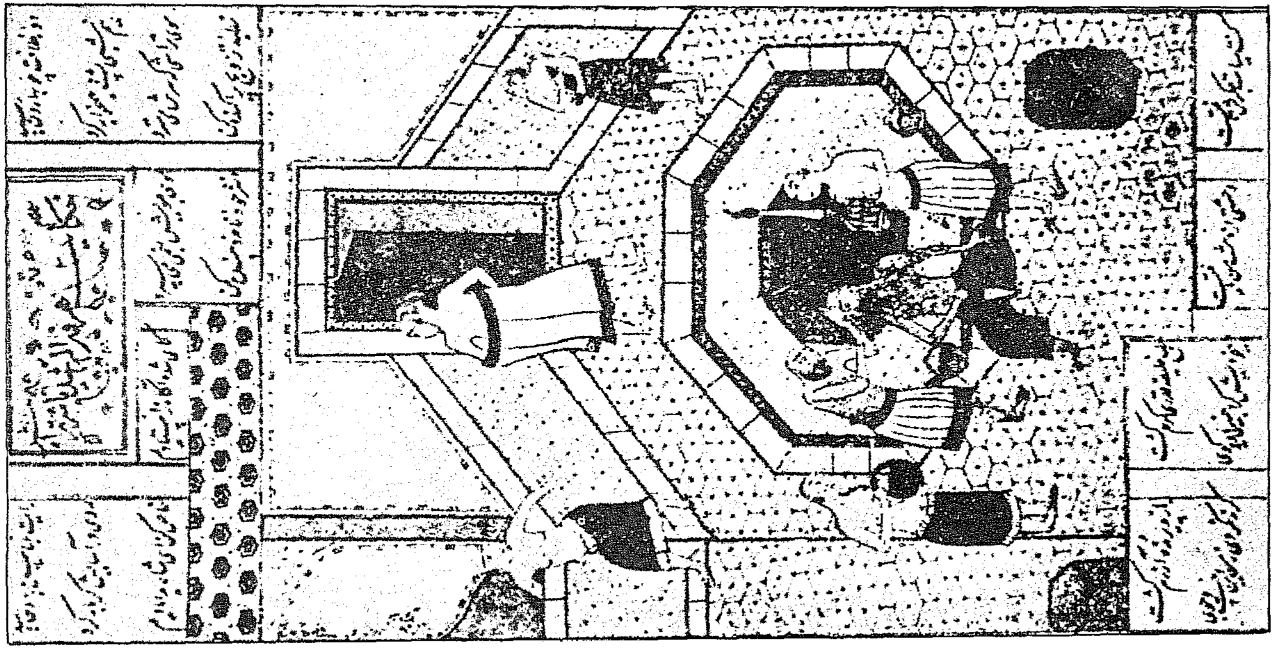

الحمامات العربية

ازدحمت المدن العربية بآلاف الحمامات الساخنة التي كان يزورها بإقبال ومواظبة شديدين زبائن أكثر من الجنسين فيحتفي بهم الموالجون بالامر من مسادين ومزينين ، ويلقون على ايديهم كل عناية وراحة .

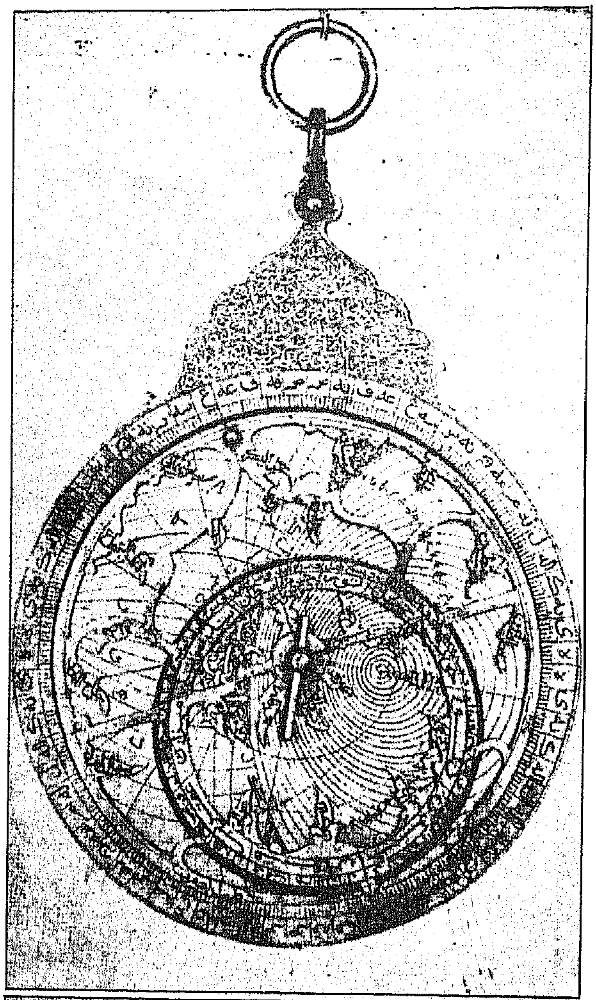

الأسطرلاب

اقد ادى « الاسطرلاب » للعرب خدمات جمة واستعمل ايضاً كساعة جيب .

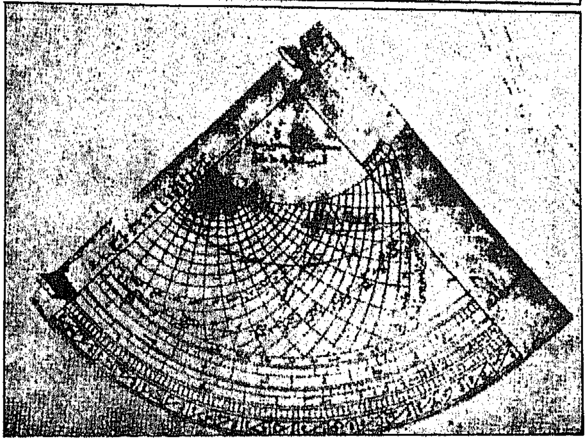

الربع الفلكي

تمثل هذه الصورة ربعاً فلكياً ، وهي آلة كانت شائعة في القرون الوسطى . ويخص هذا الربع محمد بن احمد من المدينة (عام ٨٣٩هـ) .

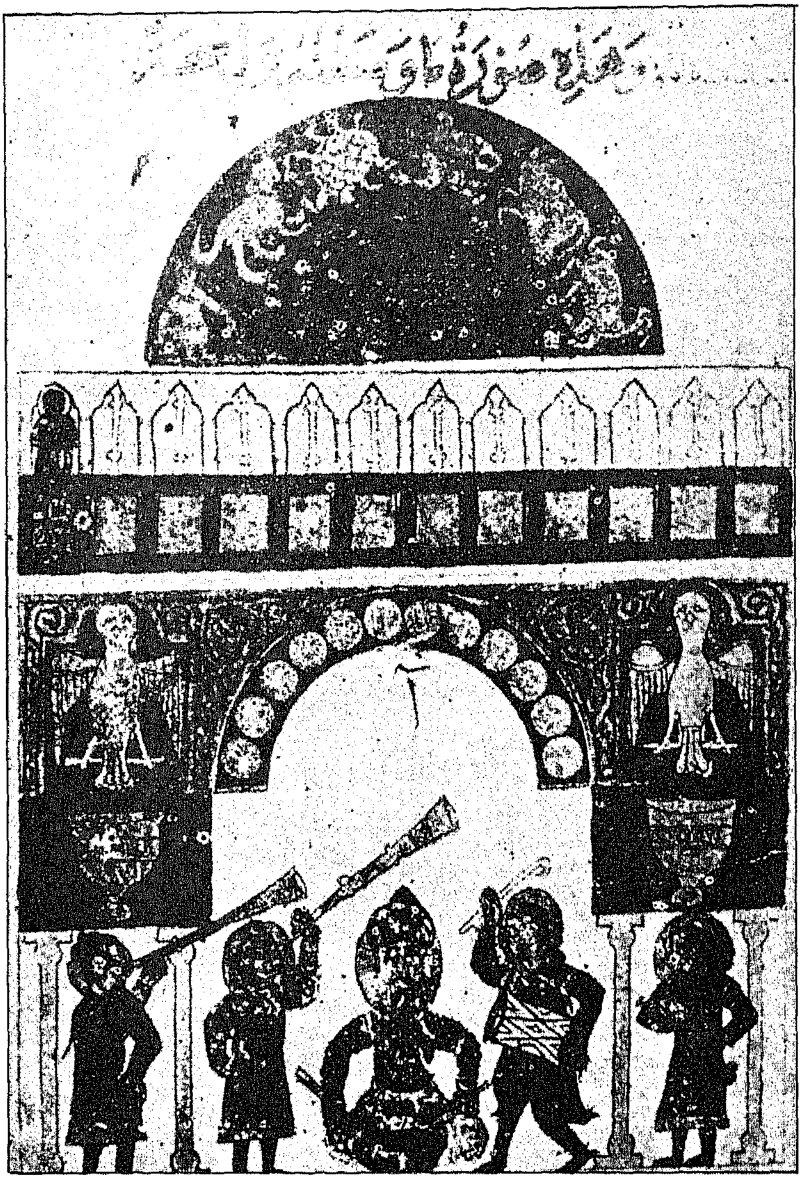

ساعة عربية فنية

رسم قديم لاحدى الساعات الفنية (حوالي عام ١٢٠٠ م) يظهر فيه بوضوح عالم الحيوان المتحرك والشخوصات المتنقلة من صقور تقذف الحلقات في وعاء معدني محدثة صوتاً ايقاعياً جميلاً ، الى عازفين على آلات موسيقية مختلفة ...

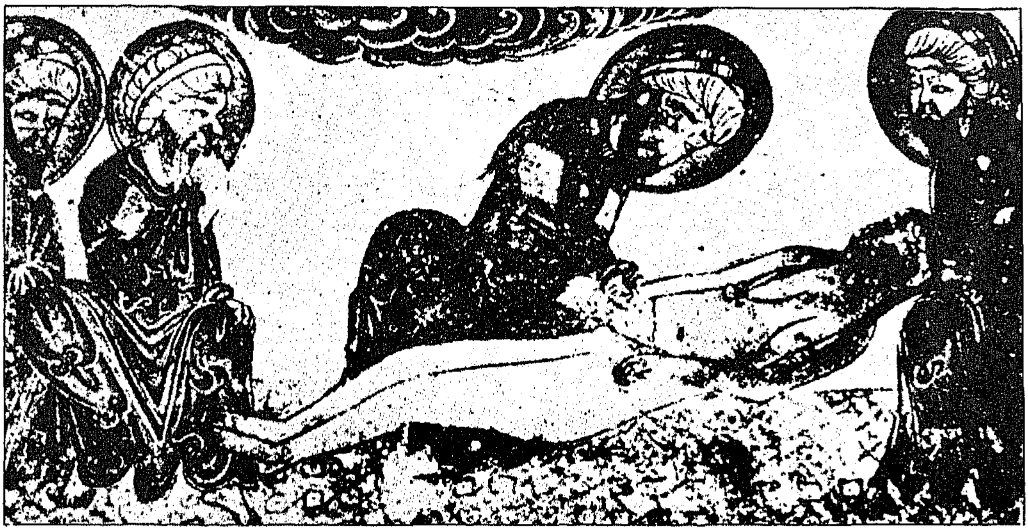

الاطباء العرب وعملية القيصرية

كان طلاب الطب العرب يتلقون علومهم في الجامعات والمستشفيات وقد تخرج من بينهم جماعة من الاطباء لم يكن لهم مثيل في العالم . في الرسم اطباء عرب وهم يجرون عملية « القيصرية » التي تلزم في الولادات المستعصية .

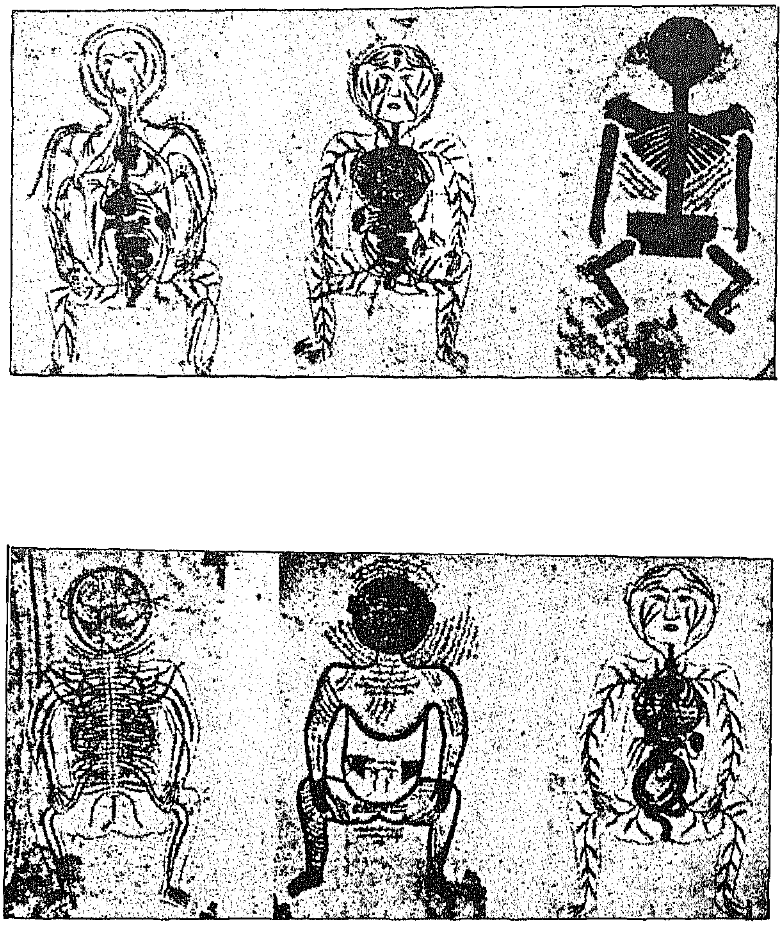

العرب وعلم التشريح

لوحات في علم التشريح كان العرب يستعينون بها في دراستهم للطب .

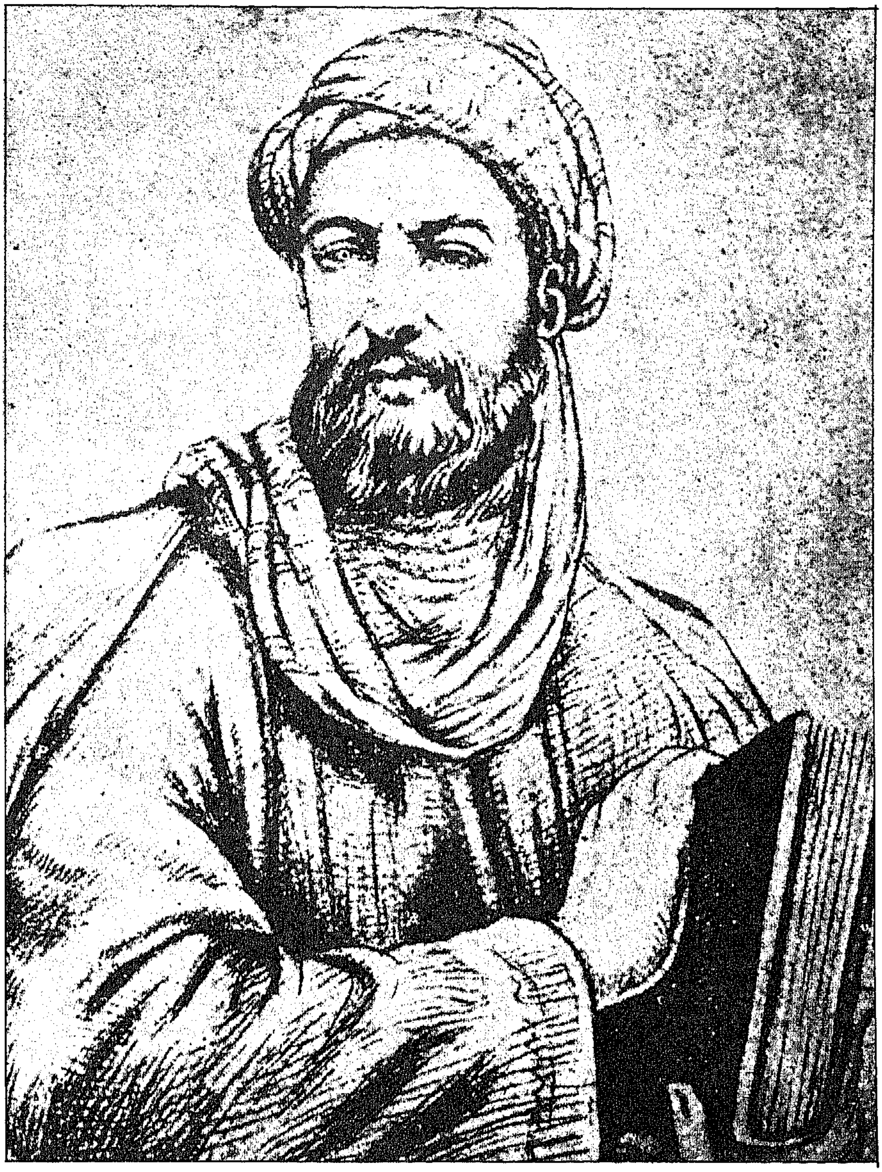

ابن سينا

لقد استطاع « ابن سينا » ان يحجب شهرة جالينوس والاغريق قروناً طويلة من الزمن .

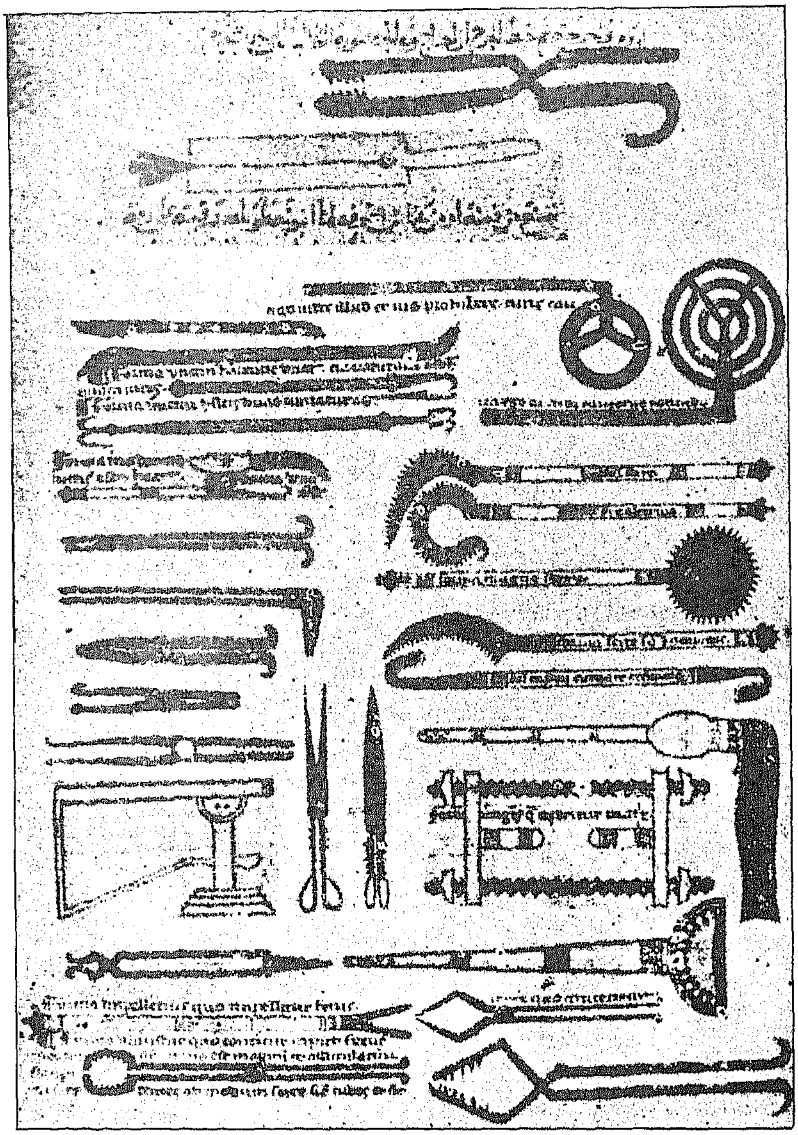

ادوات جراحية عربية

كان ابو القاسم الزهراوي من ألمع جراحي العرب وأعظمهم فضلاً وقد نقل للأطباء الغربيين صور الادوات الجراحية العربية .

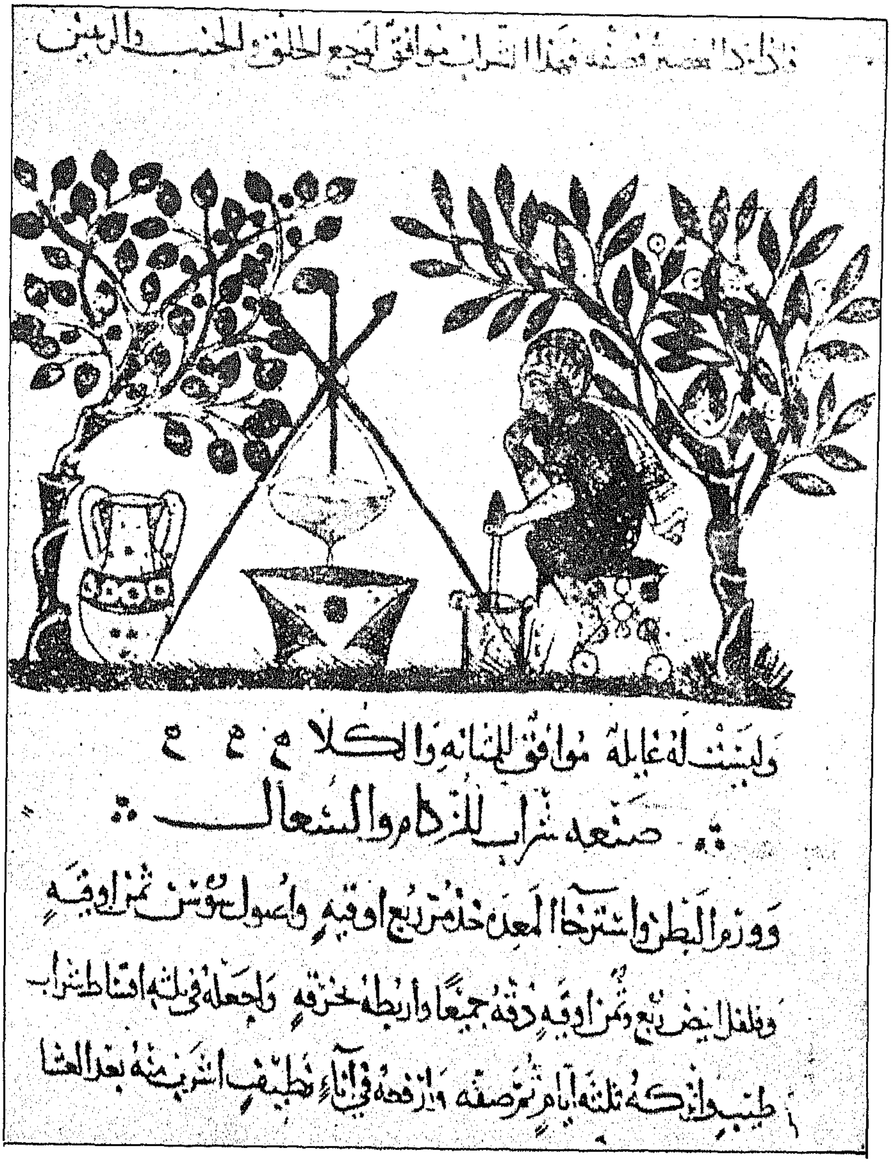

فإذا انهضم فصفه فهذا الشراب موافق لوجع الحلق والجنب والرئتين

وليس له غايلة موافق للمثانة والكلا

صنعة شراب للزكام والسعال

وورم البطن واسترخاء المعدة خذ مر ربع اوقيه واصول سوسن ثمن اوقيه وفلفل ابيض ربع وثمن اوقيه دقه جميعا واربطه بخرقه واجعله في ثلثه اقساط شراب طيب واتركه ثلثه ايام ثم صفه وارفعه في اناء نظيف اشرب منه بعد العشا

الكيميائيون العرب

لقد وفق العرب الى اكتشاف تركيبات كيماوية جديدة في غاية النفع واخترعوا طرقاً جديدة في التحليل الكيماوي ٠

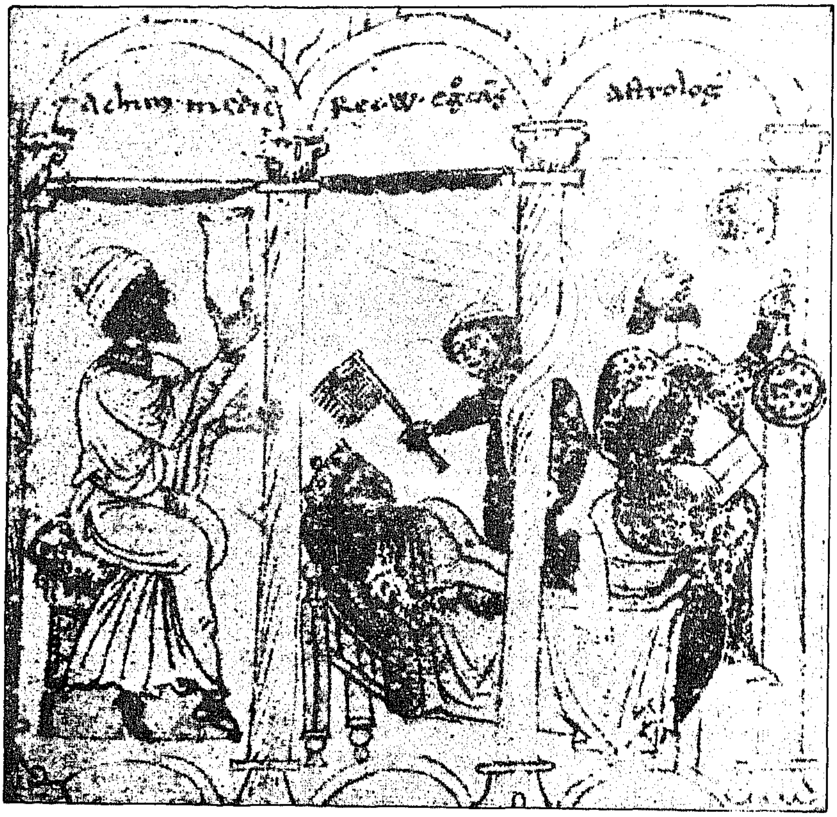

عقاقير عربية

قبل عصر قسطنطين الافريقي وصل الى بلاد الغرب من صقلية المجاورة كثير من العقاقير و « الوصفات » والنصائح الطبية العربية .

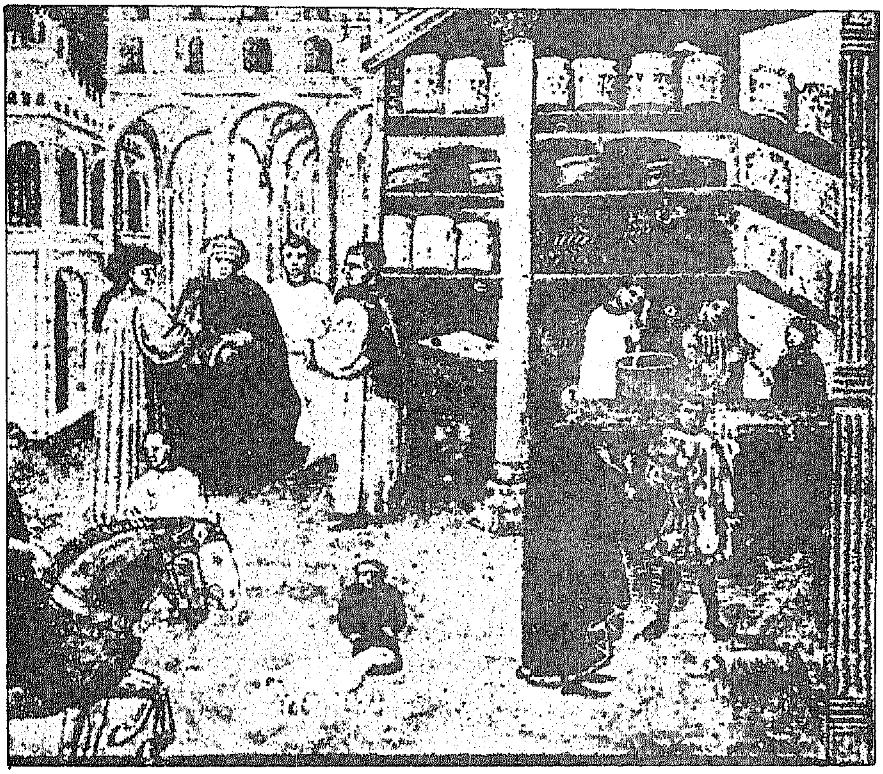

صيدلية عربية

صيدلية عربية كما جاءت مخطوطة بالعربية لابن سينا

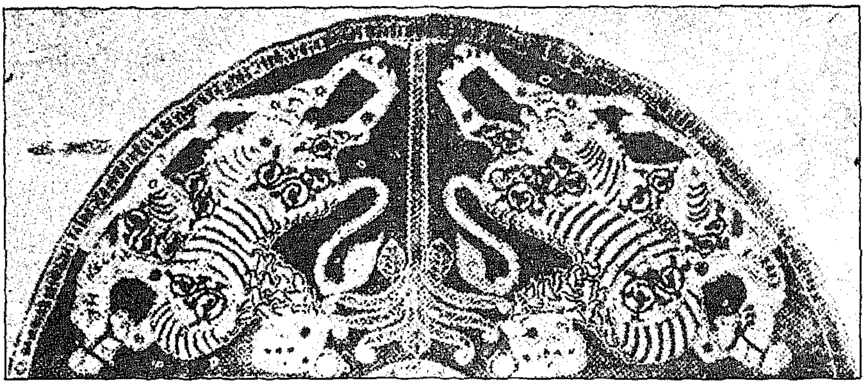

العربية على معطف القيصر

قطعة من معطف القيصر الالماني لدى تتويجه وهي تحمل كتابة عربية .

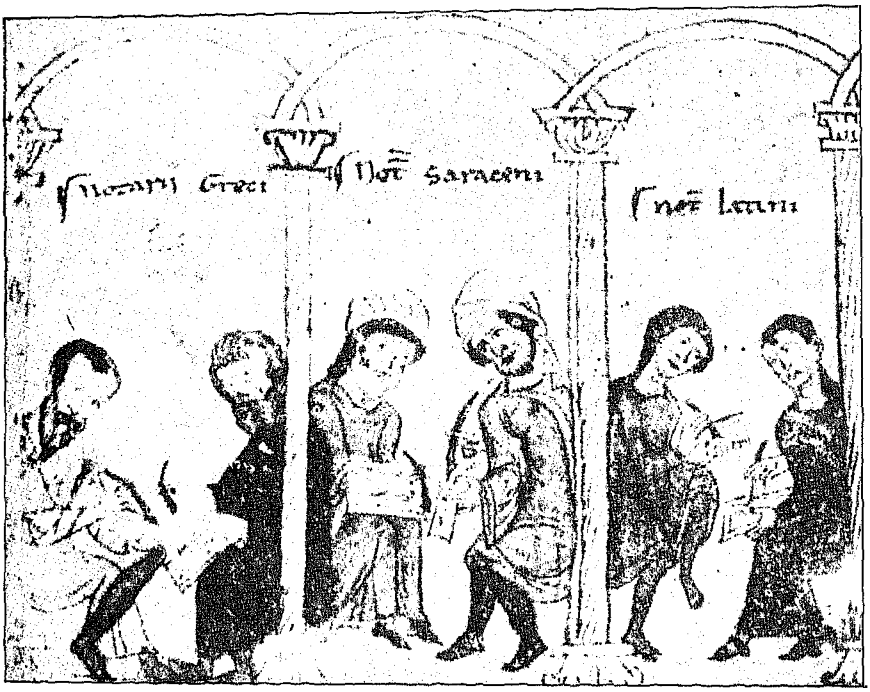
Notarii Greci
Not Saraceni
Not Latini

في مستشارية صقلية

في مستشارية مملكة صقلية كانت تستعمل اللغة العربية واليونانية واللاتينية كلمات رسمية ، الجدير بالذكر أن عربيا كان بالفعل مستشاراً للقيصر فردريك الثاني مدة عشرين عاماً .

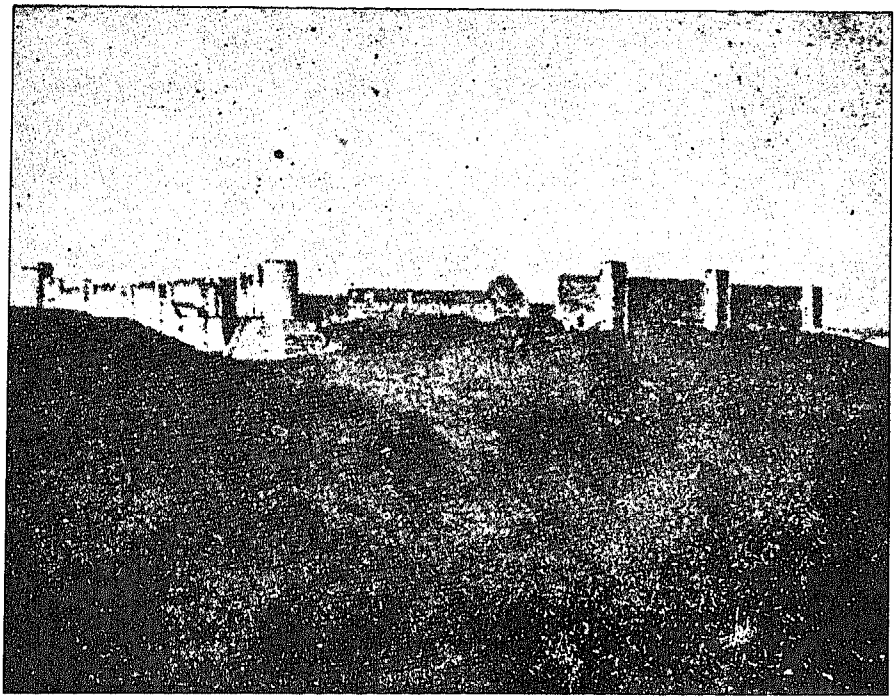

مستعمرة لوثرا

في شمالي مقاطعة أبولين (Apulien) رحل فريدريك الثاني عشرين الى ثلاثين ألفاً من العائلات العربية الى المستعمرة العسكرية في « لوثرا » Lucera .

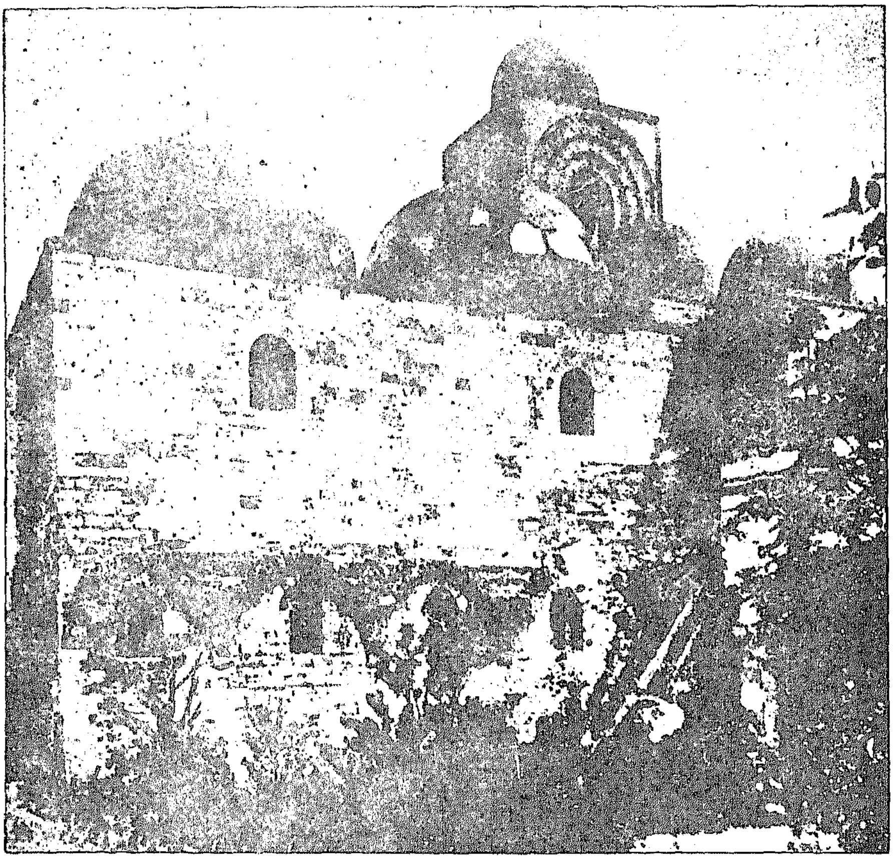

فن البناء العربي

لقد تأثر غزاة صقلية النورمانيون بالعرب أيما تأثير وأرادوا تقليدهم في كل شيء حتى في بنائهم للكنائس .

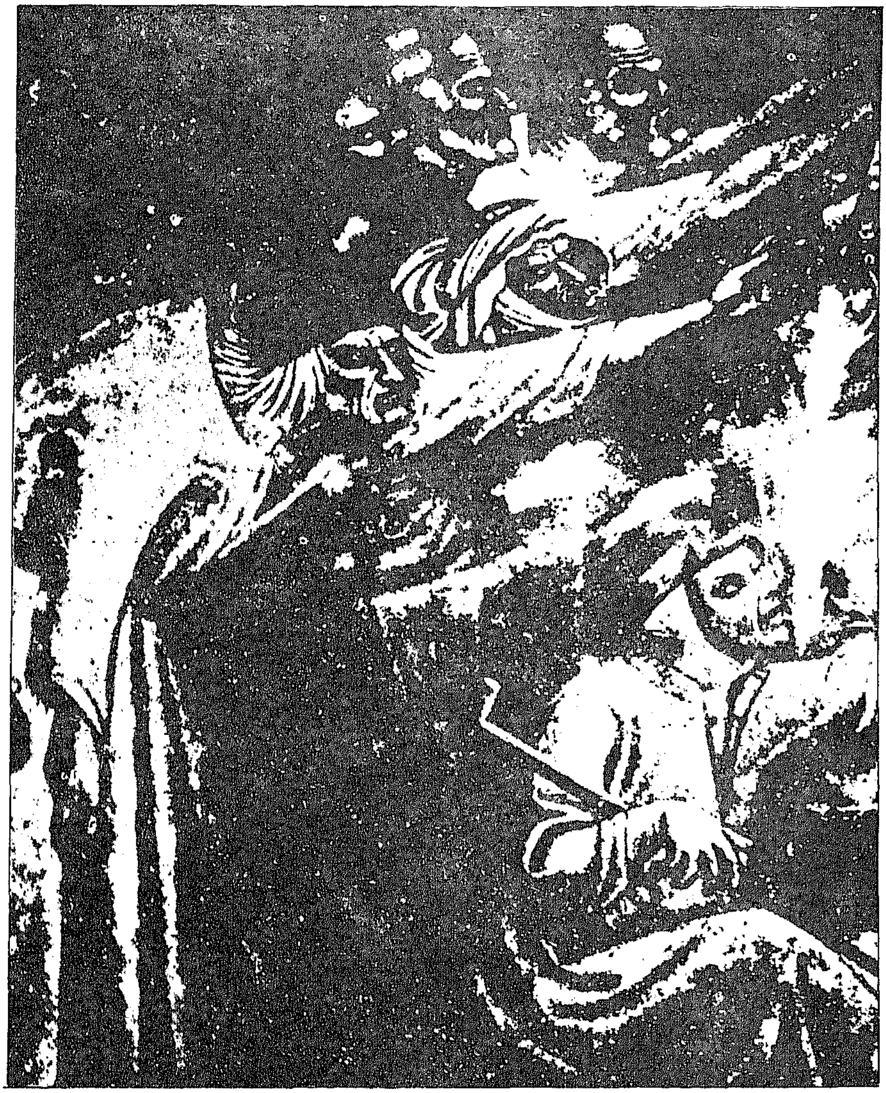

ابن رشد في لوحات الفنانين

دأب الرسامون في القرون الوسطى على تصنيف المفكر العربي ابن رشد في زمرة المذنبين والمضطهدين . وهذه لوحة ترمز الى « انتصار الموت » موجودة في متحف كامبوزانتو (Camposanto) في مدينة بيزا Pisa .

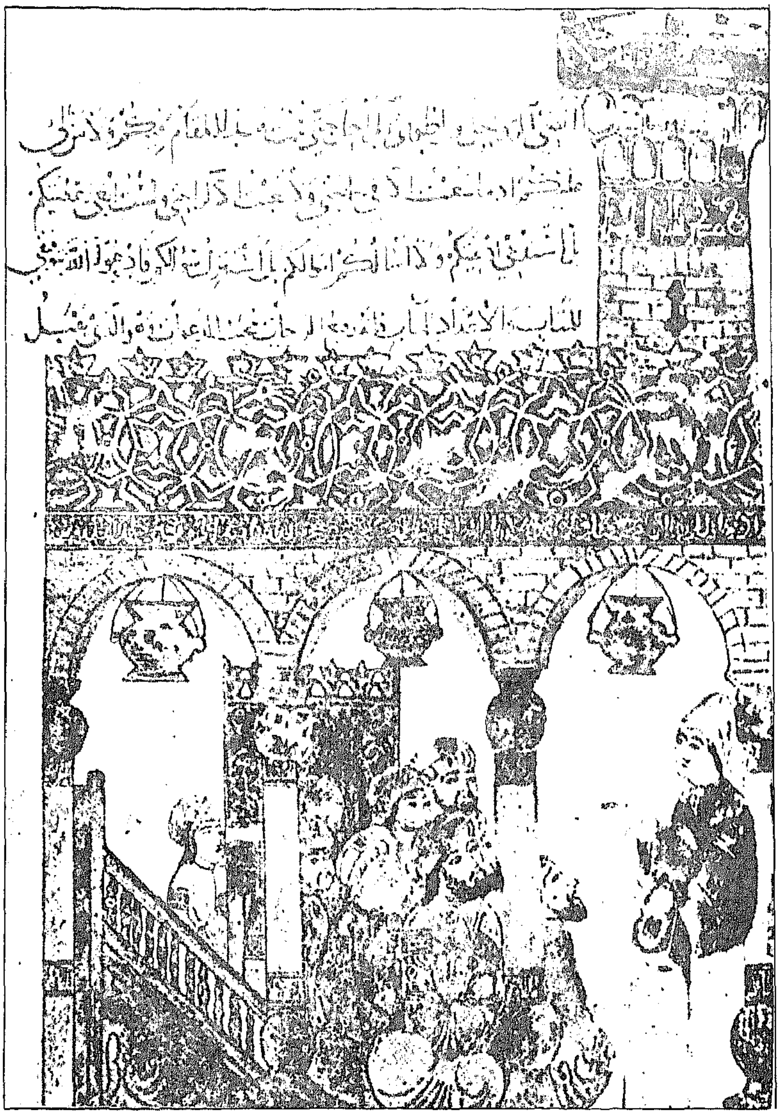

المرأة العربية في ميدان العلم

ان هذه الصورة تظهر لنا بوضوح كيف كانت المرأة العربية تشارك الرجل في حياته الفكرية. وهنا نرى استاذة وهي تلقي محاضرة عامة في جمع من الرجال والنساء اتوا جميعاً على حد سواء يبحثون عن الحقيقة والحكمة كما حثهم النبي على ذلك .

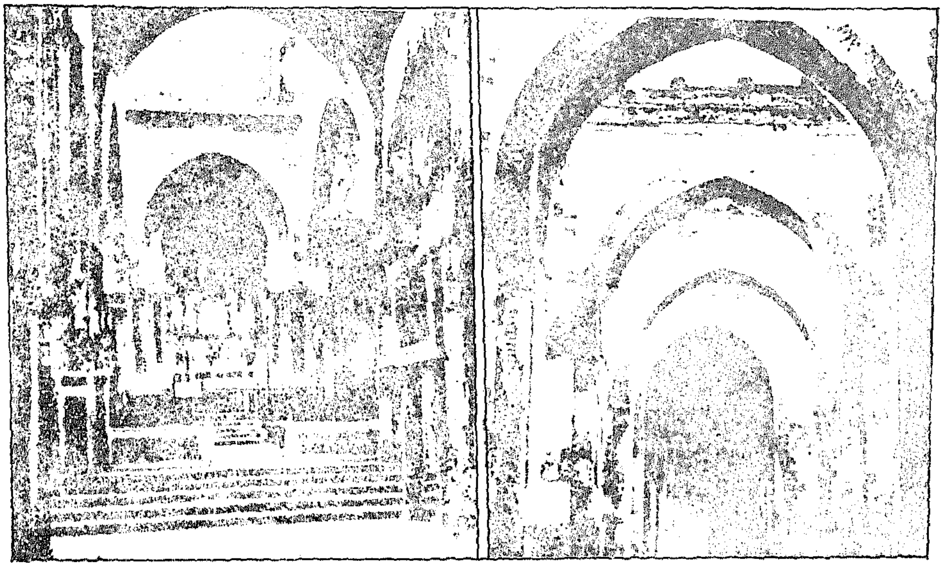

طراز البناء العربي

انتقل الطراز العربي في بناء العقود المنحنية الى اوروبة وتطور حتى اصبح عنصراً هاماً في فن البناء القوطي (Gotik) ، الصور من اليمين :

١ – تمثل لنا جانباً من هذه العقود في جامع « ابن طولون » بالقاهرة .

٢ – قبة مونديال بالقرب من بالرمو في النصف الاول من القرن الثاني عشر .

٣ – قبة « بيزا » وقد بدىء . تشييدها عام ١٠٦٣ اي بعد الاستيلاء على « بالرمو » .

٤ – كنيسة دير فونتناي Fontenay وقد بوشر في بنائها عام ١١٣٠ . ونرى الطراز العربي في بناء العقود المنحنية ، حتى في طراز الابواب ، كما يظهر في الرسم .

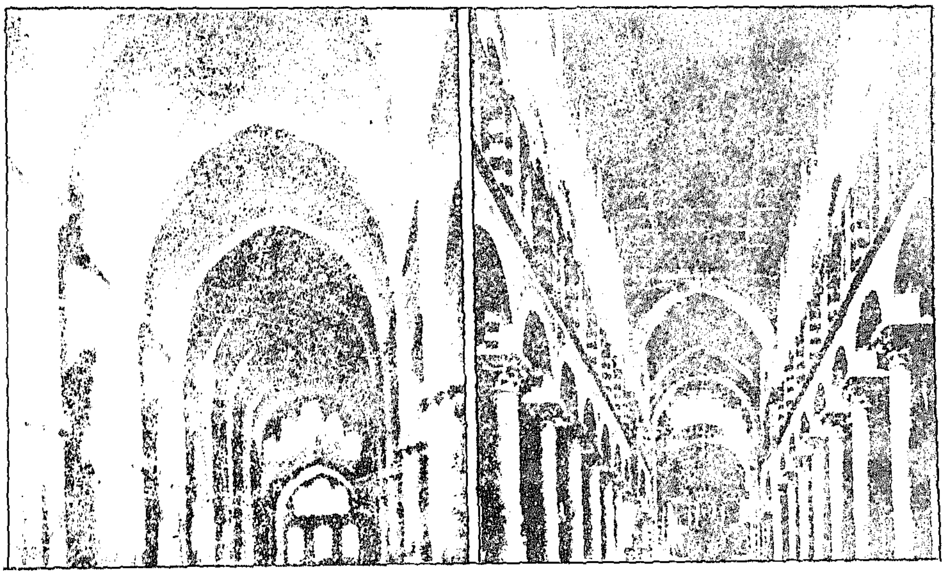

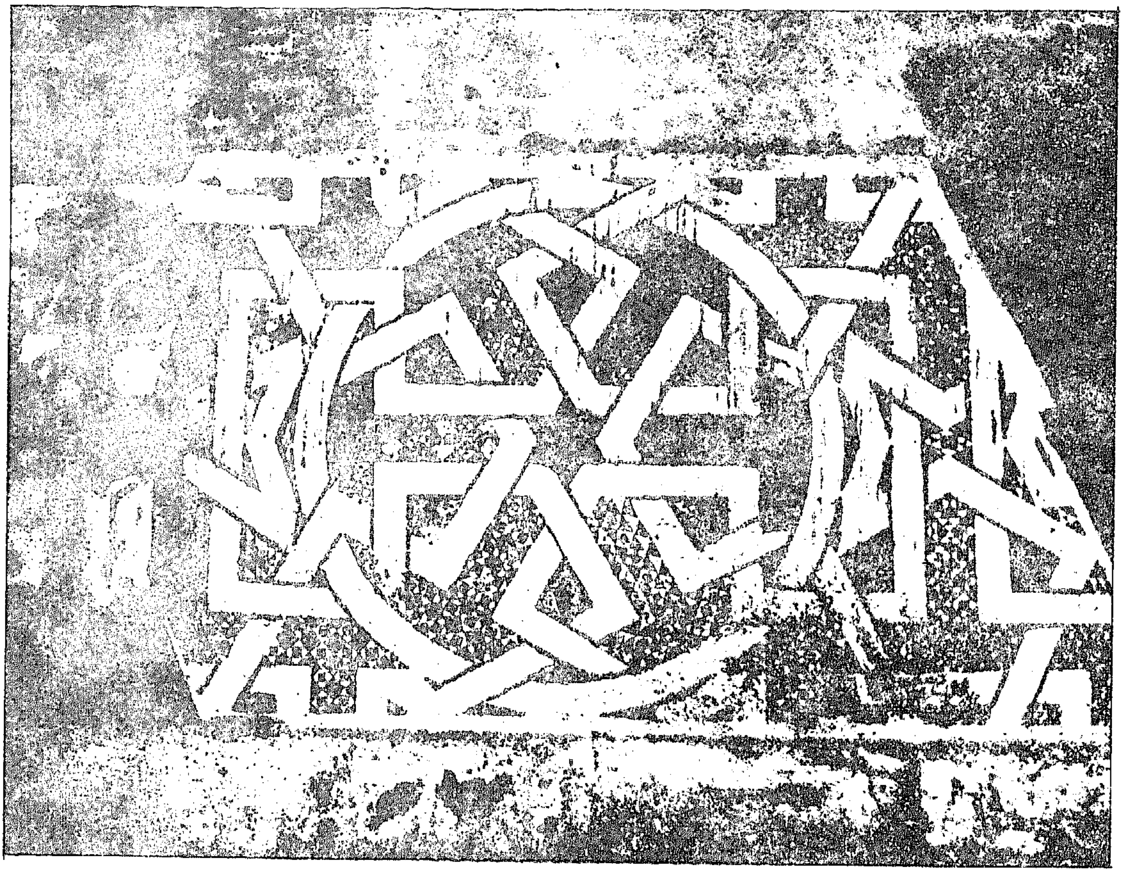

روائع عربية

جلب البيزاويون – نسبة الى بيزا – غنائم ثمينة ورائعة من المساجد العربية في « بالرمو » بعد أن أحالوها ركاماً .

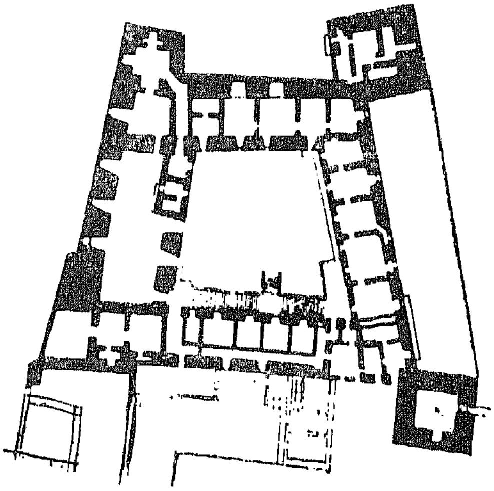

نموذج عربي لبناء القلاع في « باري »

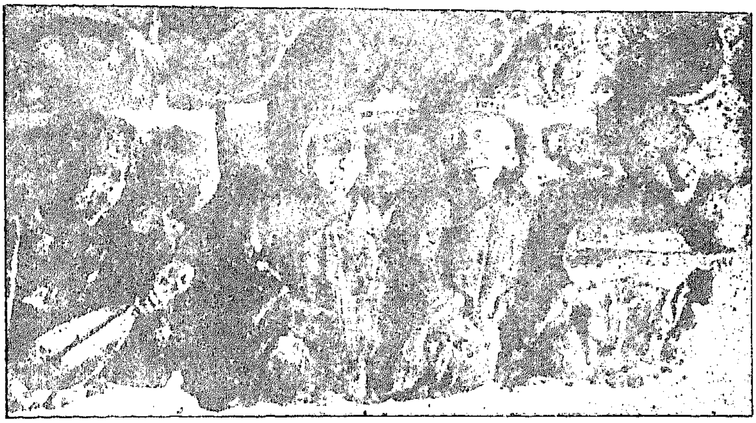

الات الموسيقى العربية

الآ لات الموسيقية العربية في المرحلة الاولى من تنقلها في بلاد الغرب . والصورة تمثل بمضاً منها في قصر رئيس اساقفة سانتياغو دي كومبوستالا « Santiago de Compostela » الذي كان من أكبر مراكز الاشعاع المسيحية الاوروبية .

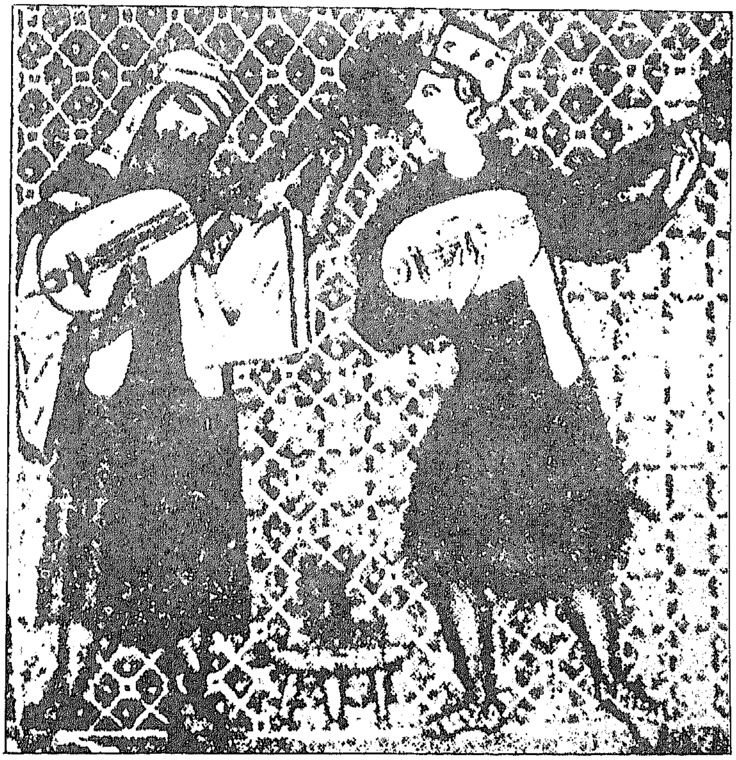

الفنانون العرب

تعلم الفنانون الغربيون اصول العزف على آ لات عربية على ايدي فنانين من عرب الاندلس .

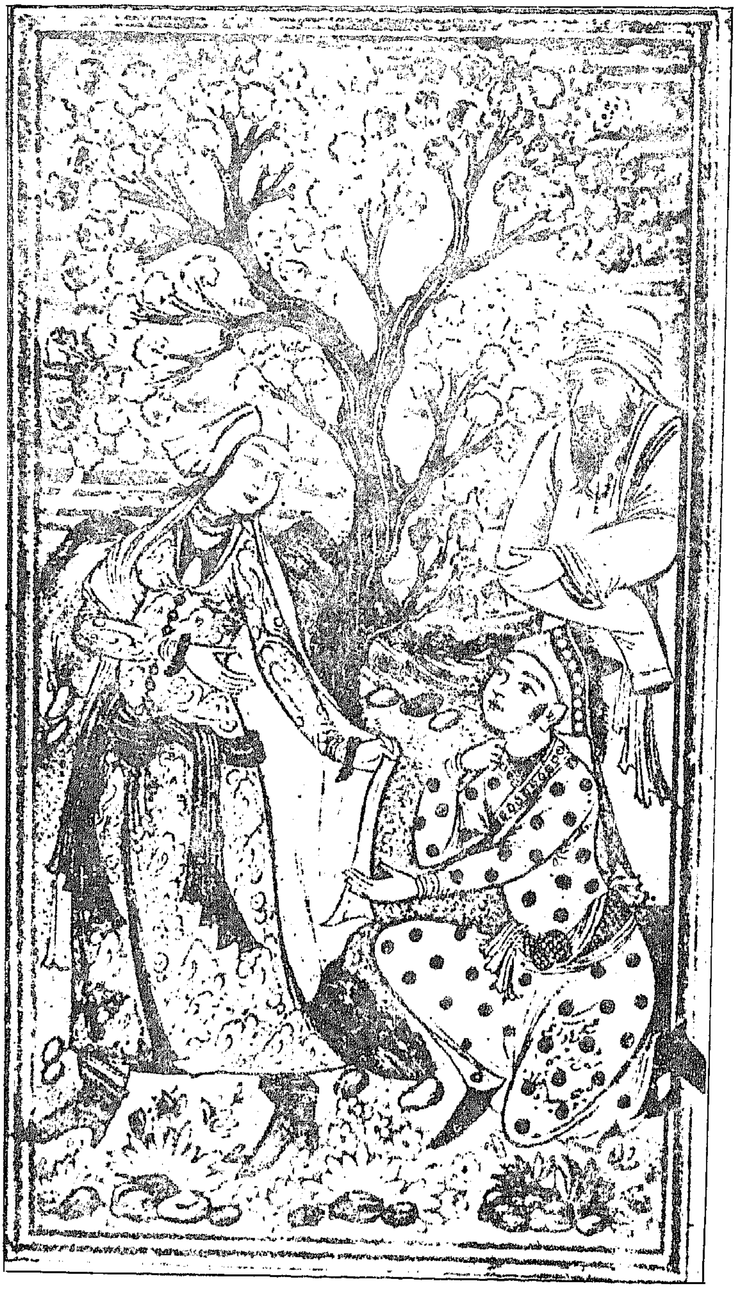

الهوى العذري عند العرب

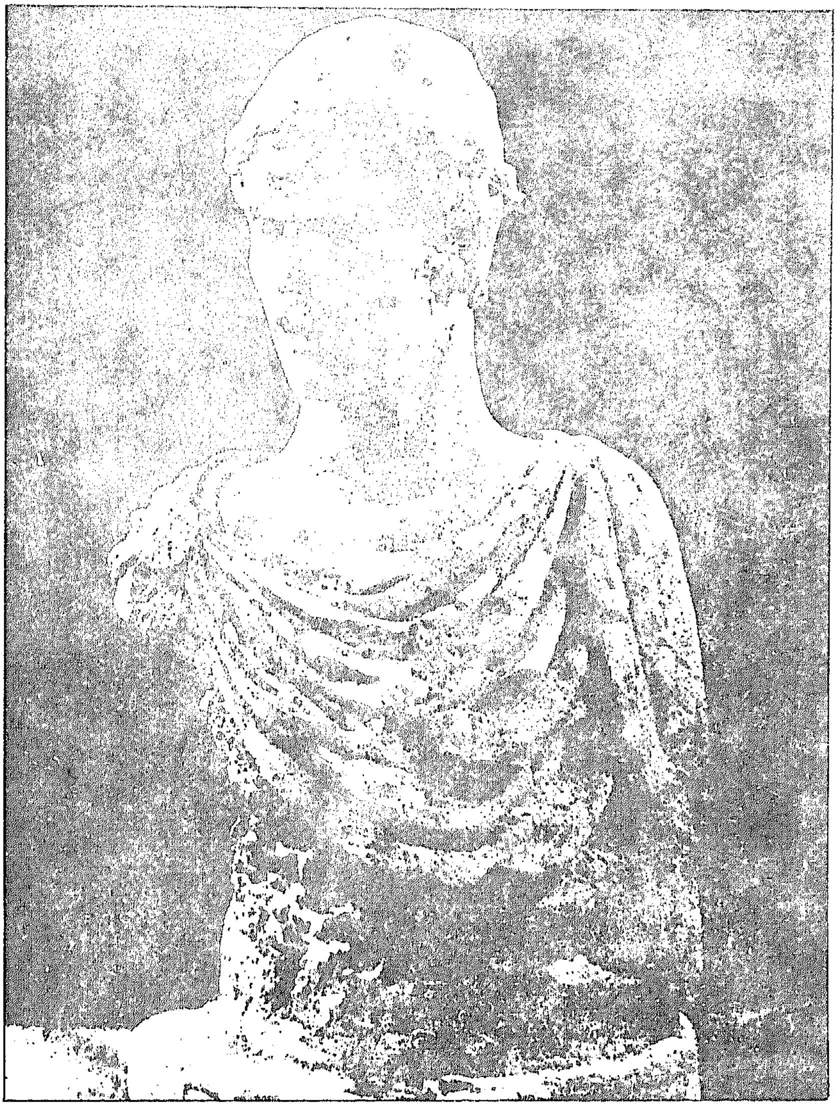

فريدريك الثاني

كتب العرب عن فريدريك الثاني ما معناه : « كان امبراطور وملك الفرنجة في صقلية رجلاً واسع الثقافة ، كثير القناعة ، درس الفلسفة والمنطق والطب درساً عميقاً ، وكان يحب المسلمين . »

فهرست

صفحة

كلمتنا ٧

مقدمة خاصة بالطبعة العربية ٩

مدخل ١١

الكتاب الاول : رفاهية حياتنا اليومية

١ ــ اسماء عربية لحاجات عربية ١٧

٢ ــ اوروبة الجائعة في ظل التجارة العالمية ٢١

٣ ــ البندقية محطة الحصار ٣٠

٤ ــ في مدرسة العرب ٤٠

حواشي الكتاب الاول ٥٦

الكتاب الثاني : العالم والارقام

١ ــ ما ورثناه عن الهند ٦٧

٢ ــ البابا يحسب بالعربية ٨٠

٣ ــ تاجر يعلم الغرب ٨٩

صفحة

٤ ـ الصراع المرير ٩٥
حواشي الكتاب الثاني ١٠٢

الكتاب الثالث : السماء التي تظللنا

١ ـ عالم الفلك موسى واولاده الثلاثة ١١٣
٢ ـ الابن الاول : عالم ميكانيكي ١٢٨
٣ ـ الابن الثاني : عالم فلكي ١٤٣
٤ ـ الابن الثالث : عالم الرياضيات ١٥٦
٥ ـ علم التنجيم ١٦٤
حواشي الكتاب الثالث ١٧٧

الكتاب الرابع : الايدي الشافية

١ ـ الفرنجة وفن الشفاء الأعجوبي ٢١٥
٢ ـ مستشفيات مثالية واطباء لم يرَ لهم العالم مثيلاً ٢٢٧
٣ ـ أحد أعظم اطباء الإنسانية إطلاقاً ٢٤٣
٤ ـ قيود القدامى ٢٥٨
٥ ـ سيراً في السبل الخاصة ٢٧٠
٦ ـ كتب تصنع التاريخ ٢٨٣
٧ ـ يقظة العرب ٢٩١
٨ ـ هكذا تكلم ابن سينا ٣٠٥
٩ ـ نصب تذكاري للعبقرية العربية ٣١٩
حواشي الكتاب الرابع ٣٣٦

صفحة

الكتاب الخامس : سلاح المعرفة

١ ـ المعجزة التي حققها العرب ٣٥٣
٢ ـ الغرب يسير في طريق مظلم ٣٥٩
٣ ـ منهج المنتصرين ٣٦٤
٤ ـ طلب العلم عبادة ٣٦٩
٥ ـ عملية انقاذ ذات معنى كبير في تاريخ العالم ٣٧٥
٦ ـ الترجمة من حيث هي عامل حضاري ٣٧٨
٧ ـ الشغف بالكتب ٣٨٥
٨ ـ شعب يذهب الى المدرسة ٣٩٣
٩ ـ هدايا العرب للغرب ٣٩٩

حواشي الكتاب الخامس ٤٠٣

الكتاب السادس : موحد الشرق والغرب

١ ـ دولة النورمان ، حلقة الاتصال بين عالمين ٤٠٩
٢ ـ توحيد الشعوب المتنازعة ٤٢٤
٣ ـ «سلطان» لوسيرا ٤٣١
٤ ـ لقد بني على اساس عربي ٤٤٠
٥ ـ احاديث عبر الحدود ٤٤٨
٦ ـ نظرة جديدة الى العالم ٤٥٦
حواشي الكتاب السادس ٤٦١

الكتاب السابع : عرب الاندلس

١ ـ اصل سيدات الطبقة الراقية ٤٦٧

صفحة

٢ – العالم كله مسجد كبير بني لي ٤٧٤

٣ – الحياة على نغمات الموسيقى ٤٨٨

٤ – زينة الدنيا ٤٩٦

٥ – شعب من الشعراء ٥٠٣

٦ – سلطان الحب ٥١٨

٧ – دروب التسرب الى الغرب ٥٢٨

خاتمة ٥٣٧

حواشي الكتاب السابع ٥٤٣

مقارنة تاريخية ٥٤٥

جدول لبعض الكلمات الالمانية المأخوذة عن العربية والفارسية ٥٥٢

جدول باسماء كواكب عربية الأصل ٥٥٨

فهرست ٥٦٠

dr. SIGRID HUNKE

ALLAHS SONNE UBER DEM ABENDLAND

UNSER ARABISCHES ERBE

ALLAHS SONNE UBER DEM ABENDLAND
UNSER ARABISCHES ERBE

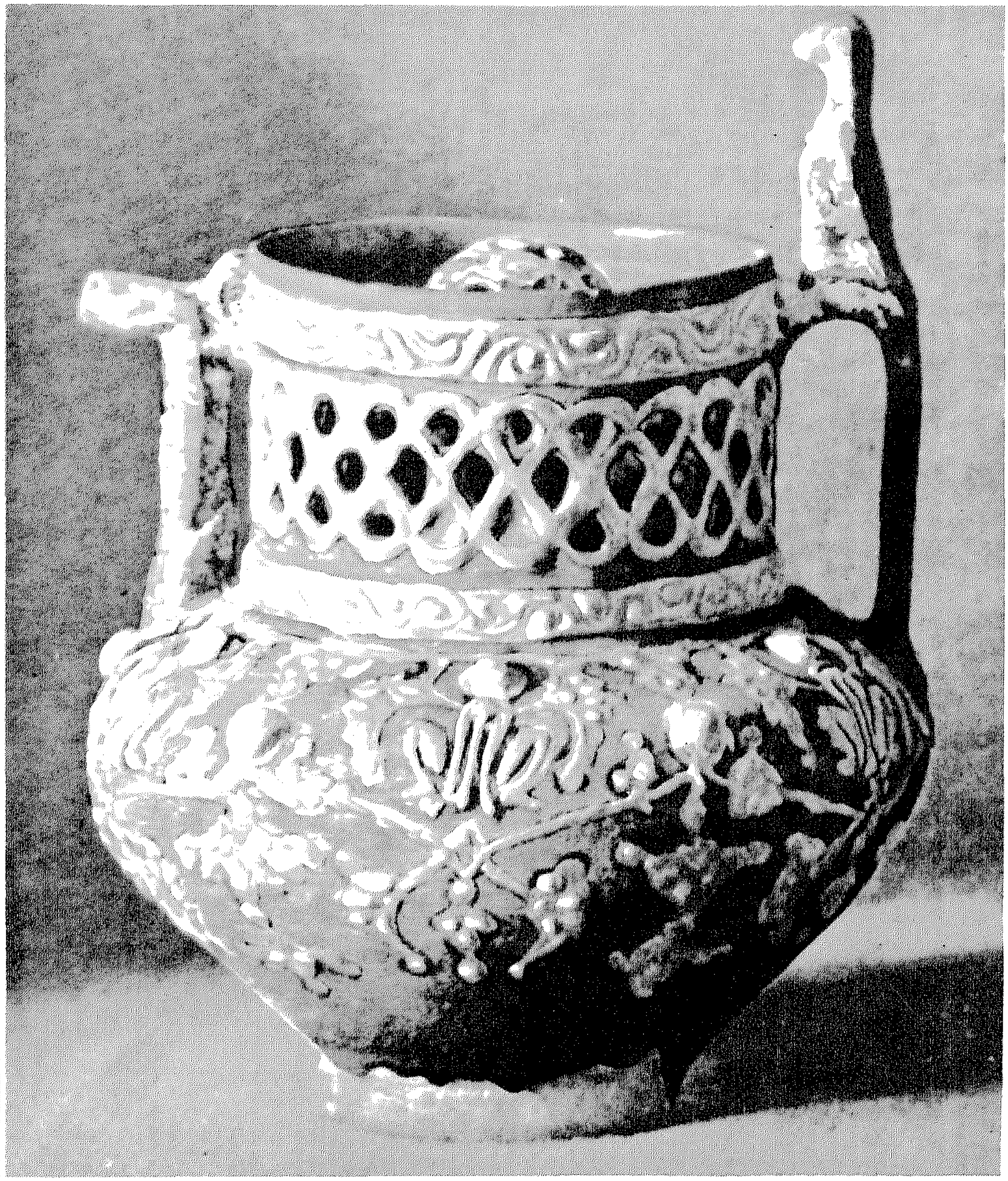

دار الآفاق الجديدة المغرب

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص. ب 17459 هاتف / تلكس 30098 [illegible]